مباحث
في ديموغرافية
غرب المتوسط
في العصر الوسيط

يوسف نكادي

eKutub Publishing House
London 2022

Researchs in the demographics of the Western Mediterranean in the Middle Ages
BY: Youssef Ngadi
All Rights Reserved to the author ©
Published by e-Kutub Ltd
Distribution: TheBookExhibition.com & Associates
All yields of sales are reserved to the author
ISBN: 9781780586847
First Edition
London, 2022
** * **

الطبعة الأولى،
لندن، 2022
مباحث في ديمغرافية غرب المتوسط في العصر الوسيط
المؤلف: **يوسف نكادي**
الناشر: e-Kutub Ltd، شركة بريطانية مسجلة في انجلترا برقم: 7513024
© **جميع الحقوق محفوظة للمؤلف**
التوزيع: TheBookExhibition.com
كل عائدات البيع محفوظة للمؤلف
لا تجوز إعادة طباعة أي جزء من هذا الكتاب إلكترونيا أو على ورق. كما لا يجوز الاقتباس من دون الإشارة الى المصدر.
أي محاولة للنسخ أو إعادة النشر تعرض صاحبها الى المسؤولية القانونية.
إذا عثرت على نسخة عبر أي وسيلة اخرى غير موقع الناشر (**إي- كتب**) أو غوغل بوكس أو أمازون، نرجو إشعارنا بوجود نسخة غير مشروعة، وذلك بالكتابة إلينا:
ekutub.info@gmail.com
يمكنك الكتابة الى المؤلف على العنوان التالي:
y.ngadi55@hotmail.fr

الفهرس

مقدمة

شهدت أقطار أوربا تحولات كبرى منذ عشرينيات القرن الماضي. تزايدت وتيرتها، فيما يبدو، غداة الحرب العالمية الثانية. وكان لتلك التحولات أثر بالغ على مسيرة البحث العلمي في فرنسا، ومن ضمنه البحث التاريخي.

فقد دفعت تلك التحولات المشتغلين بصناعة التاريخ إلى مراجعة تصورهم لتطور التاريخ، والى إعادة النظر في المناهج التي كانوا يتبنونها في البحث.

وكان من نتائج المراجعة وإعادة النظر، أن تراجع الاتجاه المعروف بالتاريخ الحدثي. وكان أتباعه يعتمدون على النص التاريخي دون سواه. ويحصرون همهم في استعراض الأحداث السياسية والعسكرية، وتاريخ الأسر الحاكمة والفئات الدائرة في فلكها. وأخذ يحل مكانه تدريجيا اتجاه جديد نزع رواده نحو الاهتمام بالفئات العريضة من المجتمع. فشرعوا في رصد أدوارها في الأحداث الكبرى. كما اهتموا بالبحث في أعدادها، وفي أنماط حياتها وفي أوضاعها المعاشية والصحية، وفي عاداتها وقيمها ومواقفها الذهنية. وكان هذا التحول يعني اتساع دائرة المواضيع المتناولة. ومن ثم، أضحى المؤرخون ملزمين بتنويع المصادر المعتمدة، وتطوير المناهج والمقاربات، وتحسين أدوات وتقنيات البحث. ولذلك تم الانفتاح على علوم وحقول معرفية أخرى، كعلم الاجتماع والأنثروبولوجيا والجغرافيا وعلم الاقتصاد والديموغرافيا والرياضيات والإحصاء، للاستفادة من انجازاتها المنهجية والمعرفية.

ومما لا شك فيه، أن الاستفادة كانت جليلة. إذ مكنت المؤرخين من المضي قدما في توسيع آفاق القضايا المتناولة والارتقاء بمستوى البحث.

ويتضح ذلك، إذا علمنا بأن الانفتاح على الأنثروبولوجيا، بوصفها أحد العلوم السالف ذكرها، مكن من البحث في قضايا ومواضيع كان البحث فيها محدودا جدا مثل العادات والتقاليد ومنظومة القيم والمواقف الذهنية. بينما سمح الانفتاح على الجغرافيا، بشقيها البشري والطبيعي، من معالجة قضايا تعد اليوم ذات أهمية بالغة في البحث التاريخي مثل قضايا التعمير وأشكال السكن وأنشطة السكان واثر المعطيات الطبيعية فيها.

أما الانفتاح على علمي الاقتصاد والديموغرافيا، فسمح للمؤرخين باقتحام مواضيع لم يكن أحد ينتظر أن تصبح يوما ما ضمن ملف المواضيع المتناولة، مثل موضوع النقود وحركة الأسعار والأجور وتطور أعداد السكان في مجال معين ومعدل الولادات والوفيات ومسألة الخصوبة في أوساط الأسر، وظاهرة الهجرة، وقضايا الصحة، وما إلى ذلك. كما مكن في ذات الوقت من تبني المقاربة الكمية والانتقال من الوصف إلى الاستقراء والتحليل.

وعموما، أفضى انفتاح المؤرخين على العلوم المشار إليها إلى اتساع نطاق البحث التاريخي. حتى أضحى هذا الانفتاح اليوم، يبدو وكأن لا حدود له. بل أدى إلى نتيجة عكسية. تمثلت في نشأة حقول معرفية جديدة، أبرزها الأنثروبولوجيا التاريخية والديموغرافيا التاريخية.

استمدت هذه الأخيرة من التاريخ البعد الزمني. وأخذت من الديموغرافيا وعلم الاقتصاد المقاربة الكمية. ورغم ذلك، سعت منذ النشأة أن تكون حقلا معرفيا مستقلا وقائما بذاته. وقد قطعت فعلا أشواطا بعيدة في هذا الاتجاه.

وعلى العكس من ذلك، لا زالت لم تحظ بعد بالاهتمام في أقطار الوطن العربي. فقد بذل باحثون، عرب ومستشرقون، يشتغلون في حقل الجغرافيا البشرية وفي حقل علم الاجتماع وفي حقل الديموغرافيا، جهودا مضنية منذ مطلع القرن التاسع عشر لدراسة

السكان في المجال العربي الإسلامي سواء من حيث تطور أعدادهم، أو من حيث توزيعهم الجغرافي. أو فيما يتعلق بعاداتهم وتقاليدهم، أو فيما يتعلق بنسبة الولادات ونسبة الوفيات في أوساطهم، أو تحركاتهم بين الجهات داخل كيان سياسي أو هجراتهم نحو الخارج.

وساهم المشتغلون في حقل التاريخ بدورهم في هذا الجهد. فاهتم بعضهم بدراسة أصول سكان أحد أقطار المجال العربي الإسلامي. بينما حاول البعض الآخر دراسة الأوضاع الاجتماعية لفئة من السكان خلال حقبة تاريخية معينة. ولكن لا أحد من هؤلاء الباحثين تجرأ على البحث في إحدى القضايا، أو الظواهر المرتبطة بسكان المجال العربي الإسلامي في الزمن الماضي، من وجهة نظر ديموغرافية.

ولتجاوز هذا القصور، تأسست في شهر يونيو 1994 "مجموعة بحث في الديموغرافيا التاريخية" بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة وجدة المغربية. حاول أعضاؤها، المنتمون لشعبة التاريخ، إثارة انتباه الباحثين في المغرب وخارجه الى أهمية الديموغرافيا التاريخية. وتبيان إمكانيات وحدود البحث في هذا الحقل المعرفي في ضوء النصوص والوثائق التي توفرها المكتبة التاريخية.

ولتحقيق هذا المسعى، نظمت المجموعة عدة ندوات علمية وأيام دراسية. نشرت معظم أعمالها في مجلة متخصصة تحمل اسم "كنانيش"، في إشارة الى الحمولة الديموغرافية لهذا النوع من الوثائق في المغرب. حيث تتضمن معطيات حول أعداد "الكوانين" و"السروج". وما زال مفرد الكلمة (أي كناش) يطلق على الدفتر الذي يتوفر عليه رب كل أسرة. ويتألف من مجموعة صفحات يتم في كل واحدة منها تقييد معلومات عن كل حالة ولادة أو وفاة حدثت في وسط تلك الأسرة.

وإسهاما منا في إثراء حصيلة ما تتضمنه الأعداد التي صدرت من مجلة كنانيش، ارتأينا انجاز هذا الكتاب الذي يتألف من مجموعة

مباحث. أردنا تخصيص أولها لتسليط الضوء على نشأة وتطور الديموغرافيا التاريخية. بينما حاولنا أن تكون المباحث الأخرى عبارة عن دراسات أمبريقية لقضايا ديموغرافية محددة مجالها الجغرافي غرب البحر المتوسط وزمانها العصر الوسيط.

وقد يلاحظ القارئ أننا ركزنا على الأندلس وفرنسا. ويعود سبب ذلك الى معرفتنا ببعض جوانب تاريخهما خلال العصر الوسيط. وهي معرفة تراكمت على امتداد أربعة عقود قضيناها في تدريس تاريخ أوربا في العصر الوسيط، وفي البحث في بعض قضاياه. وكذلك في البحث في بعض قضايا تاريخ الأندلس.

ولا ننكر بان المباحث التي يتضمنها هذا المؤلف لا ترقى الى مستوى البحوث التي تم انجازها في فرنسا، باعتبارها القطر الرائد في حقل الديموغرافيا التاريخية. ولكننا نسعى من خلالها إثارة انتباه المشتغلين في حقل التاريخ. وإنارة السبيل أمام بعض الطلبة الذين شرعوا منذ مطلع الألفية الثالثة في اقتحام غمار البحث في الديموغرافيا التاريخية.

نأمل على كل، أن تحظى هذه المحاولة بالقبول من لدن هؤلاء وأولائك ومن لدن عموم القراء. والله ولي التوفيق.

يوسف نكادي

وجدة حاضرة زيري بن عطية

في 04 ذو الحجة 1443

الموافق 04 يوليوز 2022

المبحث الأول: نشأة وتطور الديموغرافيا التاريخية

تنعت **الديموغرافيا**، التي انفتح عليها **المؤرخون**، وانبثقت عن انفتاحهم عليها **الديموغرافيا التاريخية**، بكونها **علم السكان**. يهتم المشتغلون بها بدراسة السكان، من حيث العدد، ومن حيث التوزيع الجغرافي، ومن حيث التوزيع الجنسي بين ذكور وإناث، ومن حيث معدل الولادات والوفيات في أوساطهم، وما إلى ذلك من قضايا وظواهر ديموغرافية مثل ظاهرتي الخصوبة والهجرة.

ولتحقيق مسعاهم يعتمدون على المعطيات التي تتضمنها سجلات الحالة المدنية، وعلى تلك التي توفرها عمليات الإحصاء العام للسكان. ويتبنون المقاربة الكمية في استغلال وتوظيف تلك المعطيات لتحقيق نتائج وخلاصات على جانب كبير من الدقة.

وقد حققت **الديموغرافيا** تطورا ملحوظا منذ منتصف القرن الماضي. ارتبط هذا التطور بالتحول العام الذي شهدته مختلف حقول المعرفة كما أشرنا إلى ذلك. كما ارتبط بالمستجدات التي ميزت مرحلة ما بعد الحرب العالمية الثانية. إذ بانتهاء فصول هذه الملحمة، شرع صناع القرار، والباحثون، في أقطار أوربا، في تقييم الخسائر البشرية التي كانت فادحة. وهذا ما يفسر إلى حد ما الاعتبارات التي دعت ساسة فرنسا إلى إصدار مرسوم في شهر أكتوبر 1945 تم بموجبه إنشاء المعهد الوطني للدراسات الديموغرافية[1] (Institut National d'Etudes Démographiques) الذي شرع الباحثون المنضوون فيه في دراسة تطور أعداد سكان فرنسا والعالم، وتحليل القضايا والظواهر الديموغرافية. فأخذت الأرقام والمقاربة الكمية للمعطيات تحتل جانبا مهما من الأبحاث والتقارير والمقالات

---

[1]- أنظر مقال :
Alain Drouard,"La création de l'INED ", Population, novembre-décembre, 1992, pp. 1451-1466.

التي كانت تنشر على صفحات مجلة "سكان" (Population) التي أضحت منذ 1946 منبر المعهد الذكور.

ولم يتخلف المشتغلون في حقل **البحث التاريخي** عن مواكبة هذه الحركة، حيث ركب عدد منهم هذا التيار وحاولوا تبني المناهج المتبعة من قبل **الديموغرافيين** في دراساتهم لقضايا ذات صلة **بالسكان في الأزمنة الماضية**. وكان من بين هؤلاء المؤرخين الفرنسي جون موڤري (Jean Meuvret) والأمريكي جوزيا كوكس راسل (Josiah Cox Russell). فقد نشر الأول مقالا سنة 1946 بمجلة "سكان" (Population) تحت عنوان "أزمات المواد الغذائية وديموغرافية فرنسا في عهد النظام القديم"[2]. حرص فيه على المقابلة بين المنحنيات ذات الصبغة الاقتصادية وتلك ذات الطابع الديموغرافي. فبين بأن كل موجة ارتفاع لأسعار الحبوب، وهي مؤشر على ندرة المحاصيل الزراعية أو قرب حدوث أزمة غذائية، كان يقابلها ارتفاع في عدد الوفيات وتراجع في عدد حالات الزواج. وأصدر الثاني كتابا سنة 1948 حول "تطور ساكنة أنجلترا في العصر الوسيط"[3]. حاول فيه رصد تطور ساكنة أنجلترا منذ الغزو النورماندي حتى تفشي طاعون 1348. ولكن الكتاب لم يحظ بالاهتمام اللازم، رغم أن مجلة "سكان" عرفت به في صفحة من عددها الرابع برسم سنة 1949[4] ، ورغم أن أحد الباحثين نعت مؤلفه، سنوات بعد ذلك، بكونه "أستاذ في الديموغرافيا التاريخية"[5].

---

[2] - "Les crises de subsistances et la démographie de la France d’ancien régime", Population, No 4, octobre-décembre, 1946, pp. 643-650.

[3] - British medieval population, Albuquerque, University of New Mexico Press, 1948.

[4] - Population, vol.4, No 4, 1949, pp. 771-772.

[5] - وردت هذه الشهادة في مقدمة عرض نقدي أنجزه روجي مولس (Roger Molls) حول كتاب راسل "الجهات القروسطوية والمدن التابعة لها" :

"Russell Josiah Cox, Medieval regions and their cities", Revue Belge de Philologie et d’histoire,, vol. 52, No 52-1, 1974, pp. 111-115.

ويبدو أن ضخامة الكتاب، وصرامة المنهج المتبع في تناول موضوعه، فضلا عن الشهادة التي قيلت في حق مؤلفه، اعتبارات لم تكن كافية ليتم إدراج اسم راسل ضمن الرواد المؤسسين **للديموغرافيا التاريخية**. إذ يتنكر الذين كتبوا عن الديموغرافية التاريخية لجهود الرواد. ويصرون على ربط نشأتها باسم لوي هنري[6]. ولذلك يقتصر هؤلاء على الاحتفاظ باسم جون موڤري، الذي يرون بأن مقاله كان يؤشر عن قرب مولد الحقل المعرفي الجديد، الذي عرف فيما بعد **بالديموغرافيا التاريخية**. بينما يربطون نشأته الشبه رسمية بالأبحاث التي أنجزها لوي هنري (Louis Henry) (1911-1991)، وخاصة منها البحث الذي نشره سنة 1953، وخصص موضوعه لرصد ظاهرة الخصوبة خلال القرن العشرين[7].

وقد اقتنع في إحدى مراحل البحث، بأن فهم تجليات تلك الظاهرة، لا يمكن أن يتأتى إلا باستعراض مقدماتها، أو أصولها، خلال الفترات السابقة على القرن العشرين، واعتمادا على نصوص خاصة، وليس على سجلات معاهد الإحصاء الرسمية. فعكف على معالجة هذا الجانب.

ومن المفيد الإشارة أيضا الى أن الباحث الأمريكي بيتر هاريس (P.M.G. Harris) أقر مؤخرا بأن كتاب راسل يعد أحد الكلاسيكيات قبل أن تضحى الديموغرافيا التاريخية موضة عالمية بعد سنة 1960. أنظر الشهادة في مؤلفه :

The history of human population, Westport (USA, Green Wood Publishing Group, 2001, vol. I, p. 127.

[6] - أنظر في هذا الشأن ما يذكره أندري بوركيير (André Burguière) في مداخلته الموسومة ب "الديموغرافيا" (la démographie) ضمن الجزء الثاني من المؤلف الجماعي :

Faire de l’histoire, tome II, Nouvelles approches, Paris, Gallimard, 1974, p. 101.

[7] - Fécondité des mariages**.** Nouvelle méthode de mesure, Paris, Institut National d'Etudes Démographiques, 1953.

وكذلك ما يورده جاك ريفيل (Jacques Revel) في مقدمة الصفحات التي كتبها تحت عنوان "الديموغرافيا التاريخية" في المؤلف الجماعي :

La nouvelle histoire, Paris, Retz C.E.P.L., 1978, pp. 133-138.

ورغم الترحيب الذي قوبلت به أبحاث لوي هنري من قبل الديموغرافيين، وعدد من الباحثين، فقد أثارت تحفظ معظم المشتغلين بالبحث التاريخي، وعلى رأسهم بيير ڭوبير (Pierre Goubert) الذي رأى أن تلك الأبحاث أقرب إلى علم الأنساب (la généalogie) منها إلى علم التاريخ، لأن حضور التاريخ فيها حضور باهت. ومن ثم، خلص إلى أنه لا يمكن الجزم بأنها تؤسس لعلم جديد اسمه الديموغرافيا التاريخية.

وكان من تداعيات موقف بيير ڭوبير، إقرار لوي هنري بأهمية التاريخ في البحث الديموغرافي. واعتبر أن "الماضي يعد مختبرا بالنسبة للديموغرافي"[8]. وجسد هذا الموقف في دراسة أنجزها سنة 1956 بمعية ميشال فلوري (Michel Fleury) (-2002-1923)، محافظ أحد مراكز الأرشيفات بباريس، تحت عنوان: "من سجلات الأبرشيات إلى تاريخ السكان: كتاب لفرز واستغلال الحالة المدنية القديمة"[9]. اقترح في هذه الدراسة منهجية جديدة لاستغلال سجلات الأبرشيات من أجل إعادة بناء تركيبة الأسر، وتاريخ السكان بوجه عام.

وقد حظي الكتاب هذه المرة بترحيب يكاد يكون شاملا. وحقق انتشارا واسعا في ظرف وجيز. وأضحت المنهجية التي اقترحها الباحثان تعرف، منذ ذلك الوقت، باسم منهجية هنري- فلوري.

وبموازاة النقاش الدائر بين بيير ڭوبير ولوي هنري، كان بعض الباحثين يشتغلون في صمت للإسهام في الجهود المبذولة. ومن بينهم الكندي جاك هنريبان (Jacques Henripin) الذي أصدر سنة

---

[8] - يمكن الاطلاع على هذا الموقف في مقال :
Henri Charbonneau, "Louis Henry et la démographie historique", Population, No 6, déc. 1995, pp. 1663-1671.

[9] - Des registres paroissiaux à l’histoire de la population. Manuel de dépouillement et d’exploitation de l’état civil ancien, Paris, Les Editions de l’INED, 1956.

1954 أطروحته حول "سكان كندا عند مطلع القرن الثامن عشر"[10]، والبلجيكي روجي مولس (Roger Mols) الذي أصدر بين سنتي 1954 و1956 كتابا ضخما من ثلاثة أجزاء حول تطور سكان مدن أوربا بين القرنين الرابع عشر والثامن عشر[11]. أراده أن يكون "مدخلا إلى الديموغرافيا التاريخية"، والفرنسي (الألزاسي) فليب دلانجر (Philippe Dollinger) الذي أنجز مقالا سنة 1955 حول "تعداد سكان مدينة ستراسبورغ سنة 1444"[12].

والراجح أن تلك الأبحاث لم تستجب لتطلعات القائمين على إرساء أسس العلم الناشئ، لأن مؤلفيها لم يتبنوا منهجية هنري- فلوري. وهذا ما يفسر عدم ذكر أسمائهم من قبل الذين قاموا برصد نشأة وتطور الديموغرافيا التاريخية، رغم أن بيير ڱوبير خص كتاب مولس بورقة تعريفية سنة 1959[13].

وعلى كل، فقد عد بيير ڱوبير أبرز مؤرخ محترف تبنى منهجية هنري- فلوري في أبحاثه، وخاصة في أطروحته الصادرة سنة 1960. وهي عبارة عن بحث مونوغرافي استغل فيه سجلات الأبرشيات لرصد تطور ساكنة منطقة بوڤيزي بين سنتي 1600 و1730[14].

وبما أن الحيز الزمني الذي يندرج في إطاره موضوع البحث شهد أزمة اقتصادية شملت المنطقة، ومجموع التراب الفرنسي

---

[10] - La population canadienne au début du XVIIIe siècle, Paris, les Publications de l'INED et P.U.F., 1954.

[11] - Introduction à la démographie historique des villes d'Europe du XIVe au XVIIIe siècle, Louvain, Publications de l'Université de Louvain, 1954-1956, 3 vol.

[12] -"Le premier recensement et le chiffre de la population de Strasbourg en 1444", Revue d'Alsace, tome 94, 1955, pp. 112-124.

[13]" - Roger Mols, Démographie historique des villes d'Europe du XIVe au XVIIIe siècle", Annales E.S.C, vol.14,1959, pp.373-377.

[14] - صدرت الأطروحة بباريس ضمن منشورات SEVPEN تحت عنوان :
Beauvais et le Beauvaisis de 1600 à 1730. Contribution à l'histoire sociale de la France au XVIIe siècle.

والأوربي، فقد حاول ڰوبير، انطلاقا من تلك النصوص، تبيان العلائق (les corrélations) بين الأزمة الاقتصادية والأزمة الديموغرافية.

وإذا كان بيير ڰوبير قد نجح في تحقيق هذا المسعى، فإن دراسته تجاوزت هذه الخلاصة المعرفية إلى نتيجة علمية أبعد من ذلك. تمثلت في كون صدورها سنة 1960 عُدَّ في نظر المهتمين بمثابة إعلان رسمي عن ولادة الديموغرافيا التاريخية.

وانطلاقا مما تقدم، نستطيع القول، مجاراة للرأي السائد، أن الديموغرافيا التاريخية "منتوج فرنسي". وأن نشأتها تمت بسرعة لا تكاد تصدق. فبعد الإرهاصات الأولى، التي شغلت الفترة الممتدة بين سنتي 1946 و1953، مرت عملية التأسيس الفعلي بثلاث مراحل أساسية في حيز وجيز جدا وهي:

أولا مرحلة طغيان البعد "البوليتكنيكي" وسيادة التحليل الإحصائي الصرف في البحث (بين سنتي 1953 و1956). على اعتبار أن "واضع حجر الأساس"، ونعني به لوي هنري، كان بوليتكنيكيا، في المقام الأول، ينجز أبحاثه لحساب المعهد الوطني للدراسات الديموغرافية.

ثانيا مرحلة بداية حضور البعد التاريخي في البحث واعتماد الوثيقة التاريخية (أي سجلات الأبرشيات) (بين سنتي 1956 و1960). وتم ذلك تحت تأثير ميشال فلوري الذي كان مختصا في دراسة وتحليل الوثائق كما ذكرنا من قبل.

ثالثا مرحلة الحضور المكثف للتحليل التاريخي في البحث (منذ سنة 1960) بفعل إسهامات بيير ڰوبير الذي كان مؤرخا مختصا في تاريخ الأزمنة الحديثة عموما، والقرن السابع عشر بوجه خاص.

ومنذ سنة 1960، تاريخ صدور أطروحة بيير ڰوبير، كما أشرنا إلى ذلك فيما مضى، توالت في فرنسا الأبحاث والدراسات التي طغى عليها الطابع المونوغرافي، من قبيل دراسة ادوارد براتيي

(Edward Baratier) حول "الديموغرافيا البروڤونسية"[15]، ودراسة جون ڴانياج (Jean Ganiage) في موضوع "ثلاث قرى من جزيرة فرنسا في القرن الثامن عشر"[16]. كما تم إنشاء عدة معاهد ومختبرات وهيئات مختصة في الديموغرافيا التاريخية. لعل أبرزها "جمعية الديموغرافيا التاريخية (la Société de Démographie Historique) التي تأسست بباريس سنة 1963. وشرعت في السنة الموالية في إصدار أشهر دورية تعنى بالديموغرافيا التاريخية: "حوليات الديموغرافيا التاريخية" (Annales de démographie historique) التي لا زالت تصدر بانتظام إلى اليوم.

وساهم في تفعيل حركة البحث والتأليف في الديموغرافيا التاريخية عدد من باحثي أقطار أوربا الأخرى، من بينهم ثلة من الباحثين الأنجليز شاركوا في إنجاز مؤلفيين جماعيين. صدر الأول سنة 1965، وتضمن مجموعة أبحاث حول "السكان في التاريخ"[17]. وصدر الثاني في السنة الموالية، ورام المشاركون في الأبحاث التي تضمنها أن يكون "مدخلا إلى الديموغرافية التاريخية الأنجليزية"[18].

وكان من نتائج هذه الإسهامات أن تطورت مناهج البحث وتحسنت تقنيات وأدوات معالجة النصوص. كما اتسعت دائرة القضايا والمواضيع المتناولة. بحيث أصبح المؤرخون المهتمون

---

[15] - La démographie provençale du XIIIe au XVIe siècle, Paris, SEVPEN, 1961.

[16] - Trois villages de l'Ile-de-France au XVIIIe siècle, Paris, Publications de l'INED, 1963.

[17]- Population in history. Essays in historical demography, book under direction David Victor Glass and Charles David Edward, London, Edward Amold, 1965.

[18]- يتعلق الأمر بالكتاب الصادر تحت إشراف ادوارد أنطوني ورايڴلر (Edward Antony Wrigler):

An introduction to English historical demography, London, Weidenfeld and Nicholson, 1966.

بالديموغرافيا التاريخية لا يترددون في تناول القضايا والظواهر الديموغرافية التي كانت فيما مضى حكرا على المختصين في الديموغرافيا.

والملاحظ أن القرنان السابع عشر والثامن عشر ظلا يمثلان الحيز الزمني الأكثر استقطابا للباحثين نظرا لغناهما بسجلات الأبرشيات المساعدة على البحث. وتؤلف هذه السجلات، كما هو معلوم، سلسلة متصلة. كما أنها توفر للباحث المعطيات الرقمية التي تقتضيها المقاربة الديموغرافية.

ومنذ أواخر ستينيات القرن الماضي، أخذ العصر الوسيط يمثل إطارا لأبحاث في الديموغرافيا التاريخية أنجزها عدد من المختصين في قضاياه. اقتحموا بدورهم مجال هذا الحقل المعرفي رغم اختلاف النصوص والوثائق التي يعتمدونها عن سجلات الأبرشيات، وافتقارها إلى أهم دعامات البحث الديموغرافي، ونعني بها الأرقام. فظهرت، تبعا لذلك، مجموعة أبحاث توزعت بين مونوغرافيات إقليمية ودراسات ذات طابع تركيبي ومقالات.

فقد اتخذ بعض واضعي تلك الأبحاث من تطور السكان، أو من إحدى الظواهر الديموغرافية (كالوفيات مثلا)، موضوعا رئيسا. بينما تناول بعضهم الأخر إحدى القضايا الديموغرافية في فصل، أو فصلين، ضمن معالجتهم لموضوع يهم التاريخ الاقتصادي، أو الاجتماعي، لمجموع أقاليم أوربا، أو لأحد أقاليمها، خلال العصر الوسيط برمته، أو خلال إحدى فتراته.

ومن باب الإنصاف وإبراز الحقيقة، الإشارة إلى أن بعض الرواد المهتمين بالتاريخ الوسيط، حاولوا الخوض في القضايا الديموغرافية قبل الستينيات، بل قبل جون موڤري ولوي هنري، ولم يتطرق المهتمون برصد تطور الديموغرافيا التاريخية لإسهاماتهم. ونعني هنا فردناند لوط (Ferdinand Lot) وإيڤ رنووار (Yves Renouard). وهما مؤرخين محترفين. فقد أنجز الأول عددا من

الأبحاث في مواضيع مختلفة، ومن بينها مقال مطول نشره سنة 1921 حاول فيه اقتراح "احتمالات حول ساكنة فرنسا في القرن التاسع للميلاد"[19]. ثم أعقبه ببحث مستفيض حول "سكان ومساحة المدن [في فرنسا] خلال الحقبة الغالو- رومانية"[20]. وأنجز الثاني بدوره أبحاثا كثيرة. ومن بينها مقال نشره سنة 1948 حول "النتائج والقيمة الديموغرافية لطاعون 1348"[21]. ويمكن إن نضيف إليهما دوم أورسمر بيرلبير (Dom Ursmer Berlière). وهو رجل دين، شغل منصب محافظ الخزانة الملكية ببلجيكا. اشتهر بغزارة التأليف وأصدر سنة 1930 مقالا مطولا حول "عدد رهبان المونا ستيرات القديمة"[22].

ومهما يكن من أمر، فيبدو أن معظم المختصين في تاريخ العصر الوسيط، من الذين أنجزوا أبحاثا تندرج ضمن حقل الديموغرافيا التاريخية، ركزوا، بادئ الأمر، على القرنين الرابع عشر والخامس عشر، الذين يشكلان ما يعرف بالعصر الوسيط الأسفل، على اعتبار أنهما غنيين بالنصوص كما وكيفا، وعلى اعتبار أن حواضر وأرياف أوربا شهدت خلالهما تراجعا ديموغرافيا هائلا من جراء الطاعون

---

[19] - اعتمد فردناند لوط في هذا المقال على قوائم الجرد (les polyptiques) التي كان يضعها المكلفون بإدارة الدومينات الكبرى التي كانت في حوزة دير سان-جرمان-دي بري (Saint-Germains-des-Près). فتقصى، من خلال ما تتضمنه من معطيات، مساحة تلك الدومينات وعدد سكانها. وحاول انطلاقا من ذلك اقتراح عدد سكان فرنسا خلال القرن التاسع. صدر هذا المقال تحت عنوان :

"Conjectures démographiques sur la France du IXe siècle", in le Moyen Age, tome XVIII, 1921, pp. 1-27 et 109-137.

ثم أعيد نشر المقال خلال نفس السنة في كتيب مستقل من 61 صفحة ضمن منشورات هنوري شومبيون (Honoré Champion).

[20] - Recherches sur la population et la superficie des cités remontant à la période gallo-romine, Paris, E. Champion, tome I, 1945-1946, tome II, 1950, tome III, 1953.

[21] - "Conséquences et intérêt démographique de la Peste noire de 1348" , Population, No 3,1948, pp. 459-466.

[22] - "Le nombre des moines dans les anciens monastères", in Revue Bénédictine, vol. 41, 1929, pp. 231-261 et vol. 42, 1930, pp.19-42.

"الأسود" والحروب والانتفاضات الاجتماعية[23]. ورغم أن الحقبة المشار إليها شدت اهتمام عدد من المؤرخين الذين تبنوا المقاربة الديموغرافية في تناولها، فإن العصر الوسيط الأوسط (القرون XI وXII وXIII) شكل هو الآخر إطارا رئيسا لعدة مؤلفات[24] وملتقيات علمية[25]، لأن الباحثين المهتمين به وجدوا ما يبرر هذا الاهتمام من وجهة نظر ديموغرافية. ويتمثل هذا المبرر في كون أرياف أوربا شهدت خلال هذه الحقبة التاريخية تزايدا هائلا في أعداد السكان ابتدأ

---

[23] - من بين المؤرخين الذين تبنوا المقاربة الديموغرافية في تناول الآفات التي شهدتها هذه الحقبة التاريخية، وما ترتب عنها من وفيات نذكر على سبيل المثال لا الحصر :

- Arlette Higounet-Nadal, Périgueux aux XIVe et XVe siècles, étude de démographie historique, Bordeaux, Fédération historique du Sud-Ouest, 1978.
- Robert Steven Gottfried, Epidemic disease in fifteenth century England, medical response and the demographic consequences, New Brunswick, New Jersey, Rutgers University Press, 1978.
- Philippe Jansen, Macerata aux XIV^{e} et XV^{e} siècles : démographie et société dans les Marches à la fin du Moyen Age, Rome, École française de Rome, 2001.

والملاحظ أن الطاعون ما زال يستأثر باهتمام الباحثين في حقل الديموغرافيا التاريخية، ولذلك خصص له المشرفون على "حوليات الديموغرافيا التاريخية (Annales de démographie historique) العدد الثاني الصادر سنة 2017 تحت عنوان:

Le retour de la peste. Nouvelles recherches sur les épidémies en Europe et en Méditerr- anée, XIV^{e}-XIX^{e} siècles.

[24] - من بينها على سبيل المثال المؤلف الجماعي:

Vieillesse et vieillissement au Moyen Age, Presses Universitaires de Provence, 1987.

والمساهمات التي يتضمنها الجزء الأول من كتاب:

Histoire de la population française, livre en 4 tomes sous la direction de Jacques Dupâquier, Paris, P.U.F., 1988.

[25] - من بينها على سبيل المثال، مداخلات أعمال الملتقى العلمي الذي نظمته جمعية مؤرخي العصر الوسيط (العاملين بمؤسسات التعليم العالي). واحتضنته مدينة نيس يومي 15 و16 ماي 1970. وكان تحت عنوان:

La démographie médiévale. Sources et méthodes, Publications de la Faculté des Lettres de Nice, 1972.

وأعمال الملتقى الوطني 118 الذي نظمته الجمعيات التاريخية والعلمية بمدينة بو (Pau) بين 25 و29 أكتوبر 1993 في موضوع:

Population et démographie au Moyen Age.

منذ حوالي سنة ألف، واستمر حتى نهاية الحقبة. وكانت لهذا التزايد نتائج وأبعاد بالغة الأهمية على مستوى التعمير والتوزيع الجغرافي للسكان وحركيتهم في المجال. وأيضا فيما يتعلق بخصوبة الأسر وأمد حياة الأفراد، وما إلى ذلك من نتائج ذات طابع ديموغرافي ما زالت موضوع نقاش بين الديموغرافيين والمؤرخين المهتمين بالديموغرافيا التاريخية[26].

والجدير بالملاحظة أن العصر الوسيط الأعلى، الذي كان من المفترض أن يظل على هامش هذه الحركية، لأن عدد المختصين الباحثين في قضاياه في فرنسا، وفي غيرها من أقطار أوربا، قليل، ولأن النصوص التي تهمه قليلة ويكتنفها الغموض والاضطراب، شكل هو الآخر حيزا زمنيا لأبحاث ودراسات تبنى أصحابها المقاربة الديموغرافية. ومن أقدمها دراسة فردناند لوط المشار إليها، التي فتحت المجال لدراسات جيل من المؤرخين، من بينهم المؤرخ الفرنسي بيير ريشي (Pierre Riché) الذي تناول في مقال صدر له سنة 1966 الإشكالات التي يطرحها البحث في الديموغرافيا التاريخية فيما يتعلق بحقبة العصر الوسيط الأعلى[27]. وتوقفت بعده المؤرخة البلجيكية روني دوهير (Renée Doehaerd) مطولا عند ظاهرة التراجع الديموغرافي، بعد أزمة القرن الثالث وحتى مطلع القرن التاسع، في سياق تناولها لاقتصاديات ومجتمعات غرب أوربا خلال العصر الوسيط الأعلى[28]. وأسند جهودها زميلها جون-

---

[26] - يمكن العودة في هذا المقام إلى المؤلفين التاليين:

- Peter Biller, The mesure of multitude. Population in medieval thought, Oxford Univer-
sity Press, 2003.
- Deborah Young, The life cycle in Western Europe C. 1300- C. 1500, Manchester Uni- versity Press, Manchester and New York, 2006.

[27] - نشر هذا المقال في مجلة "حوليات الديموغرافيا التاريخية"

"Problèmes de démographie historique du Haut Moyen Age (V-VIIIe siècle)", Annales de Démographie Historique, 1966, pp. 37-55.

[28] - لمزيد من التفاصيل يمكن العودة لكتابها الموسوم ب :

بيير دوڤروي (Jean-Pierre Devroey) الذي أنجز بحثان اعتمد فيهما، على غرار فردناند لوط، على عدد من قوائم الجرد (les polyptiques) لتبيان الإشكالات التي تطرحها المقاربة الديموغرافية عند معالجة قضايا (ديموغرافية) اعتمادا على تلك النصوص التي تعود للعصر الوسيط الأعلى[29]. بينما تطرق في صفحات من بحث آخر لبنية الأسرة في البادية[30].

ولا بأس من الإشارة، في سياق ما أوردناه عن جهود المهتمين بالعصر الوسيط الأعلى، إلى أن المختصين في التاريخ القديم لم يقفوا موقف المتتبع لحركة البحث والتأليف في الديموغرافيا التاريخية. فقد التحق بها ثلة منهم، منذ مطلع الثمانينيات، ليس في إطار ما يعرف بالباليوديموغرافيا (la paléodémographie) التي ينطلق أصحابها من دراسة الهياكل العظمية في معالجتهم لإحدى القضايا الديموغرافية التي تهم المجال الأوربي أو المجال الشمال إفريقي خلال عهدي الإغريق والرومان، وإنما في إطار أبحاث ودراسات ذات طابع ديموغرافي. انطلقوا فيها من النصوص (رغم قلتها) لانجاز أبحاث ودراسات على غرار تلك التي أنجزها (أو ينجزها) المهتمون بتاريخ الأزمنة الحديثة. أبانوا فيها، بعد وقت قصير من تاريخ الانطلاقة، عن دراية بمجال الديموغرافيا التاريخية، وعن تمكن من أدوات وتقنيات التحليل. كما يتضح ذلك على سبيل المثال، من أبحاث ودراسات جون- نيكولا كورڤيزيي (Jean-Nicolas Corvisier)، أحد أقطاب الديموغرافيا التاريخية المتصلة بالعصر

Le Haut Moyen Age occidental. Economies et sociétés, Paris, P.U.F., 1971, (2ème édition augmentée 1982).

29 - نقصد هنا البحث الموسوم ب:

"Les méthodes d'analyse démographique des polyptyques du Haut Moyen Age", Acta Historica Bruxellensia, IV, 1981, pp. 71-88.

30 - وردت تلك الصفحات في كتابه :

Puissants et misérables. Système social et monde paysan dans l'Europe des Francs (VIe-IXe siècles), Bruxelles, Académie royale de Belgique, 2006.

القديم[31]. وكما يتضح أيضا من خلال مداخلات أول ملتقى دولي إلتأم فيه ثلة من المختصين في التاريخ القديم بمدينة أراس (Arras) في نونبر 1996[32]، والملتقى الدولي الثاني الذي عقد سنتين بعد ذلك بذات المدينة[33]. وتأكدت هذه الدراية في الأبحاث التي صدرت بعد تسعينيات القرن الماضي[34]. وانطلاقا مما تقدم، يتضح بأن الأبحاث والدراسات التي أرست قواعد وأسس الديموغرافيا التاريخية منذ خمسينيات القرن الماضي، والتي لم يتجاوز أصحابها عتبة القرنين السابع عشر والثامن عشر، أضحت اليوم تغطي مختلف القرون والعصور التاريخية. كما أن تلك الأبحاث والدراسات تجاوزت حدود فرنسا موطن نشأة الديموغرافيا التاريخية، وأمست تنجز في مجالات جغرافية أخرى بفعل انضمام العديد من الباحثين البلجيكيين والاسبانيين والايطاليين والأنجليزيين والألمانيين والكنديين والأمريكيين الى البحث والتأليف في هذا الحقل المعرفي. فتزايد عدد الباحثين تبعا لذلك، وتزايدت المختبرات ومجموعات البحث وتكاثرت التآليف، حتى غدا من الصعب، وربما من المستحيل، رصد جميع الإصدارات. ولتأكيد ذلك، يكفي أن نشير بأنه منذ سنة 1977، أي منذ وقت مبكر، أدرك إتيين هلين (Etienne Hélin)، الباحث

---

[31] - أنجز مجموعة من الأبحاث يمكن أن نذكر من بينها :

- "La vieillesse en Grèce ancienne d'Homère à l'époque hellénistique", Annales de Démo- graphie Historique, 1985, pp. 53-70.
- Santé et société en Grèce ancienne, Paris, Economica, 1985.
- La population de l'Antiquité classique, Paris, P.U.F., 2000.

[32] - صدرت أعمال هذا الملتقى سنة 1999 تحت عنوان :

La démographie historique antique, Artois, Presses de l'Université d'Artois.

[33] - انعقد الملتقى عبر مرحلتين : 27- 29 مارس و27 و28 نونبر 1998. وصدرت أعماله سنة 2001 تحت عنوان :

Thérapies, médecine et démographie antiques, Artois, Presses de l'Université d'Artois.

[34] - أنظر على سبيل المثال مباحث القسم الأول من المؤلف الجماعي:

- La Grèce d'à côté, Rennes, Presses Universitaires de Rennes, 2007.

بمختبر الديموغرافيا التاريخية بجامعة لييج البلجيكية، بأن وتيرة التأليف تستدعي إنجاز ببليوغرافيا تتضمن مختلف العناوين الصادرة في العالم. فدعا لتحقيق هذا المبتغى. واستجابت عدة هيئات ومراكز بحث لدعوته. وشرع طاقم من الباحثين والمراسلين من أقطار عدة في جرد العناوين التي أصبح بمقدور المهتمين الإطلاع عليها من خلال نشرة سنوية خاصة. وسرعان ما تحولت النشرات الى بنك معلومات كان يتألف حتى حدود سنة 1991 من أزيد من 13000 جذاذة. اقتضت الضرورة العلمية وتطور التكنلوجيا، وضعها رهن إشارة الخاص والعام على الشبكة العنكبوتية. وبموازاة النشرات الالكترونية، استمرت "جمعية الديموغرافيا التاريخية" في تخصيص صفحات من مجلة "حوليات الديموغرافيا التاريخية" لجرد أهم الإصدارات. وعززت هذا الجرد بوقفات من حين لحين لتقييم حصيلة البحث في ظاهرة من الظواهر الديموغرافية. كما حدث مثلا سنتي 2001 و2002 حين خصصت العدد 102 لتقييم حصيلة عشر سنوات من البحث في موضوع "الطفولة خلال مختلف العصور التاريخية"[35]. وفي ذات السياق، ارتأى القائمون على الجمعية تخصيص الذكرى الخمسين لنشأتها، التي حلت في شتنبر 2013، للاحتفال بهيئة استطاعت أن تعمر طويلا، وأيضا لتنظيم تظاهرة علمية دولية لتقييم حصيلة البحث في ثلاث قضايا ديموغرافية كبرى هي: "النماذج الديموغرافية وسياسات السكان"، "مراحل حياة الفرد" و"القرابات"[36].

---

[35] -"Dix ans de travaux sur l’enfance", Annales de Démographie Historique, No 102, 2001/2002.

[36] - لمزيد من التفاصيل نحيل القارئ على العدد 129 من مجلة الجمعية (Annales de Démographie Historique)، الصادر سنة 2015.

.

المبحث الثاني: الوفيات في غالة الميروڤنجية من خلال كتاب تاريخ الفرنجة لڤريڤوار أسقف تور

تعتبر الوفيات ظاهرة ديموغرافية كالولادات والهجرات. وتعد عنصرا هاما من بين العناصر التي تسهم في تغير بنية السكان[1]. إذ تؤثر في عددهم الإجمالي وفي تركيبتهم من حيث الأعمار والأجناس (الذكور والإناث). كما تترتب عنها أثار بالغة على صعيد الأنشطة الاقتصادية والاجتماعية. ولذلك كان ديموغرافيو أقطار أوربا أبرز من اهتم بدراستها منذ زمن بعيد. فقاموا بقياس حجمها وقياس معدلاتها حسب الأعمار في عدة مجالات جغرافية. كما قاموا برصد تطورها واتجاهاتها.

وربما كانت هذه المقاربة من الأسباب التي جعلت المؤرخين والمهتمين بالديموغرافيا التاريخية لا يقتحمون هذا الموضوع إلا منذ بضعة عقود. لأن شواهد الماضي، ممثلة في البقايا الأثرية والنصوص الخطية، لا تمدهم بالمعطيات الرقمية التي تتطلبها المقاربة الكمية. وتتزايد هذه الصعوبة حين يتعلق الأمر بالقرون السابقة على القرن السابع عشر. ولذلك ظلت المعالجة الكيفية تغلب على معظم الأبحاث التي تم انجازها لحد الآن[2]. وهي معالجة تقوم

---

[1] - فتحي محمد أبو عيانة، دراسات في جغرافية السكان، دار النهضة العربية، بيروت، 1978، ص. 189، وكذلك

Georges Tapinos, Eléments de démographie, Analyse déterminants socio-économiques et histoire des populations, Paris, A. Colin , 1985, p. 125 et Suivantes.

[2] - للوقوف على هذا التوجه في الأبحاث التي كتبت بالفرنسية، يمكن الاكتفاء بالعودة إلى المقالات الواردة في العددان، الخاصان بالوفيات من مجلة:

Population, Paris, 32e année, 1977.

و العدد الخاص بالوفيات في الزمن الماضي من مجلة:

Annales de Démographie Historique, Paris, 1978.

على وضع ظاهرة الوفيات في سياقها التاريخي. وتسعى انطلاقا من هذا السياق إلى إبراز اتجاهاتها وتفسير أسبابها.

وقد أبانت هذه المقاربة عن نجاعتها بشهادة الديموغرافيين انسفهم. حيث أصبحوا، منذ أواخر السبعينيات، يولون أهمية للجانب الكيفي في أبحاثهم[3]. وأخذوا

ينفتحون على المؤرخين والباحثين الآخرين في مختلف حقول المعرفة[4].

ورغبة منا في إثراء ملف الوفيات، ارتأينا البحث في هذه الظاهرة في غالة زمن سيادة المملكة الميروڤنجية، انطلاقا من المعطيات التي يتضمنها كتاب مؤرخ شهير عاصر فترات من عهد هذه المملكة، هو ڭريڭوار أسقف تور[5] (Grégoire de Tours). ومع ذلك، ننبه بأننا لا نطمح في هذا البحث إلى القيام بدراسة كمية أو كيفية شاملة للوفيات في غالة الميروڤنجية، بقدر ما نسعى إلى إثارة الموضوع مجددا وفتح آفاق البحث في مختلف جوانبه استكمالا لما تضمنته

---

[3] - انظر على سبيل المثال :

- Michel Poulain et Dominique Tabutin, Mortalité aux jeunes âges en Belgique de 1840 à 1970, Louvain- la -Neuve, Institut de Démographie, 1977.

- La mortalité des enfants dans le monde et dans l'histoire, livre dirigé par Paul- Marie Boulanger et Dominique Tabutin, Liège, Ordina Editions, 1980.

[4] - ومن بينهم المشتغلين في حقل الأوبئة (l'épidémiologie) والمشتغلين في حقلي الطب والأنثروبولوجيا.

[5] - هو جيورجيوس فلورنتيوس كريكوريوس (Georgius Florentius Gregorius). ينحدر من أسرة غالو- رومانية أرستقراطية. ولد سنة 538 أو 539 ببلدة أوڤيرني (l'Auvergne). انتقل إلى مدينة تور (Tours) سنة 568، وانتخب من قبل رجال الدين أسقفا لكنيستها سنة 578. وظل بهذا المنصب حتى وفاته في نونبر من سنة 594. وقد مكنته أصوله الأرستقراطية، ومهامه على رأس كنيسة تور من ربط علاقات مع كبار رجالات عصره مكنته من الحصول على وثائق ومعلومات شفاهية استغلها في وضع مصنف خصصه لتاريخ مملكة الفرنجة التي عاصر فترة مهمة من تاريخها، وهو المصنف المعروف بتاريخ الفرنجة (Historia Francorum) الذي قام عدد من الباحثين بنقل نصه إلى اللغات الأوربية. ومن بينهم روبير لاتوش (Robert Latouche) الذي تقل النص إلى اللغة الفرنسية. وقد اعتمدنا ترجمته في هذا البحث.

بضع صفحات سبق أن خصصها الباحث بول أدريان جانسنس (Paul Adriaan Janssens) لهذا الموضوع[6].

أولا: توطئة تاريخية

كانت غالة، التي اخترناها حيزا جغرافيا لهذا البحث، تشمل قبل القرن السادس أي خلال العهد الروماني، الأقاليم التي تعطي لفرنسا حاليا شكلا مسدسا (hexagone) بالإضافة إلى الأقاليم التي تتألف منها دولة بلجيكا الحالية. وكانت تتكون آنذاك من أربعة أقاليم كبرى هي إقليم ناربونيز (la Narbonnaise)، وإقليم ليونيز (la Lyonnaise) وإقليم أكيتانيا (l'Aquitaine) وغالة البلجيكية la (Gaule Belgique). وباستثناء الإقليم الأول، الذي كان خاضعا للسلطة الرومانية منذ سنة 121 قبل ميلاد المسيح[7]، فإن الأقاليم الثلاث الأخرى ظلت خارج السيطرة لفترة زمنية طويلة. ولم تجرؤ روما على اقتحامها وضمها إلى ممتلكاتها إلا ابتداء من سنة 52 قبل الميلاد[8]، لعدة اعتبارات من بينها برودة مناخها مقارنة مع المناخ

[6] - تمثل تلك الصفحات مداخلة قصيرة تحت عنوان :
"The morbus desentericus in the Historia Francorum of Gregory of Tours (VI th. Century)".
شارك بها الباحث المذكور في ملتقى علمي عقد بلندن سنة 1979، وصدرت أعماله بترونتو (Toronto) سنة 1983 تحت عنوان :
. Disease in Ancient Man. An International Symposium, Toronto, Clarke Irwin, 1983.
تحدث الباحث في مداخلته، الواقعة بين الصفحتين 263 و266 من أعمال الملتقى، عن حالات الحمى الجماعية التي اجتاحت غالة خلال القرن السادس في صورة موجات وبائية أودت بحياة عدد كبير من السكان. أورد كَريكَوار أسقف تور معلومات عنها وعن أعراضها في مصنفه. وقد حاول الباحث أن يبين انطلاقا من تلك المعلومات أن حالات الحمى تلك تدخل ضمن صنف ما يسمى اليوم في حقل الطب "بالتفويد(la typhoïde).

[7] - Françoise Beck et Hélène Chew, Quand les Gaulois étaient romains, Paris, Gallimard, 1989, p.17.

[8] - Ibid, p. 13 et p. 17.

المتوسطي السائد في إقليم ناربونير، وصعوبة مسالكها بسبب كثافة الغطاء النباتي[9] وكثرة المستنقعات.

ومنذ هذا التاريخ، أي 52 قبل الميلاد، شهدت غالة لأول مرة في تاريخها وحدة سياسية ولغوية وحضارية في ظل السيادة الرومانية استغرقت ثلاثة قرون. غير أن سيادة روما على غالة بدأت تتلاشى ابتداء من حوالي سنة 275 ميلادية بفعل المشاكل المتفاقمة التي أضحت تتخبط فيها الإمبراطورية[10] حتى تاريخ سقوطها. وبفعل الضغط المتزايد الذي كانت تمارسه القبائل الجرمانية[11] على أطرافها.

وكانت لتلك المشاكل، ولذلك الضغط أثار سلبية على الأوضاع الداخلية في ولايات الإمبراطورية، ومن بينها غالة، التي انتهت فيها فترة السلم السياسي والاجتماعي الذي نعمت به طويلا. كما تراجعت بها الأنشطة الاقتصادية التي سبق أن حققت نموا ملحوظا. فتأثرت المراكز الحضرية من جراء ذلك. ودخلت في مرحلة احتضار. زاد من حدته تراجع أعداد سكانها بفعل الوفيات التي أخذ حجمها في الارتفاع[12]، وكذلك بفعل الهجرات نحو الأرياف. فتحولت هذه الأخيرة من مراكز لجوء إلى مراكز استقرار دائم وإطارا أخذ

---

[9] - كانت الغابة تغطي معظم أراضي تلك الأقاليم لذلك كانت تدعى غالة المشعرة (la Gaule chevelue).

[10] - نقصد هنا ما يصطلح على تسميته بأزمة الإمبراطورية. للوقوف على أسبابها ومظاهرها ونتائجها، نحيل القاري على كتاب :

Roger Rémon, La Crise de l'Empire Romain, Paris, PUF, 1964.

وكذلك كتاب :

Paul Petit, la Crise de l'Empire.

ويمثل الجزء الثاني من مؤلفه :

Histoire générale de l'Empire Romain, Paris, Seuil, 1974

[11] - ينعت الباحثون هذه المجتمعات بالبرابرة أو الشعوب المتبربرة، وتفاديا لأي التباس أو تأويل، فإننا نفضل تسميتها بالقبائل الجرمانية.

[12] - لمزيد من التفاصيل بخصوص هذا الموضوع يمكن العودة إلى دراسة :

Renée Doehaerd, Le Haut Moyen Age occidental, économies et sociétés, Paris, P.U.F, 1982, p.p. 86-94.

يحتضن بعد ذلك مختلف الأنشطة السياسية والاقتصادية التي تمحورت حول الأرض التي غدت المصدر الأساسي للإنتاج.

وكانت هذه التحولات إيذانا بالاتجاه نحو الأريفة (la ruralisation)، وهو اتجاه اذكت وتيرته القبائل الجرمانية التي انتقلت من مرحلة الضغط والغارات إلى مرحله الغزو الكاسح الذي انتهى بسقوط روما سنة 476 ميلادية، وسيطرة تلك القبائل على الولايات الرومانية الواقعة في غرب أوربا.

يمثل الفرنجة، أوالإفرنج (les Francs)، إحدى تلك القبائل. كانوا مستقرين في الأراضي المحاذية لنهر الراين الأسفل عند مطلع القرن الرابع، فيما كانت فرق من محاربيهم تعمل في صفوف الجيش الروماني بغالة. وقد استغلوا الأوضاع المتردية في الإمبراطورية، والنجاح الذي آلت إليه تحركات القبائل الجرمانية الأخرى، فشرعوا بدورهم في النزوح نحو غالة التي كانت تشهد انتفاضات اجتماعية[13]. زاد الذين كانوا يتزعمونها من تأجيج لهيبها بعد بداية انسحاب الوحدات الرومانية من هذه الولاية.

ورغم ذلك، لم يتم استيلاء الفرنجة على غالة دفعة واحدة، وإنما عبر مرحلتين رئيستين: استغرقت أولاهما فترة طويلة، وانتهت سنة 481 بسيطرة الفرنجة على معظم أقاليم النصف الشمالي من غالة، لتبدأ المرحلة الثانية التي تميزت بداياتها بتنازل رؤساء قبائل الفرنجة وكبار محاربيها عن زعامتهم لصالح أحدهم، وهو كلوڤيس (Clovis)، الذي غدا زعيما. ثم نودي به ملكا على رأس المملكة التي أعلنوا قيامها سنة 481. وأصبحت تعرف منذ هذا التاريخ باسم المملكة الميروڤنجية.

---

[13] ـ نقصد هنا الانتفاضات المعروفة بحركات المجاهدين (Les bagaudes) التي اندلعت في غرب غالة منذ القرن الثالث، واتسع نطاقها لتشمل جميع أقاليم الولاية خلال القرن الخامس.

وقد واصل كلوڤيس مشروع استكمال السيطرة على غالة بسلسلة حروب خاضها حتى تاريخ وفاته سنة 511. ترتبت عنها خسائر بشرية ومادية "فادحة". وانتهت بسيطرة الفرنجة على إقليم ليونيز الذي كان بحوزة القبائل البورغندية وإقليم أكيتانيا الذي كان خاضعا لقبائل القوط الغربيين.

ثانيا: غالة ميدان للوفيات بعد تأسيس المملكة الميروڤنجية

انطلاقا من الإشارات التي تضمنتها الفقرة السابقة يمكن القول بان حجم الوفيات كان كبيرا في غالة خلال السنوات الأخيرة من القرن الخامس والسنوات الأولى من القرن الموالي بسبب الحروب التي واكبت عملية تأسيس المملكة الميروڤنجية. ولم تتوقف سنة 511 تاريخ وفاة كلوڤيس. بل تواصلت بعد هذا التاريخ واستمرت في إزهاق الكثير من الأرواح.

ويبدو أنها لم تكن السبب الوحيد المؤدي إلى الوفاة. فقد تزامنت مع كل فصل من فصول تلك الحروب أو أعقبتها سلسلة مجاعات وأوبئة وكوارث طبيعية أخرى وأمراض متولدة عن البيئة السائدة ترتبت عنها هي الأخرى وفيات كثيرة وذلك ما سنوضحه في الفقرات الموالية.

1- الوفيات الناتجة عن الحروب

لا يختلف المؤرخون القدامى والمحدثون في القول بان الحروب كانت أهم الأحداث التي ميزت تاريخ غالة منذ أن أصبحت مجالا لكيان سياسي مستقل عقب سقوط الإمبراطورية الرومانية.

وقد انطلقوا كلهم مما كتبه ڭريڭوار أسقف كنيسة تور(Grégoire de Tours)، الذي اهتم بتدوين مختلف الأحداث

التي شهدتها المملكة التي أسسها الفرنجة ومن ضمنها تلك الحروب. رغم أنه عبر عن خجله من استعرض وقائعها بتفصيل[14].

وتقتضي المعالجة الدقيقة لعلاقة الحروب بالوفيات الإشارة إلى أن بعض فصول تلك الحروب وقعت في غالة بين قوى سياسية وعسكرية محلية، أي كانت حروبا أهلية. وبعضها وقع أيضا في غالة ولكن أطرافها الأساسية كانت قوى أجنبية شنت غارات على الغالبين. بينما وقع بعضها الآخر خارج غالة، وكان أطرافها الأساسيين هذه المرة محاربون من غالة شنوا غارات على قوى خارج غالة.

وفي جميع الأحوال كانت مختلف الحروب تنتهي بخسائر بشرية. رغم أن مصنف كْريكْوار اسقف تور، والمصنفات القليلة الأخرى[15]، لا تقدم أرقاما تثبت ذلك. ومع ذلك، فإن السياق الذي كانت تحدث فيه تلك الحروب ومنطق الأشياء يسمحان بالقول بان وقعها المباشر كان متباينا. بمعنى أن أعداد القتلى الذين كانت تسفر عنهم كانت متفاوتة. كما أن أجناسهم (ذكور أو إناث) كانت مختلفة. ومن ثمة، فإننا نميز في الوفيات المترتبة عن الحروب بين ثلاث مستويات.

- المستوى الأول: الوفيات الناتجة عن الحروب الأهلية.

وقعت أهم تلك الحروب بعد سنة 511، تاريخ وفاة كلوڤيس مؤسس المملكة الميروڤنجية. واستغرقت القرنين السادس والسابع. حيث كان أبطالها الأوائل أبناء كلوڤيس الأربعة الذين أضحوا يحكمون أربع وحدات سياسية بعد أن قسم أبوهم المملكة بينهم قبيل

---

[14] - Histoire des Francs, trad. Robert Latouche, Paris, Les belles Lettres, 1995, Tome I, Livre V, introduction de Grégoire de Tours, p. 245.

[15] - وأهمها على الإطلاق مجموعة نصوص ذات طابع إخباري يتضمنها الجزء الرابع من كتاب:

Monumenta Germaniae Historica الذي نشره الباحث الألماني برونو كروش (Bruno Krusch) ببرلين سنة 1885.

وفاته. ولكن رغبة البعض في الاستحواذ على ممتلكات البعض كانت وراء الحروب الكثيرة التي دارت بين الإخوة الأربعة. وقد أدت تلك الحروب إلى إنهاك البلاد وإفناء العباد كما يؤكد ڭريڭوار أسقف تور[16]. واستمرت بنفس الحدة فيما بعد خلال فترات حكم أبناء الإخوة وخلال فترات حكم الحفدة.، لأن المملكة ظلت دائما مقسمة إلى عدة وحدات سياسية، ولأن القائمين على أمر تلك الوحدات كانوا يمارسون السلطة، في كثير من الأحيان، تحت تأثير الزوجات الشرعيات وغير الشرعيات اللائي كن يحرضن باستمرار البعض ضد البعض. فأصبح الإبن لا يتردد في شن الحرب ضد أبيه والأخ يفعل نفس الشيء ضد أخيه، والقريب ضد أحد أقربائه.

وكانت بعض الحروب تنتهي بتوقيع معاهدات هدنة. ولكن سرعان ما يقوم أحد أطراف الصراع بخرق الهدنة. فتعود المواجهات أدراجها، لأن معظم ملوك القرنين السادس والسابع كانوا، على حد تعبير احد الباحثين، أطفالا كبارا يطبع سلوكهم النفاق والفجور[17].

وكان من الطبيعي أن يسقط محاربون (ذكور) من بين محاربي الأطراف المتصارعة، وكذلك ذكور وإناث كبار السن وأطفال من بين الأهالي. ويكفي أن نشير في هذا الشأن بأن صراعا نشب بين الأخوين شلبريك (Chilpéric) وڭونطران (Gontran)، استغله الدوق ديديي (Didier) فقام بحملة على بلدة بيري (Berry)، (وسط شمال غالة) سنة 582. انتهت بمقتل أزيد من "سبعة ألاف محارب" من بين المهاجمين والمدافعين عن البلدة[18].

---

[16] - تاريخ الفرنجة، الجزء الأول، مقدمة الكتاب الخامس، ص. 245.

[17] - أورد هذا الإنطباع محقق كتاب ڭريڭوار أسقف تور في الهامش 21 صفحة 150، الجزء الأول، الكتاب الثالث. ونشير أيضا إلى أن هذا النفاق والفجور كانا منسجمين مع طبيعة الظرفية السائدة آنذاك. والتي تميزت بضعف الأخلاقيات والوازع الديني. وهذا ما يشير إليه ڭريڭوار أسقف تور واضع الكتاب، وهو يتحدث عن تدهور الثقافة العلمية والدينية. انظر الجزء الأول، الكتاب الثاني، الفصل الثالث، ص.ص. 78-85.

[18] - نفس المصدر، الجزء الثاني، الكتاب السادس، فصل 31، ص.48.

ورد الملك ڭونطران على هذه الحملة بهجوم شنه على قوات أخيه شلبريك أودى بحياة "أكثر من نصف عدد أفراد تلك القوات وأعداد كثيرة من السكان"[19].

ولم تتوقف الوفيات الناتجة عن الحروب الأهلية عند هذا الحد، بل زادت من حجمها الحملات التأديبية التي كان يقوم بها الملوك ضد سكان بعض الأقاليم. ويمكن اعتبار تلك الحملات شكلا من إشكال الحروب الأهلية.

وقعت أبرز تلك الحملات خلال عهد الملك شلبريك، السابق الذكر، الذي كان "نيرون عصره" كما ينعته ڭريڭوار أسقف تور[20]. يجد لذة في التدمير وسفك الدماء، حيث لم يتوان طوال فترة حكمه (بين سنتي561 و583) في شن الغارة تلو الغارة على مختلف أقاليم غالة. وكانت إحداها سنة 580، حين اقر ضريبة جديدة مرتفعة القيمة رفض سكان ليموج (Limoges) وأحوازها أدائها. فقاموا بحركة عصيان وهموا يقتل مبعوث الملك. وانتزعوا منه الأمر المكتوب الذي كان يتولوه عليهم وقاموا بإحراقه، مما أثار حفيظة الملك الذي بعث فيلقا من محاربيه إلى المنطقة. قاموا بإعدام عدد كبير من السكان بعين المكان بمن فيهم بعض رجال الدين[21]

-المستوى الثاني: الوفيات الناتجة عن الغارات على غالة الميروڤنجية.

أصبحت غالة هدفا لسلسلة غارات وعمليات غزو بعد تأسيس المملكة الميروڤنجية. وقد مثلت إلى جانب الحروب الأهلية رافدا من روافد الوفاة. لأنها كانت كالصنف الأول من الحروب، تنتهي بمقتل عدد من المحاربين المدافعين عن المواقع المستهدفة، بالإضافة إلى

---

[19] - نفسه، ص. 49. لا يقدم ڭريڭوار أسقف تور أية إشارة لعدد المحاربين أو عدد القتلى.

[20] - نفس المصدر، الجزء الثاني، الكتاب السابع، فصل 66، ص. 70.

[21] - نفس المصدر، الجزء الأول، الكتاب الخامس، فصل 28، ص.ص. 289-290.

عدد من الأهالي من مختلف الأعمار والأجناس. كما كانت تنتهي بأسر عدد من الرجال والنساء. ناهيك عن عمليات النهب التي يقوم بها المغيرون. فتتراجع كميات المواد الغذائية الضرورية لسد حاجيات الأهالي الذين ينجون من القتل. فتنتشر الفاقة لفترة قد تقصر أو تطول.

حدثت أهم الغارات وعمليات الغزو خلال القرن السادس. وكانت أولاها تلك التي قام بها الثورنجيون (les Thuringiens) حوالي سنة 506 أو507. حيث انطلقوا من الأراضي الواقعة غرب نهر الإلب (l'Elbe) لشن غارات على بعض أقاليم غالة. انتهت بمقتل عدد كبير من الأهالي كما يذكر ڴريڴوار أسقف تور[22]. الذي يضيف في معرض حديثه عن تلك الغارة، بأن أزيد من مائتي فتاة في مقتبل العمر لقين حتفهن على إثرها[23]. ويتضح من خلال المعلومات التي يمدنا بها المؤرخ ذاته، في سياق حديثه عن الغارات التي تعرضت لها غالة، آن الدانيين، أو الدنماركيين، هم الذين دشنوا سلسلة غارات وغزوات عهد ما بعد كلوڤيس. إذ استغلوا ظروف انتقال الحكم إلى أبنائه سنة 511، فشنوا حملة بحرية وبرية على بعض المراكز الواقعة على سواحل شمال غالة. وتوغلوا في ظهير تلك المراكز، حيث عاثوا فيها فسادا. وقتلوا عددا من الأهالي. وشحنوا مراكبهم بكميات من الغنائم وعدد من الأسري[241]. وجين هموا بالإبحار باغتتهم قوات بعث بها الملك ثييري (Thierry) ابن كلوڤيس يقودها ابنه ثيودبير (Théodobert). فألحقت بهم الهزيمة واستعادت الغنائم وأطلقت سراح الأسري الغاليين.

وعلى غرار الدانيين، استغل الهون المستقرين بالأراضي الواقعة في الجزء الأسفل من نهر الدانوب وفاة الملك كلوثير (Clotaire)

---

[22] - انظر تفاصيل تلك الغارات في الجزء الأول، الكتاب الثالث، الفصلان الرابع والسابع، ص. ص. 143- 144 و148-150.

[23] - نفس المصدر والجزء والكتاب، الفصل السابع، ص. 148.

[24] - نفس المصدر، الجزء الأول، الكتاب الثالث، الفصل الثالث، ص.143.

ابن كلوقيس سنة 561، وكذلك النزاع الدائر بين أفراد الأسرة الحاكمة، وقاموا بغارة على بعض أقاليم غالة. وشرعوا في عمليات تقتيل وتدمير كان من الممكن أن تأتي على الأخضر واليابس لولا أن الملك سجبير (Sigebert) ابن كلوثير وجه إليهم جيشا ألحق بهم هزيمة نكراء وأرغم المتبقين منهم على العودة من حيث أتوا[25].

ولم يهدا لزعماء الهون بال بعد هذه الهزيمة. فاستعدوا لمعاودة الكرة على غالة، حيث شنوا غارة على بعض أقاليمها سنوات قليلة بعد هزيمتهم. شارك فيها هذه المرة عدد اكبر من المحاربين. وهب الملك سجبير شخصيا لملاقاتهم. ولكنه انهزم وفقد عددا كبيرا من محاربيه، كما ورد في رواية ڭريڭوار أسقف تور[26]، بينما فر الباقون بعد أن وقع الملك أسيرا في قبضة المحاربين الهون. ولم يتم إطلاق سراحه إلا بعد أن قبل بتوقيع هدنة مع زعماء الهون. التزم فيها بعدم الرد على الهجوم.

ولم يكن السكسونيون أقل عنفا من الغزاة الآخرين. فقد شنوا بدورهم غارة على أقاليم جنوب عالة سنة 570. ساندهم للقيام بها عدد من المحاربين اللومبارديين. ونجحوا في تدمير عدة منشآت وإتلاف الغلات. كما لم يترددوا في قتل من اعترض سبيلهم من شيوخ ونساء وأطفال[27]. وكانوا يستعدون للإقامة هناك مدة أطول لولا أن جيوش الملك ڭونطران (Gontran)، ابن كلوثير، استدركت الموقف. وكان على رأسها القائد الجديد ميمول (Mummole) الذي أبان عن قوة وبسالة نادرتين. إذ قتل "خلقا كثيرا" من المعتدين كما يذكر ڭريڭوار أسقف تور[28]. وأرغم

---

[25] - نفس المصدر والجزء، الكتاب الرابع، فصل 23، ص. 205.

[26] - انظر نص تلك الرواية في نفس المصدر، الجزء الأول، الكتاب الرابع، فصل 29، ص.211.

[27] - نفسه، فصل 42، ص. 227.

[28] - نفسه، ص. 230.

المغيرين الناجين على مغادرة تلك الأقاليم بعد أن جردهم من المتاع الذي استحوذوا عليه.

ولم يستسغ الزعماء اللومبارديون هذه الهزيمة، رغم أن أعداد محاربيهم الذين شاركوا في الغارة السالف ذكرها كانوا قلة. فاعدوا العدة لشن غارة على بعض أقاليم جنوب غالة. واكتسحوا بعض المراكز مثل مرسيليا وڭرنوبل (Grenoble) وأحوازهما التي عانوا فيها فسادا. وقتلوا أعدادا من سكانها ودوابها حسب شهادة ڭريڭوار أسقف تور[29]. وعندما شرعوا في إحكام الحصار على بلدة إكس بروقونس، داهمهم القائد ميمول على رأس جيش كبير. ومرة أخرى أبان عن بسالة قل نظيرها. ورغم أنه فقد الكثير من رجاله، فقد تمكن في النهاية من إفناء الكثير من المغيرين الذين لم تعد منهم إلى ايطاليا سوى فلول قليلة.

- المستوى الثالث: الوفيات الناتجة عن غارات الميروڤنجيين خارج غالة.

شن الميروڤنجيون سلسلة غارات على أعدائهم طيلة القرنين السادس والسابع. بعضها داخل غالة نفسها ولكن خارج دائرة الأراضي التي كان يشملها نفوذهم. وبعضها خارج "حدود" غالة. وقد حدثت أهم تلك الغارات خلال القرن السادس، كما هو الشأن بالنسبة للغارات التي تعرضت لها غالة. لأن الغارات على غالة الميروڤنجية، أو الغارات من غالة الميروڤنجية على العالم الخارجي، كانت تحدث بشكل متعاقب فيما يشبه الفعل ورد الفعل. ولكن أولى الغارات تمت داخل غالة نفسها. وهمت بعض أقاليم القسم الجنوبي التي كانت أجزاء منها في حوزة البورغنديين والقوط الغربيين[30].

---

[29] - أنظر نص تلك الشهادة في نفس المصدر، الجزء الأول، الكتاب الرابع، فصل 44، ص.ص. 231-232.

[30] - Ferdinand Lot, Naissance de la France, Paris, Arthème-Fayard, 1948, pp. 32-35.

وقد تزامنت مع المرحلة الثانية من مراحل تأسيس المملكة الميروڤنجية؛ وهي المرحلة التي انتهت إجمالا سنة 511 تاريخ وفاة كلوڤيس. علما بأن تداعيات هذه الغارات استمرت بعد السنة المذكورة. أما أهم الغارات التي شنها المحاربون الميروڤنجيون خارج غالة، فقد استهدفت كلا من اسبانيا وايطاليا وجرمانيا. وكانت ضد القوط الغربيين واللومبارديين والسكسونيين والثورنجيين.

وتكمن أهمية الحديث عن هذه الغارات بالنسبة للموضوع الذي يهمنا، في كونها كانت تنتهي بقتلى وأسرى في صفوف المحاربين الميروڤنجيين، رغم أنهم كانوا يعودون بالنصر بعد كل غارة. وتختلف الوفيات الناتجة عنها عن الوفيات المترتبة عن النوعين السابقين من الحروب، في كون أعداد ضحاياها كانت قليلة. وكان ضحاياها يتألفون من الذكور بصفة خاصة.

وفي هذا السياق يفيدنا ڭريڭوار أسقف تور بأن المحاربين الميروڤنجيين شنوا غارة مكثفة على الثورنجيين حوالي سنة 520[31] تزعمها الأخوان الملكان ثييري وكلوثير. كادت وقائعها الأولى أن تودي بحياة الملكين اللذان نجيا بأعجوبة من الوقوع في كمائن أعدها الثورنجيون. بينما فقدا "أعدادا كثيرة" من محاربيهما الذين وقعوا في تلك الكمائن أو قتلوا في الاشتباكات[32].

وكانت الغارة التي شنها الميروڤنجيون على ايطاليا سنة 553 مكلفة أيضا. فقد حققوا فيها النصر، ولكن بعد أن تكبدوا خسائر بشرية فادحة بين محاربين قتلوا في المواجهات، ومحاربين توفوا بعد أن انتشرت بينهم حالة حمى قاتلة حسب المعلومات التي يقدمها نفس المؤرخ[33].

---

[31] - تاريخ الفرنجة، مصدر سبق ذكره، الجزء الأول، الكتاب الثالث، الفصل السابع، ص.ص. 148-150.

[32] - نفسه، ص.149.

[33] - انظر الجزء الأول من تاريخ الفرنجة، الكتاب الثالث، فصل 32، ص.ص. 172-173، وكذلك الكتاب الرابع، الفصل التاسع، ص. 188.

وعلى منوالها، كانت الغارة التي شنوها على السكسونيين بجرمانيا سنة 555 مكلفة. إذ يذكر ڭريڭوار أسقف تور في معرض حديثه عنها، أن الميروڤنجيين فقدوا فيها أكثر من نصف عدد محاربيهم[34]. كما وقع فيها الملك ثيودبالد (Théodobald) ابن كلدومير(Clodomir) أسيرا.

وعاود الميروڤنجيون الغارة على ايطاليا سنة 590 بجيش ضخم شارك فيه عشرون دوقا (Ducs). انتقلوا بأنفسهم إلى ايطاليا التي توغلوا في بعض أقاليمها، وهم متجهين نحو موقع المواجهة الذي حدده اللومبارديون على ضفة واد قرب ميلانو. ولكن هؤلاء تراجعوا عن الموقع حين بلغتهم أنباء عن كثافة الجيش القادم. وظل المحاربون الميروڤنجيون مرابطين طيلة أسبوع في انتظار المواجهة التي لم تحدث. ورغم ذلك حدثت وفيات في صفوفهم. إذ بدل العودة إلى غالة، تفرقوا في أنحاء من ايطاليا للقيام بعمليات سلب ونهب. فتعرض عدد منهم لهجمات خاطفة وقاتلة من قبل اللومبارديين، بينما انتشرت حالة إسهال حاد (une dysenterie) في أوساط محاربين آخرين. أودت بحياة عدد كبير منهم حسب الإفادات التي يقدمها ڭريڭوار أسقف تور في الموضوع[35].

2- الوفيات الناتجة عن المجاعات والأوبئة وكوارث طبيعية أخرى

تمثل المجاعات والأوبئة التي شهدتها غالة خلال القرنين السادس والسابع امتدادا لتلك التي شهدتها خلال القرن الثالث في سياق الأزمة

---

[34] - نفس المصدر والجزء والكتاب، فصل 14، ص.ص. 194-196. نفس الحقيقة يؤكدها الباحث فردناند لوط (Ferdinand Lot) في مؤلفه السابق الذكر، ولكنه لا يقدم مع الأسف أرقاما عن عدد القتلى.

[35] - أنظر تفاصيل الغارة في الجزء الثاني من المصدر السابق الذكر، الكتاب العاشر، الفصل الثالث، ص.ص. 262-265.

السياسية والعسكرية والاقتصادية والاجتماعية التي أصبحت تتخبط فيها الإمبراطورية الرومانية ابتداء من حوالي سنة 275. وقد خلقت تلك الأزمة، وما تلاها من أحداث بمناسبة عمليات الغزو الجرماني أرضية خصبة للمجاعات والأوبئة التي أصبحت منذ ذلك التاريخ تظهر باستمرار وتتفشى بسرعة مخلفة عددا من الضحايا من مختلف الأعمار والأجناس.

وذلك ما حدث في غالة سنة 466، حيث ظهر وباء بإقليم أورليان (Orléans)[36]؛ سرعان ما عم الأقاليم الأخرى. وأودى بحياة أعداد من السكان انضافوا إلى القتلى الذين كانوا يسقطون من جراء الحروب الدائرة في الشمال والجنوب بين عدة قوى، ومن بينها الفرنجة الذين كانوا يقومون آنذاك بمحاولات جادة للسيطرة على أقاليم شمال غالة.

تم تلت هذا الوباء بعد سنوات قليلة مجاعة. كانت لحسن الحظ محلية، حيث عمت إقليم بورغونديا (la Bourgogne) وحده. وكان من الممكن أن تكون أعداد ضحاياها مرتفعة، وخاصة في أوساط الفئات المعوزة، لولا البادرة التي قام بها احد النبلاء[37]. إذ يفيدنا ڭريڭوار أسقف تور أن هذا النبيل سخر العربات التي كان يتوفر عليها والأعوان التابعين له لنقل جميع فقراء الإقليم إلى مأوى خصصه لهم قرب مقر إقامته. وإذا صدقنا ڭريڭوار أسقف تور، فقد كان عددهم أكثر من أربعة آلاف فرد بين رجال ونساء وأطفال. سهر على إطعامهم طيلة المدة التي استغرقتها المجاعة[38]، وبذلك انقدهم من موت محقق.

---

[36] - نفس المصدر، الجزء الأول، الكتاب الثاني، فصل 18، ص.ص. 106-107. لم يحدد غريغوار أسقف تور طبيعة هذا الوباء.

[37] - يدعى اكدكيوس (Ecdicius). كان أحد أعضاء مجلس الشيوخ. انظر تاريخ الفرنجة، الجزء الأول، الكتاب الثاني، فصل 24، ص. 118.

[38] - لم يحدد ڭريڭوار أسقف تور المدة التي استغرقتها المجاعة.

ويبدو أن أهم الأوبئة التي شهدتها غالة خلال القرن السادس، تمثلت في الوباء الذي حدث سنة 563 وعم العديد من الحواضر والأرياف. وقد كانت مضاعفاته أكثر حدة في بعض المراكز الحضرية مثل ليون (Lyon) وديجون (Dijon) وكلرمون- فرون (Clermont-Ferrand) التي أودى فيها بحياة "عدد كبير من السكان"، حتى انه تعذر إحصاء الضحايا كما يذكر ڭريڭوار أسقف تور[39].

ونظرا لكثرتهم، فقد تعذر إيجاد الثوابيت الكافية، وخاصة في مدينة كلرمون- فرون، ولذلك أصبحت الجثث توارى في حفر كانت تدفن في كل واحدة منها أكثر من عشر جثث[40]. ويضيف ڭريڭوار أسقف تور في معرض حديثه عن هذا الوباء أن حوالي ثلاثمائة فرد من رجال ونساء سقطوا ضحايا خلال أحد أيام الأحد في كنيسة سان- بيار(Saint-Pierre) بالمدينة. لأن الوباء كان فتاكا لا يمهل المصابين أكثر من يوم أو يومين. وكأنهم تجرعوا سما قاتلا دون أن تظهر عليهم أعراض باستثناء جرح طفيف في ثنية الفخذ (l'aîne) أو تحت الإبط لوحظ على أجساد بعض الضحايا. وكان يبدو على شاكلة لدغة ثعبان[41].

وعلى غرار وباء سنة 563، كان الوباء الذي شهدته غالة في صيف سنة 580 عاما بدوره. فقد انتشر في معظم الأقاليم. وكان من الممكن أن تكون أثاره محدودة نسبيا حسبما يستشف من كلام ڭريڭوار أسقف تور[42]. غير أن الذي جعله ذا وقع خطير هو تزامنه مع بداية حرب أهلية بين الإخوة شلدبير وڭونطران وشلبريك. فأضافت تلك الحرب قتلى إلى ضحايا هذا الوباء الذي انتشر على

---

[39] - تاريخ الفرنجة، الجزء الأول، الكتاب الرابع، فصل 31، ص.ص. 213-216.

[40] - نفسه، ص. 215.

[41] - نفسه، ص.216.

[42] - نفس المصدر، الجزء الأول، الكتاب الخامس، فصل 34، ص.ص. 294-297.

شكل موجة حمى وإسهال حاد (dysenterie) أصيب بها السكان كبارا وصغارا ذكورا وإناثا.

ويفيدنا ڭريڭوار أسقف تور، بأن المصابين كانوا يشتكون قبيل الوفاة من آلام في الرأس والرقبة والكليتين، وآلام في البطن مرفوقة بحالة قيئ مستمر. فتدوم أوضاعهم على ذلك الحال بضعة أيام ثم يسلمون أرواحهم.

وقد ذهب بول أدريان جانسنس (Paul Adriaan Janssens)، انطلاقا من هذه الأعراض، إلى تصنيف الوباء ضمن خانة ما يصطلح على تسميته حاليا في مجال الطب "بالتفويد"[43]. بينما ذهب الباحث جويل بلونديو (Joël Blondiaux)، الذي تبنى مقاربة مختلفة تماما، تمثلت في دراسات وتحليلات مختبرية خضعت لها عينات من الهياكل العظمية تعود للفترة الميروڤنجية، إلى الإعتقاد باحتمال أن يكون ذلك الوباء حالة "مينانجيت" عامة، أو ما بعرف في الأوساط الطبية بالتهاب السحايا الدماغي-الشوكي (une méningite cérébro-spinale)[44].

وبغض النظر عن فصيلة الوباء، فإن الذي يهمنا - في سياق هذا البحث- هو أن حصيلته كان من الممكن أن تكون ثقيلة كما يستشف من رواية ڭريڭوار أسقف تور، لولا أن الله هدى الناس –كما يقول- إلى فصيلة من الأعشاب كان كل صحيح من أفراد أسرة ما، يقوم بغليها في كمية من الماء ويقدمها للمصابين. فخففت ألام بعض

[43] - أنظر مداخلته التي سبق أن أحلنا عليها.

[44] - Joël Blondiaux, " Tentative de reconstruction paléodémographique d’une population mérovingienne du Nord de la Gaule : la nécropole de Les Rues des Vignes (Nord)", in Bulletins et Mémoires de la Société d’anthropologie de Paris, XIVe Série, tome 3, fascicule 3, 1986, pp. 163-176, p. 166.

الناضجين وتماثلوا للشفاء. ولكن الوصفة لم تنفع مع من دونهم في السن، من "مراهقين" وأطفال، فتوفوا بدون استثناء[45].

وبعد بضعة أشهر من حدوث هذا الوباء، كانت بعض أقاليم جنوب غرب غالة على موعد سنة 581 ثم سنة 583 مع الطاعون. ويبدو انه لم يحصد هذه المرة سوى أرواح أعداد قليلة حسب شهادة ڭريڭوار أسقف تور[46]. ولكن ما إن أوشك سكان غالة على تضميد جراحهم، حتى حلت بديارهم مجاعة سنة 584. عمت كافة الأقاليم وأودت بحياة عدد كبير من السكان[47]، رغم المحاولات اليائسة التي قامت بها بعض الأسر كخلط الكميات القليلة المتبقية في حوزتها من دقيق مع كميات من مسحوق قشور الفواكه اليابسة لصنع نوع من الخبز. بل إن بعض الأفراد اضطروا تحت وطأة الجوع إلى الإقتتات بالنباتات. وكانت من بينها أعشاب سامة ساهمت هي الأخرى في رفع عدد الوفيات.

وكان على سكان أقاليم الجنوب أن يسلموا أرواحهم مرة أخرى للطاعون سنة 587[48] كما فعلوا سنة 581 وسنة 583. وكان سكان مرسيليا وأحوازها أكثر المعنيين بهذا الطاعون لأن مرسيليا كانت أول مركز استقبل العدوى القادمة من إسبانيا على متن مركب رسا بميناء المدينة. وما أن أوشك سكان هذه الأقاليم على الانتهاء من تضميد الجراح التي خلفها الطاعون حتى عمت أراضيهم موجة جفاف سنة 590[49]. أعقبها وباء كانت الخسائر البشرية المترتبة عنه محدودة لحسن الحظ[50].

---

45 - ڭريڭوار أسقف تور، تاريخ الفرنجة، الجزء الأول، الكتاب الخامس، فصل 34، ص. 295.

46 - نفس المصدر، الجزء الثاني، الكتاب السادس، فصل 14، ص:32، وفصل 33، ص. 52.

47 - نفس المصدر والجزء، الكتاب السابع، فصل 45، ص. 123.

48 - نفس المصدر والجزء، الكتاب التاسع، فصل 21، ص:214، وفصل 22، ص.ص. 215-216.

49 - نفس المصدر، الجزء الثاني، الكتاب العاشر، فصل 25، ص. 304.

50 - نفسه، فصل 30، ص. 314.

وإذا كان سكان حواضر وأرياف غالة قد قدموا عددا كبيرا من الرجال والنساء والأطفال قرابين للمجاعات والأوبئة، فقد كان عليهم أن يقدموا أعدادا أخرى لبعض الكوارث الطبيعية التي حلت بديارهم. وقد تمثلت أبرزها في عواصف هوجاء وهزات أرضية.

وفي هذا السياق يفيدنا كُريكْوار أسقف تور[51] بأن مطلع سنة 534 شهد إبرام تحالف بين الملك شلدبير ابن كلوفيس وثيودبير إبن أخيه للإطاحة بعرش الملك كلوثير ابن كلوفيس واقتسام الأراضي التي يحكمها. وفي الوقت التي عسكرت فيه قوات الملك شلدبير وحليفه ثيودبير استعدادا للقيام بهجوم كاسح في اليوم الموالي، هبت رياح عاتية ودوت رعود قوية فوق سماء المعسكر تساقط على إثرها مطر وابل وقطع من الأحجار أفزعت المحاربين الذين تفرقوا بين راكب وراجل في كل الأنحاء. وحين هدأت العاصفة تم العثور على جثث العديد منهم. بينما لم يتم العثور على أثر لأعداد أخرى منهم.

ويبدو أن هذه الكارثة لم تسفر الا عن خسائر محدودة. ويمكن تعداد هذه المحدودية ضمن كرامات الأولياء والصلحاء، لأن كلوتيلد (Clotilde) أم الملوك المتصارعين، زارت ضريح القديس مارتان (Saint-Martin) وتوسلت من الله أن يقي الغاليين شر حرب أهلية. وخلافا لذلك، فإن الخسائر كانت كبيرة على اثر كارثة حدثت سنة 563. وقد اشتركت نصوص معاصرة لنص كُريكْوار أسقف تور في نقل وقائعها[52].

وورد في موضوعها أن مرتفعات محاذية لنهر الرون حدث بها انكسار كالذي يحدث عندما تنجرف الكتل الثلجية. فانفصلت تلك

---

[51] - تاريخ الفرنجة، الجزء الأول، الكتاب الثالث، فصل 28، ص.ص. 169-170.

[52] - انظر تلك الوقائع عند:

Marius d’Avenches, Chronique in Monumenta Germaniae Historica, Op.cit, Tome IV, p 237.

وعند كُريكْوار أسقف تور في تاريخ الفرنجة، الجزء الأول، الكتاب الرابع، فصل 31، ص.ص. 213-214.

المرتفعات إلى كتلتين. غارت إحداهما في باطن الأرض، ربما من جراء هزة أرضية محدودة، واختفت معها منشات عمرانية ومنازل. كما ذهب ضحيتها العديد من الأفراد والدواب. وزادت من حجم الخسائر المادية والبشرية، مياه النهر التي لم تعد تعترضها أية حواجز، فتدفقت كالسيل العارم. وغمرت قرى ومساحات شاسعة من الأراضي المستثمرة.

ويقيدنا ڭريڭوار أسقف تور في نفس الموضوع[53]، بأن مجموعة من الرهبان تتكون من ثلاثين فردا توجهت إلى المنطقة المنكوبة أياما قلائل بعد حدوث الكارثة، فأحس الرهبان حين وصلوا إلى عين المكان بان الأرض تهتز تحت أقدامهم. فتساقطت عليهم شظايا من صخور الكتلة الجبلية التي ظلت على وجه الأرض. قتلت بعضهم، فيما سقط الباقون في هوة عميقة، فلقوا حتفهم جميعا.

واستمرت الكوارث تحصد الأرواح. إذ بعد كارثة سنة 563 شهدت أقاليم جنوب غالة هزة أرضية عنيفة سنة 580.[54] امتد صداها إلى أقاليم شمال اسبانيا. وقد تأثرت من جرائها مدينة بوردو والقرى الواقعة بأحوازها، وكذلك القرى الواقعة على طول مرتفعات البرانس، التي انهارت معظم منشأتها الإقتصادية والعمرانية كما قتل العديد من سكانها.

3- الوفيات الناتجة عن أمراض البيئة السائدة (Les maladies endémiques)

يتضح من المعلومات التي يتضمنها كتاب "تاريخ الفرنجة" أن الأمراض شكلت رافدا أخر من روافد الوفاة في غالة خلال القرنيين السادس والسابع. وتترك تلك المعلومات الإنطباع بان حصيلة

---

[53] - نفسه، ص. 214.

[54] - نفس المصدر والجزء، الكتاب الخامس، فصل 33، ص .ص. 293-294.

الوفيات المترتبة عنها كانت مرتفعة، رغم أن ڭريڭوار أسقف تور لا يقدم أرقاما تؤكد ذلك. ويبدو هذا المنحى منطقيا انطلاقا من اعتبارين:

أولهما: أن الأمراض كانت تؤدي في أغلب الأحيان بالمصابين إلى الوفاة مباشرة عكس ما هو عليه الأمر حاليا، حيث إن المريض قد يتماثل للشفاء. وقد يتوفى ولكن بعد فترة مرض قد تطول أو تقصر.

وثانيهما: أن الأوضاع الصحية والمعيشية لأفراد المجتمع كانت متردية بشكل كان يجعلهم مؤهلين للإصابة بسرعة. كما كانت تلك الأوضاع تساعد على تفشي الأمراض وانتشار عدواها بين الكبار والصغار وفي سائر الأقاليم؛ إلى درجة أن أنواعا من الأمراض كانت تأخذ طابعا وبائيا. وهذا ما سنحاول توضيحه بإيجاز.

- فبخصوص الإعتبار الأول، نذكر أن الوفاة عقب حالة مرض كانت مصيرا محتوما بالنسبة لمن يصطلح على تسميتهم "بالعامة"، أي السواد الأعظم من أفراد المجتمع، إلا القلائل ممن اخذ الله بيدهم. ويعود ذلك لأسباب ودواعي لا يسمح المجال باستعراضها تتعلق بالأوضاع المعيشية المعيشة وبطبيعة الوقاية ومستوى الصحة عموما. أما بالنسبة لأفراد الأسرة الحاكمة وأفراد الارستقراطية، فقد كان من الممكن تجنب المرض. وحين يصاب به أحدهم كان من الممكن أن يتماثل للشفاء. ومع ذلك، فإن المعلومات التي يقدمها ڭريڭوار أسقف تور تفيد بأن معظم المرضى من أفراد الأسرة الحاكمة أو من أفراد الارستقراطية كانوا يلقون نفس مصير المرضى من أفراد العامة. لذلك كان ينتاب الملك قلق شديد ويستولي عليه اليأس حين يلم به المرض أو حين يصاب أحد أبنائه. لأنه يعلم أن المرض يؤدي بالمصاب إلى الوفاة.

فقد حدث أن ألم مرض، لم يوضح ڭريڭوار أسقف تور طبيعته، بالإبن البكر للملك كلوڤيس، أودى بحياته رغم المحاولات التي بذلت

لعلاجه[55]. وعندما ألم المرض بعد مدة بابنه الثاني، امتلكه القلق وأدرك انه سيلحق بأخيه. ولم يصدق حين امتثل الإبن للشفاء. بينما رأت كلوتيلد زوجة الملك في شفاء ابنها هبة ربانية[56].

ومثل هذا التصور الذي كان يربط بين الموت والمرض، كان نابعا من الحقيقة المعاشة. فقد توفي ابن كلوڤيس، كما ذكرنا، رغم المحاولات التي بذلت لتجنب هذا المآل. وحدث أيضا إن الم مرض بالملك ثيدوبير (Théodobert) سنة 548. ألزمه الفراش عدة أشهر. بذل الأطباء خلالها جهودا لشفائه، ولكنه اسلم الروح[57].

وفي نفس السياق يفيدنا كُريكُوار أسقف تور بان علة فالج ألمت بالملك ثيدوبالد (Théodobald) أصيب على أثرها بشلل نصفي، فلم يعد قادرا على الحركة. ثم توفي بعد فترة قصيرة[58]. ولقيت زوجة الملك كُونطران نفس المصير سنة 580 بعد إصابتها بإسهال حاد لم ينفع معه دواء[59].

وإذا كانت النماذج التي استعرضناها لا تهم سوى أفراد الأسر الحاكمة، فقد تعمدنا انتقاءها، لنوضح بان العيش الرغيد الذي كان ينعم به الملوك وأفراد أسرهم لم يكن يمنحهم حصانة كافية ضد المرض.

وهكذا كان الأطفال المنتمين لتلك الأسر، والناضجون ذكورا وإناثا يصابون بالأمراض السائدة في عصرهم وفي بيئتهم. والأهم من ذلك أن الأمراض كانت تزهق أرواحهم كما كانت تفعل بعموم أفراد المجتمع.

---

[55] - انظر تاريخ الفرنجة، الجزء الأول، الكتاب الثاني، فصل 29، ص.ص. 117-119.

[56] - نفسه، ص. 119.

[57] - نفس المصدر والجزء، الكتاب الثالث، فصل، 36، ص. 176.

[58] - توفي سنة 555، بعد فترة حكم دامت سبع سنين. انظر تاريخ الفرنجة، الجزء الأول، الكتاب الرابع، الفصل التاسع، ص. 188.

[59] - نفس المصدر والجزء، الكتاب الخامس، فصل 35، ص. 297.

- أما بخصوص الإعتبار الثاني، فنشير إلى أن المعلومات التي يقدمها كَريكَوار أسقف تور في مصنفه عن حالات الحمى الجماعية، وألام الرأس والقيء والإسهال والتشنجات وتغير لون بشرة المصابين، كلها أعراض تفيد بأن أبرز الأمراض التي انتشرت في غالة خلال القرنين السادس والسابع يحتمل جدا أن تكون ما يعرف اليوم في مجال الطب وعلم الأوبئة بالبالوديسم (le paludisme) والتفويد والمينانجيت ومرض سل العظام (la tuberculose ostéo-articulaire). وقد أكدت التحليلات والتحريات التي خضعت لها الهياكل التي أسفرت عنها حفريات جويل بلونديو المشار إليها سابقا تفشي هذه الأنواع من الأمراض.

ويبدو أن حصانة السواد الأعظم من أفراد مجتمع غالة كانت دون المستوى. لأنهم عاصروا فترة زمنية كانت فيها مصادر الإصابة كثيرة. تمثلت في وجود بعض العناصر المفسدة للهواء وللماء. بالإضافة إلى سوء الأوضاع الصحية السائدة وتدني مستوى المعيشة. فكانوا لسوء حظهم يسقطون مرضى من جراء أية إصابة.

فقد كانت الوقائع الحربية تجري على مشارف مراكز الاستيطان. فتترتب عنها وفيات في صفوف المحاربين، وغير المحاربين. فتتراكم جثامينهم مدة قبل دفنها وتتعفن. فيفسد من جراء ذلك الهواء الذي يستنشقه عموم الناس. فتلحقهم الإصابات. كما كانت الغابة تقع على مشارف القرى والمراكز الحضرية. وقد كانت تغطي معظم أقاليم غالة كما ذكرنا سابقا[60]. وكانت تقع ببعض أجزائها مستنقعات. فكانت الغابات والمستنقعات مرتعا للهوام والزواحف والحشرات الناقلة للجراثيم المسببة للأمراض.

وعلى مقربة من المساكن كانت توجد الإصطبلات ومرابط الدواب والأماكن التي يلقى فيها روث هذه الدواب. وهذه الفضاءات

---

60 - انظر الصفحة الثانية.

تتجمع فيها مواد وسوائل مسببة للأمراض (des matières et des liquides pathogènes). تتولد فيها، كما هو معروف، جراثيم وطفيليات يطأها الإنسان كل يوم، وينقلها إلى مسكنه أو إلى الكنسية. كما تساهم في نقلها الحيوانات الأليفة (وأهمها الكلاب)، والرياح. فتحدث من جراء ذلك الإصابة.

وغالبا ما كانت الإصابة الفردية، أو الإصابة التي تلحق بعدد محدود من الأفراد، تتحول إلى عدوى أو إلى وباء محلي أو عام. ويحدثنا ڭريڭوار أسقف تور في هذا الشأن عن حالات حمى أصابت فردا من الخاصة أو من العامة هنا وهناك. كما يحدثنا عن حالات أصابت مجموعة أفراد وعن حالات تحولت إلى وباء محلي.

فقد حدث أن خرج الملك كلوثير يوما للقنص في إحدى غابات ضواحي باريس، فعاد على غير عادته يشكو من صداع في رأسه. وما أن وطأت قدماه بهو القصر حتى انتابته حمى وارتفعت درجة حرارة جسمه، وسقط لتوه صريعا[61].

وإذ لم تمهل الحمى الملك كلوثير، فقد أمهلت قليلا رجلا من سكان مدينة بواتيي (Poitiers). غادر المدينة بنية التوجه إلى باريس، فأحس وهو في الطريق بصداع. وانتابته حمى عنيفة، أودت به وهو على مشارف باريس[62].

وكان نفس الداء سببا في وفاة عدد من المحاربين الميروڤنجيين، الذين توجهوا إلى ايطاليا سنة 539 بهدف شن غارة على بعض أقاليمها. فانتشرت يبن صفوفهم حالة حمى قبل القيام بالغارة. أودت بحياة عدد منهم[63].

وعلى غرار الحمى، كانت حالات الإسهال تنتاب فردا أو مجموعة أفراد. وأحيانا كانت تتحول إلى وباء. كما حدث سنة 586،

---

[61] - تاريخ الفرنجة، مصدر سبق ذكره، الجزء الأول، الكتاب الرابع، فصل 21، ص 204.
[62] - نفسه، الجزء الثاني، الكتاب التاسع، فصل 13، ص 199.
[63] - نفسه،الجزء الأول، الكتاب الثالث، فصل 32، ص 172.

حين تفشى هذا الداء بين العديد من الرجال والنساء والأطفال بمدينة متز (Metz)، فلقوا حتفهم نتيجة الإصابة[64].

نستطيع في ضوء المعطبات التي تضمنها هذا المبحث، الذي عالجنا فيه ظاهرة الوفيات في غالة الميروفنجية، استخلاص الملاحظات التالية:

أولا: تفيد تلك المعطيات بأن غالة الميروفنجية كانت ميدانا احتدم فيه الصراع بين الحياة والموت. وقد كانت الغلبة لصالح الموت الذي حصد الكثير من الرجال والنساء والأطفال. رغم أن المصنف الذي اعتمدناه لا يتضمن أرقاما تسمح بقياس معدل الوفيات الخام. وإن ما يجعلنا نميل إلى الاعتقاد بغلبة كفة الموت هو أن جميع الأسباب المؤدية للفناء تواجدت خلال فترة زمنية قصيرة لم تتجاوز قرنان من الزمان. فأدت إلى حدوث تلك الوفيات. وخلقت في ذات الوقت ظرفية غير مساعدة لتعويض الوفيات. وكانت وراء تعذر تعويض الوفيات عدة أسباب من بينها تراجع نسبة الولادات خلال فترات الحروب، وتزايد نسبة النساء الأرامل بعد وفاة أعداد من المحاربين الذكور، وتراجع نسبة حالات الزواج، وتراجع مستوى الخصوبة.

ثانيا: تمثل الفترة التي عالجها العرض مرحلة بلغ فيها مستوى الوفيات أعلى مراحل تطوره منذ أن أخذ في الارتفاع عند نهاية القرن الثالث. وإن الذي جعل الوفيات تصل إلى ذلك المستوى، وخلال ذلك الحيز الزمني بالذات، هو تظافر مجموع الأسباب التي توقفنا عندها، وإن بدت الحروب أكثر تلك الأسباب فعالية.

ثالثا: ورغم ذلك، فإن معاجلة ظاهرة الوفيات، تقتضي تبني رؤية شاملة. تقوم على ربط حجمها وتطورها واتجاهاتها بكل الأسباب المحتملة التي يجب أن تتنوع بين السبب السياسي والعسكري والاقتصادي والبيئي والمناخي والصحي. وإن الإطار البيوجغرافي

[64] - نفسه، الجزء الثاني، الكتاب التاسع، فصل 13، ص 198.

والتاريخي هو وحده الذي يجب أن يحدد الأولوية المعطاة لتلك الأسباب.

رابعا: تستدعي دراسة من هذا القبيل، وخاصة عند توفر المعطيات الرقمية، أو الشواهد المادية (متمثلة في الهياكل العظمية بشكل خاص) التمييز بين الوفيات من حيث الفئات الجنسية (الذكور والإناث) ومن حيث الفئات العمرية (الأطفال والكهول والشيوخ، لأن الأفراد المتوفين يختلفون من حيث الجنس ومن حيث العمر تبعا لاختلاف الأسباب المؤدية للوفاة.

ولتوضيح هذا الأمر، نشير إلى أن الحروب كانت تترتب عنها خلال الفترة موضوع البحث، وخلال العصر الوسيط عموما، وفيات في صفوف الذكور أكثر من الوفيات في صفوف الإناث. كما أن أنواعا من الأمراض كانت تترتب عنها وفيات في صفوف الأطفال أكثر من الوفيات في صفوف الكبار. وهذا ما أوضحه جويل بلونديو(Joël Blondiaux) بعد المعاينة المختبرية للهياكل التي كشفت عنها الحفريات التي أشرنا اليها سابقا[65].

ولا بأس من التذكير بأن تلك الحفريات تمت بين سنتي 1979 و1982 في مقبرة ميروڤنجية تقع بقرية ڤانسيكوم أو فينشي (Vinciacum ou Vinchy) على بعد 10 كلمترات إلى الجنوب الغربي من كامبراى (Cambrai). وأفضت إلى الكشف عن 269 هيكل عظمي آدمي. خضعت لفحوصات وتحليلات مختبرية. أسفرت عن جملة من الخلاصات من بينها خلاصات ذات صلة بموضوع هذا البحث. يمكن إجمالها فيما يلي:

- 63 هيكلا لم يتم التحقق من فصيلتها الجنسية والعمرية.

- 6 هياكل أنثوية، وهيكل واحد لذكر، و8 هياكل لأطفال. لم يتمكن بلونديو وفريقه من تحديد عمرها (سنها) عند الوفاة.

---

[65] - أنظر الصفحة 32، هامش رقم 44.

- أمكن تحديد العمر (أو السن) عند الوفاة ل 62 هيكلا ذكرا، ول 61 هيكلا أنثويا، ول 56 هيكلا لأطفال.
- نسبة الوفيات في وسط الأطفال بلغت 24 بالمائة من مجموع العينات.
- توفي طفل بين كل خمسة أطفال قبل بلوغ عام من عمره.
- 50 بالمائة من مجموع الإناث توفين قبل أن بلوغ سن 29.
- نسبة المتوفين من الذكور في سن الستين (60) سنة، لم تتجاوز عتبة 4 بالمائة. بينما بلغت هذه النسبة في أوساط الإناث أكثر قليلا من 6 بالمائة.

ويبدو أن أهم خلاصة أفضت إليها معاينة تلك النماذج، هي أن سكان غالة لم يكونوا يعمرون طويلا خلال القرنين السادس والسابع. فلا أحد من الذكور أو الإناث الذين تمت مواراة جثامينهم في مقبرة "ڤانسيكوم" تجاوز عمره عند الوفاة عتبة السبعين (70) سنة. بل الأدهى من ذلك هو أن متوسط السن عند الوفاة لم يتجاوز في أوساط الإناث 31.5 سنة، بينما بلغ هذا المتوسط في أوساط الذكور 41 سنة.

والجدير بالذكر أن هذه الخلاصة تؤكد المعطيات التي يتضمنها مصنف ݣريݣوار أسقف تور، ونصوص أخرى، حول معدلات أعمار الملوك الميروڤنجيين عند الوفاة. فقد ولد كلوڤيس حوالي سنة 466. وتوفي يوم 27 نونبر 511. أي عن عمر يناهز 45 سنة. وولد ابنه كلوثير، الذي خلفه على الحكم، حوالي سنة 498. وتوفي يوم 29 نونبر سنة 561. أي أنه عمّر 63 سنة. وولد ݣونطران، أحد أبناء كلوثير، حوالي سنة 533. وتوفي يوم 28 مارس سنة 592. أي أن عمّر 59 سنة.

المبحث الثالث: الوضعية الديموغرافية في غالة بين سنتي 1000 و1348

يجمع المهتمون بتاريخ أوربا في العصر الوسيط بأن التطورات الاقتصادية كانت مرتبطة طيلة هذا العصر بالتطور الديموغرافي، سواء إبان فترات النمو المطرد أو إبان فترات التراجع. ومعنى ذلك أن عدد السكان ساهم في تحديد وتيرة النمو الاقتصادي، وفي تحديد مستوى معيشة كل فرد منهم.

ويبدو مثل هذا التوجه منطقيا، إذا علمنا بان الأمر يتعلق بمجتمع زراعي كانت إمكانياته التكنولوجية محدودة، وكان العنصر البشري فيه يمثل رأسمال بالغ القيمة.

وتبعا لذلك، احتل الجانب الديموغرافي حيزا مهما في عدد من الأبحاث. سواء منها تلك التي انصبت على القرون الأولى من العصر الوسيط. أو تلك التي ركزت على العصر الوسيط الأوسط. أوتلك التي اهتم واضعوها بالقرنين الرابع عشر والخامس عشر. وتمثل الغالبية العظمى. كما أوضحنا ذلك في المبحث الأول من هذا الكتاب.

وقد ارتأينا تخصيص هذا المبحث للتطرق للوضعية الديموغرافية في غالة بين سنتي 1000 و1348. ولكننا لا ننوي القيام بدراسة مسهبة تهم جوانب الإشكالية المشار اليها. بل سنكتفي بإبداء جملة من الملاحظات حول طبيعة تلك الوضعية، انطلاقا من المؤشرات التي تتضمنها بعض النصوص ومن الخلاصات التي انتهى اليها بعض الباحثين الذين تناولوا جوانب من الموضوع.

وسنقوم بذلك انطلاقا من زاويتين: الأولى تهم الفرضيات والأرقام الدالة على طبيعة تلك الوضعية. والثانية تهم بعض مظاهر تلك الوضعية وتجلياتها. دون إغفال الإشارة إلى ارتباطها بالوضعية الاقتصادية القائمة خلال الفترة موضوع هذه الصفحات.

ولا بد من التأكيد، بأن الباحثين الذين اعتمدنا على مؤلفاتهم، أجمعوا بأن أهم عائق يعترض سبيل الباحث، يتمثل في كون المصادر الخطية التي تهم تلك الحقبة من تاريخ غالة، ليست متجانسة. ولا يمثل الجنس الواحد منها سلسلة متصلة. كما أنها ليست ثرية بالمادة ذات الصبغة الديموغرافية وبالمعطيات الرقمية الكافية التي يتطلبها البحث. ولذلك نجد أن كَي بوا (Guy Bois)، على سبيل المثال لا الحصر، استند عند الحديث عن الوضعية الديموغرافية في منطقة نورمانديا الشرقية قبل القرن الرابع عشر الى الخلاصات التي انتهى اليها علماء الآثار. ولم يعول على المصادر الخطية الا عند الحديث عن تلك الوضعية بعد سنة 1300[1]. وبرر ذلك بالأسباب التي أشرنا اليها. وعاد ماثيو أرنو (Mathieu Arnoux) سنوات بعد ذلك، ليؤكد بأن المصادر الخطية التي تهم حقبة ما قبل سنة 1300 هي فعلا مضطربة. ولا تقدم للباحث في حقل الديموغرافيا سوى مؤشرات غير مباشرة[2].

ولا بأس من الإشارة الى أن هذه المصادر تمثل رصيدا مهما. وتتألف، في معظمها، من صنفين رئيسيين هما:

- النصوص الأدبية ذات الصبغة التاريخية. وتتوزع بين كتب الإخباريات والحوليات وسجلات الأديرة، والمصنفات التي تعرض لسير القديسين والقديسات، وكتب الأنساب الخاصة بأفراد الأسر الحاكمة وأفراد الأرستقراطية.

---

[1] - أنظر أطروحته الموسومة ب:

Recherches sur l’économie rurale et démographie en Normandie orientale du début du XIVe siècle au milieu du XVIe siècle.

وقد نشرها تحت عنوان:

Crise du féodalisme , Paris, Presses de la Fondation Nationale des Sciences Politiques, 1976, p. 163.

[2] - أنظر مقاله:

"Croissance et crises dans le monde médiéval XIe-VXe siècle. Réflexions et pistes de recherches", Cahiers du monde russe, No 46, 1-2, Année 2005, p. 116.

- المراسيم الملكية وعقود البيع والشراء والكراء والوصايا (les testaments).

وتمتاز عموما، بكونها متفاوتة من حيث الكم من إقليم الى آخر. وعلى سبيل المثال، فقد أحصى روبير فوصيي (Robert Fossier) ما يناهز أربعة آلاف وثيقة تهم اقليم بيكارديا (la Picardie) وتغطي القرنين الحادي عشر والثاني عشر[3]. في حين أحصى أندري شيدڤيي (André Chédeville) قرابة ألفي وثيقة تخص إقليم شارتر (Chartres) خلال الفترة ذاتها[4].

كما أنها تمتاز بكونها أقل أهمية من وجهة نظر ديموغرافية، مقارنة مع بعض المصادر الأنجليزية التي تعود للقرن الحادي عشر، مثل كتاب "يوم الحساب"، المعروف "بالدمسديي بوك" (le Domesday Book)، الذي يعتبر ذخيرة بالنسبة للباحث لما يقدمه من معطيات ديموغرافية جاهزة[5]. وفي غالة، لم تظهر المصنفات التي تحفل نسبيا بالمعطيات الديموغرافية الا قبيل منصف القرن الثالث عشر. ممثلة في السجلات التي تتضمن أسماء الفلاحين الملزمين بأداء ضريبة سنوية تعرف باسم "le cens"، والسجلات التي تتضمن جردا بممتلكات أفراد الأرستقراطية. وتعرف باسم "les terriers".

---

[3] - أنظر مقدمة أطروحته التي نشرها سنة 1958 تحت عنوان :
La terre et les hommes en Picardie jusqu’au XIIIe siècle, Paris, B. Nauvelaerts.

[4] - أنظر أيضا مقدمة أطروحته حول "شارتر وبواديها" :
Chartres et ses campagnes : XIe-XIIIe siècles, Paris, Klinksieck, 1974.

[5] - يعتبر هذا الكتاب في الأصل، تقريرا مفصلا أمر الملك الأنجليزي غليوم الفاتح (Guillaume le Conquérant) القيام به لحصر موارد مملكته، المادية والبشرية، استعدادا لرد هجوم كان يعتزم ملك الدانمارك القيام به ضد أنجلترا. وقد قام موظفو الملك بجولات في معظم أقاليم أنجلترا بين سنتي 1085 و1087، قاموا خلالها بعمليات جرد لكل الموارد، وتعداد السكان. وضمنوا ما قاموا به في التقرير المذكور، فجاء حافلا بالأرقام والمعطيات الديموغرافية.

وعموما، انطلق ثلة من الباحثين الفرنسيين من المصادر الخطية الإقليمية، ومن الاستنتاجات التي توصل إليها علماء الآثار[6]. واستطاعوا تقديم بعض الخلاصات، واقتراح بعض الأرقام، حول عدد السكان، ووتيرة النمو، ومعدل الأعمار، وأمد الحياة، وبنية الأسر، وحركات الأفراد في الأقاليم التي شكل كل واحد منها اطارا جغرافيا لأبحاثهم، كإقليمي بيكارديا وشارتر السالفي الذكر، وإقليم بيري (le Berry)[7]، واقليم اللانگدوك (le Languedoc)[8].

والملاحظ أن اهتمام الباحثين الفرنسيين ظل منحصرا لزمن طويل في حدود الأقاليم التي شكلت مجالات جغرافية لأبحاثهم. في حين أن غالة، كوحدة جغرافية، لم تحظ بعنايتهم، الا منذ أواخر ثمانينيات القرن الماضي. لذلك فإن كثيرا من التساؤلات التي تهم طبيعة الوضعية الديموغرافية في غالة (ككل)، نجد أجوبة عنها في كتابات باحثين غير فرنسيين كما سيتضح ذلك في سياق الفقرات الموالية.

أولا: الوضعية الديموغرافية: فرضيات وأرقام

رغم السلبيات التي تتميز بها المصادر الخطية في غالة كما أوضحنا من قبل، فإنها تفصح عن حقيقة مفادها أن عدد السكان ارتفع في مختلف الأقاليم بعد سنة 1000. وهذا ما عبر عنه هنري دوبوا

---

[6] - يجب أن نذكر في هذا المقام، بأن البحث الأثري قدم خدمات جلة للبحث الديموغرافي، من خلال ما تم الكشف عنه من بقايا مساكن وكنائس ومقابر وغيرها، لضبط الكثير من المعطيات الديموغرافية كعدد الأفراد الذين كانوا يقطنون في المسكن الواحد، أو عدد الأفراد الذين كانوا يرتادون إحدى الكنائس، أو عدد الأفراد المستقرين بإحدى القرى أو الأبرشيات.

[7] - شكل هذا الإقليم مجالا لمنوغرافية أنجزها گي دوڤايي (Guy Devailly) تحت عنوان :
Le Berry du Xe siècle au milieu du XIIIe : Etude politique, religieuse, sociale et économique, Paris, La Haye, Mouton, 1973.

[8] - Monique Gramin, Villages et communautés villageoises en Languedoc du Xe au XIIIe siècles : L’exemple du Biterrois,….

(Henri Dubois) بالقول: "إن تزايد السكان ابتداء من سنة 1000، يعنى أن الولادات حققت نصرا على الوفيات"[9].

وقد واكب هذا التزايد، ارتفاع في عدد المنشآت العمرانية، حسبما يتضح من بعض مصنفات الفترة. ومن بينها مثلا أحد سجلات دير اراس (Arras)[10]. الذي ورد فيه حديث عن تشييد عدد من المنشآت الدينية في مدينة أراس منذ منتصف القرن الثاني عشر. ويفيد بأن عدد الكنائس بلغ إحدى عشر كنيسة سنة 1161. وانضافت اليها الكتدرائية الكبرى التي تم تشييدها خلال السنة المذكورة.

ويؤكد جون ليستوكوا (Jean Lestoquoy) الذي خص النمو الحضري بهذه المدينة بمقال مطول[11]، أن "النواة الحضرية القديمة في المدينة بلغت مستوى متقدما من التوسع عند سنة 1110"[12] بفعل التزايد السكاني الذي ابتدأ منذ سنة 1000[13]. وساهم في هذا التزايد أيضا التوافد على المدينة من الأرياف المجاورة.

وتفيد نماذج أخرى من المصادر، متمثلة في المواثيق (les chartes)، أن عددا مهما من عامة الأرياف، شرعوا في القيام بعمليات استصلاح للأراضي المحاذية لقراهم. وتزكي حقيقة هذه العمليات الخرائط الطوبوغرافية التي تتضمن كلمات كثيرة من قبيل "essart" (قطعة أرض استصلحت حديثا) و"usclat"

---

[9] - أنظر مداخلته الموسومة ب: " L'essor médiéval. Le premier monde plein"، صمن المؤلف الجماعي الذي صدر تحت إشراف جون بيير باردي (Jean-Pierre Bardet) وجاك دوباكيي (Jacques Dupâquier):

Histoire des populations européennes. Tome I, des origines aux prémices de la révolution démographique , Paris, Fayard, 1997, p. 235.

[10] - يتعلق الأمر بسجل وضعه راهب يدعى گيمان (Guimann) أو ويمان (Wimann) بعد سنة 1170 :

Cartulaire de l'abbaye Saint-Vaast d'Arras, publié par le chanoine Van Drival, Arras, A. Courtin Imprimeur, 1875.

[11] -"Etapes du développement urbain d'Arras", Revue Belge de philologie et d'histoire, vol. 23, No 23, 1944, pp.163-185.

[12] - نفسه، ص. 177.

[13] - نفسه، ص. 175.

و"bouzigue" (أرض تم اضرام النيران بغطائها النباتي قصد استثمارها). ومعنى ذلك أن القرى أصبحت آهلة بالسكان. فعمدوا الى الفضاءات المحاذية لقراهم، والتي كانت تكسوها أشجار. قاموا باجتثاثها لاستثمار تلك الفضاءات. كما حدث مثلا في الحوض الباريزي، بأعالي نهر السين. حيث قام عدد من الفلاحين بتشييد قرية جديدة واستصلاح الأراضي المحيطة بها تحت إشراف الراهب سوجر (Suger)[14].

ورغم أن حقيقة النمو المشار اليه هي موضوع إجماع الباحثين الفرنسيين منذ سنوات، فإنهم ظلوا حبيسي المنوغرافيات الإقليمية كما ذكرنا. وتركوا زمام المبادرة لباحثين أمريكيين وأنجليز وألمان. انطلقوا منذ خمسينيات القرن الماضي من مصنفات تهم غالة، ومن مصنفات الكيانات السياسية الأخرى، وأكدوا حدوث التزايد السكاني في غالة وفي غيرها. وأجمعوا بأنه تم بشكل تدريجي بين سنتي 950 و1300. وتوقف نسبيا بين هذه السنة وبداية انتشار الطاعون الأسود. ثم حدث تراجع مهول بعده.

والأهم من ذلك، أنهم حاولوا تجاوز العوائق التي تطرحها النصوص الخطية. وترجموا التزايد على شكل فرضيات ومعطيات رقمية توضح من الوهلة الأولى أن النمو كان هائلا، مقارنة مع القرون السابقة، وإن كان متفاوتا من حيث كرونولوجيته ووتيرته بين تلك الكيانات، وكذلك بين أقاليم الكيان الواحد.

---

[14] - كان راهبا (أب Abbé) مشرفا على دير سان-دوني (Saint-Denis) بين سنتي 1122 و1151 (تاريخ وفاته). اشتهر بحسن إدارته، وبقيمة المؤلفات التي وضعها. وإليه يعزى الفضل في نشأة القرية المشار اليها في المتن، وتسمى ڤوكرسون. وتعد اليوم من بين أهم "كمونات" (les communes) ضواحي باريس.
تحدث سوجر عن عملية تشييد القرية في كتابه :
Liber de rebus in administratione sua gestis, in Les œuvres complètes de Suger recue-illies, annotées et publiées par A. Lecoy De La Marche, Paris, Editions Jules Renouard, 1867, chapitre X, pp.164-167.

وهكذا اقترح الباحث الأمريكي كارل بنيت (Karl Bennett) في دراسة نشرها سنة 1954[15] أن عدد سكان غالة كان يبلغ 6 ملايين نسمة سنة 1000. ثم ارتفع هذا العدد الى 12 مليون نسمة سنة 1200. وقفز الى 18 مليون نسمة سنة 1300. بمعنى أن العدد تضاعف ثلاث مرات بين سنتي 1000 و1300 [16].

أما الباحث الأمريكي جوزيا كوكس راسل (Josiah Cox Russell)[17]، فاقترح في بحث نشره سنة 1958، أن عدد سكان غالة كان يبلغ 5 مليون نسمة في أواسط القرن العاشر. ثم ارتفع الى 6.2 ملايين نسمة حوالي سنة 1100[18]. وتواصل ارالارتفاع. ليصل عدد السكان الى 17.6 مليون نسمة سنة 1346. ورأى أن عدد سكان أنجلترا كان يبلغ مليون وثلاثمائة ألف نسمة حوالي سنة 1086. ثم ارتفع هذا العدد الى 3.7 سنة 1346[19].

وتحفظ الباحث الألماني ڤيلهام آبل (Wilhem Abel) على الأرقام المقترحة. وأقر بأن منحنى السكان اتجه نحو الارتفاع. ولكن ليس وفق الايقاع الذي اقترحه الباحثون السابقون. إذ ذهب الى الاعتقاد أن عدد سكان غالة كان يتجاوز قليلا 4 ملايين نسمة سنة 1000. ثم ارتفع الى 6.2 ملايين نسمة سنة 1100. وأصبح العدد الإجمالي 9.2 ملايين نسمة سنة 1200. بينما لم يتجاوز العدد في جارتها أنجلترا المليون نسمة سنة 1000. ويعتقد أن وتيرة النمو بها كانت أقل مما كانت عليه في غالة، حيث لم يتجاوز عدد السكان 1.3

---

[15] - Karl Bennett, The world's food, New York, Harper and Brothers, 1954.

[16] - Ibid, p.

[17] -"Late, ancient and medieval population",Transactions of the American Philosophical Society, vol.48, No 3,1958, pp. 1-452.

[18] - نفسه، ص. 30.

[19] - نفسه، ص. 30.

مليون نسمة حوالي سنة 1086، و1.9 مليون نسمة سنة 1200[20].
ويرى الباحث ذاته أن متوسط نسبة النمو خلال السنة بلغ 0.39 في المائة بالنسبة لغالة، و0.46 في المائة بالنسبة لأنجلترا، و0.48 بالنسبة لألمانيا[21].

وتوقف الباحث الفرنسي ڭي بوا قليلا عند المسألة في أطروحته الصادرة سنة 1976. واتفق مع من سبقه من باحثين بأن النمو كان هائلا في كافة مناطق غالة. واقترح بأن عدد السكان تزايد بنسبة 50 بالمائة بين سنتي 1000 و1300. ورأى أن هذا التزايد جاء نتيجة نمو تدريجي بدأ منذ مطلع القرن التاسع[22].

وعاد زميله ألان دورڤيبى(Alain Derville) لإثارة المسألة في مقال مطول نشره سنة 1998[23]. فرأى بدوره أن التزايد كان هائلا. واقترح بأن نسبة النمو السنوي بلغت 0.5 في المائة [24]. وهي نسبة جعلت عدد السكان يتضاعف أكثر من سبع مرات بين سنتي 900 و1300. وأثار انتباه القارئ بأن الأمر يتعلق بنسبة كبيرة للغاية، على اعتبار أن نسبة النمو السنوي في فرنسا لم تتجاوز 0.7 بالمائة خلال سنة 1976 وفق الإحصاء الذي أنجز في تلك السنة. ولم تكن تلك النسبة تتجاوز 4 بالمائة في بعض أقطار افريقيا جنوب الصحراء خلال السنة ذاتها[25].

ولا نحتاج الى التأكيد بأن الأرقام المقترحة تكتسي أهمية بالغة، ومع ذلك، فإن إمكانية الاطمئنان اليها تبقى محدودة لاعتبارين أساسيين:

---

[20] – Wilhem Abel, Agricultural fluctuations in Europe from thirtienth to the twentieth centuries, trad. Anglaise par Olive Ordish, London and New York, Methuen and St. Martin's Press, 1980, pp. 21..

[21] - نفسه، ص. 22.

[22] - Crise du féodalisme, Op. Cit. , p. 165.

[23] - La population du Nord au Moyen Age I : avant 1384" , Revue du Nord, 1998, p.p. 501-530.

[24] - Ibid, p. 509.

[25] - Ibid.

أولهما الاختلاف القائم بينها. لكون الباحثين الذين اقترحوها كانوا مضطرين للعودة للمصادر الخطية التي أشرنا اليها. وهي مصادر لا يمكن الاطمئنان كليا الى المعطيات الرقمية القليلة التي تتضمنها. كما أن واضعي تلك المصادر لا يشيرون، في معظم الأحيان، الى فئات مهمة من المجتمع. ونعني بها الإناث الغير متزوجات والأطفال.

وثانيهما، لأنها لا تتضمن معطيات تسمح بتكوين فكرة عن الايقاع، أو الوتيرة، التي كان يتم على أساسها تجدد الأجيال (le rythme de renouvellement des générations). ولا تخفى أهمية هذا العنصر في عملية النمو السكاني في اطار المدى البعيد.

ومن المعلوم أن وتيرة تجدد السكان يتحكم فيها عنصر آخر هو خصوبة الأسر(la fécondité des ménages)، التي اعتمد الباحثون عند تناولها على كتب الأنساب في المقام الأول. ومن المعلوم أن هذا الصنف من المصادر الخطية لا يهتم الا بالأسر الحاكمة والأسر الأرستقراطية. ومعنى ذلك أن كتب الأنساب لا تهم أعدادا كبيرة من الأسر المتواضعة التي كانت تنتمي لطبقة عامة الناس. وفضلا عن ذلك، فإن خاصية الخصوبة لم تكن تتمتع بها جميع الأسر[26]، إما بسبب عقم الزوج أو الزوجة، أو كلاهما، أو بسبب وفاة ما كانا ينجبانه من أطفال. وما زالت هذه الظاهرة مطروحة اليوم في فرنسا، وفي غيرها من أقطار غرب أوربا. ولذلك توجد عدة أسر لا تتوفر على أطفال.

وانطلاقا من هذه الاعتبارات، ومن غيرها، أخذ معظم الباحثين يعتقدون منذ خمسينيات القرن الماضي، بأن متوسط عدد أطفال

---

[26] - يمكن العودة بهذا الخصوص الى كتاب :

Jensen N. Faaborg, Les enfants dans la littérature française du Moyen Age, Copenhague, Stougaard Jensen, 1999, p.28.

الأسرة الغالية لم يكن يتجاوز أربعة أطفال خلال العصر الوسيط الأوسط. ويعتبر هذا المعدل مرتفعا مقارنة مع المعدل الذي اقترحه فردناند لوط (Ferdinand Lot) بخصوص القرن التاسع للميلاد. وقد جعله متراوحا بين 2.7 و3 أطفال عن كل أسرة خصيبة كما وضح ذلك في مقال مطول نشره سنة1921[27].

ومن المفيد التذكير بأن معدل أربعة أطفال، لم يكن عاما في سائر أقاليم غالة. اذ اقترح روبير فوصيي أن متوسط عدد أطفال الأسر في اقليم بيكارديا بلغ 3.5 بين سنتي 1000 و1025. بينما بلغ 5 بين سنتي 1075 و1100[28]. فأضحى الإقليم مكتظا بالسكان الذين كاد عددهم أن يصل عتبة المليون نسمة سنة 1328. بينما لم يتجاوز عددهم 850 000 نسمة سنة 1964[29]. ويرى أندري شيدڤيي أن متوسط عدد أطفال الأسر في اقليم شارتر بلغ 4.2[30].

ومهما يكن من أمر، فإن أهم ما يمكن استخلاصه من الأرقام المقترحة، هو أن معدل الخصوبة أخذ يتحسن بعد مطلع القرن الحادي عشر. إذ أخذ عدد من الشباب الذكور والإناث يقبلون على الزواج وعلى الإنجاب. كما أن الأسر القادرة على الإنجاب أخذت تنجب أكثر. ومعنى ذلك أن الظرفية الديموغرافية أخذت هي الأخرى في التحسن في ضوء المتغيرات التي بدأت تشهدها غالة، وباقي ممالك غرب أوربا منذ سنة 1000. فقد تراجع معدل البرودة نسبيا، واستقرت الأوضاع الأمنية الى حد ما بعد نهاية مرحلة الغزو الخارجي. وبدأ الاقتصاد ينتقل من مرحلة الكفاف الى مرحلة الاقلاع. فانتقل المجتمع بدوره من مرحلة كان يلاقي فيها صعوبات في اشباع حاجياته الى مرحلة حقق فيها الاكتفاء ابتداء من حوالي

---

[27] -"Conjecture démographique sur la France du Ixe siècle", Le Moyen Age, tome XVIII, 1921, p.29.
[28] - Robert Fossier, La terre et les hommes…, Op. Cit., tome I, p. 284.
[29] - Ibid., tome I, p. 278.
[30] - André Chedeville, Chartre et ses campagne, Op. Cit., p.94.

سنة 950. ثم انتقل بعد مطلع القرن الثاني عشر الى مرحلة تجاوز فيها مستوى الكفاف.

ثانيا: الوضعية الديموغرافية: مظاهر وتجليات

تراجعت اذن الحواجز المختلفة التي ظلت تحاصر النمو الديموغرافي حتى حدود مطلع القرن الحادي عشر. وبذلك بدأ التزايد السكاني الذي تواصل بشكل مطرد حتى سنة 1348، حيث تفشى في مملكة غالة، وفي باقي ممالك غرب أوربا، الطاعون الأسود الذي ترتبت عنه خسائر بشرية فادحة. جعلت گي بوا ينعت ما أفضى اليه في نورماندیا الشرقية "بهيروشيما القرن الرابع عشر"[31].

ويبدو أن الحروب داخل غالة وخارجها، والانتفاضات الاجتماعية، والوفيات الطبيعية، وبعض المجاعات التي حدثت بين سنتي 1000 و1348، لم تعمل على الحد من ذلك التزايد. وتدل عدة مؤشرات على أن القرى القديمة أخذت تشهد اكتظاظا تواصل حتى بداية انتشار الطاعون الأسود. فالقرى الواقعة في المناطق التي كانت مستوطنة منذ أقدم العصور، كالحوض الباريزي أو إقليم بيكارديا، أخذت تشهد، منذ حوالي سنة 1000 حركة بناء وتشييد نشيطة لاستيعاب الأعداد المتزايدة من السكان. وتتضمن كتب الإخباريات فيضا من المعلومات حول مظاهر هذه الحركة، وإن ركز واضعوها على عمليات تشييد المنشآت الدينية[32].

---

[31] - نعني هنا گي بوا (Guy Bois) الذي أورد العبارة في كتابه :
Crise du féodalisme, Op. cit. ,, p. 299.

[32] - يذكر راوول كلابير (Raoul Glaber)، أحد اولائك الإخباريين، أن المسيحيين، في غالة وفي ايطاليا، شرعوا، بعد سنة 1003، في القيام بعمليات ترميم للمؤسسات الدينية القديمة، وتشييد مؤسسات جديدة، في سياق من التنافس. الكل يسعى الى تشييد الأفضل. يمكن العودة في هذا الشأن الى تواريخه التي تحمل عنوان :
Histoires, éd. Et trad. Maurice Guizot, Collection des mémoires relatifs à l'histoire de France, Paris, J-L-J. Brière Libraire, 1824, livre III, chap., 4, p. 252.

وإذا كانت ظاهرة الاكتظاظ طبيعية في هذه القرى، لأن كثافتها السكانية كانت مرتفعة منذ مطلع القرن التاسع الذي حدث فيه تزايد نسبي في عدد السكان، فإنها تعتبر حدثا جديدا في القرى التي كانت قليلة السكان حتى حدود سنة 1000. ويمدنا جورج دوبي بمثال في هذا الشأن، يفيد بأن عدد الأسر المستقرة في قرى اقليم بروڤونس تضاعف بين سنتي 1000 و1300[33]. ويبدو أن القرى الواقعة باقليم ماكوني (le Maconnais) شهدت بدورها الظاهرة ذاتها. اذ يقدم جورج دوبي، استنادا الى وثائق وسجلات دير كلوني، مؤشرا آخر عن تلك الزيادة السكانية يتمثل في ارتفاع عدد المستضعفين والمعوزين الذين كانوا يستفيدون من الصدقات التي كانت تمنحها هذه المؤسسة الدينية. فقد أصبح المسؤولون عنها يذبحون 250 خنزيرا كل سنة، عند بداية الصوم الكبير (le Caréme). ويوزعون لحومها على 000 16 فرد من أولائك المستضعفين والمعوزين[34].

وتشترك معظم القرى القديمة في كونها أخذت تشهد حركة دائبة نتيجة الاكتظاظ. تمثلت في عملية توسعة المنشآت الدينية، أو إقامة منشآت جديدة كما أشرنا الى ذلك فيما مضى. كما تمثلت في عمليات بيع وشراء واستبدال قطع أرض تقع في هوامش المجال المستثمر في تلك القرى.

والأكثر من ذلك، هو أنها شرعت في القيام بعملية "تصدير" أعداد من سكانها الذين أخذوا ينزحون، فرادى وجماعات، الى مناطق مجاورة لقراهم، أو نائية عنها، فيما يشبه حركة اكتساح للأراضي الغير مستثمرة، التي كانت تغطيها الأشجار. فأضحت الأراضي

---

[33] - أنظر كتابه l'économie rurale الذي أحلنا عليه في هامش سابق، الجزء الأول، ص. 218.

[34] - نفس المرجع، الجزء الأول، ص. 222.

الجديدة التي اختيرت للاستقرار هدفا لعمليات استصلاح. فتمت تهيئتها، وجففت المستنقعات الموجودة في بعضها.

ويفيدنا رولان سانفاسون (Roland Sanfaçon)، الذي خص الظاهرة في إقليم بواتو (Poitou) ببحث مستفيض[35]، أن عمليات الاستصلاح استهدفت مساحات شاسعة في الجهات العليا من الإقليم. ويبدي تعجبه من عزيمة الفلاحين الذين حاولوا قهر الطبيعة في هذه الجهات الوعرة التي لا زالت الغابة تكسو بعض أجزائها الى اليوم[36].

وكان من تبعات عمليات الاستصلاح، تراجع ظاهرة الرعي الحر للقطعان في أطراف الغابة. فأصبح الفلاحون يضعون ما يملكونه من قطعان في إصطبلات أو في زرائب خلال الفصل المطير. ويوفرون لها ما يلزم من الكلا. وبعد موسم الحصاد، يتركونها ترعى طليقة في المساحات التي كانت مزروعة بالحبوب. ويمثل هذا الأسلوب شيئا جديدا. لم يكن مألوفا في إقليم بواتو حسب الباحث.

وعلى كل، فإن معظم الأراضي التي تم استصلاحها، في اقليم بواتو، أو في الأقاليم الأخرى، كانت تكسوها الأشجار التي تعرضت للاجتثاث. وبذلك تقلصت المساحات الغابوية. ويذهب أحد الباحثين في هذا الصدد الى التأكيد بأن حركة الاستصلاح المشار اليها أسفرت عن افتطاع مساحة قدرها 13 مليون هكتار من أصل 26 مليون هكتار كانت تغطيها الغابة قبيل سنة 1000 [37]. فأخذت تنتفي صفة

[35] - Roland Sanfaçon, Défrichements, peuplement et institutions seigneuriales en Haut Poitou, Laval,, Presses Universitaires de Laval, 1967.

[36] - Ibid. , p. 63.

[37] - Louis Badré, Histoire de la forêt française, Paris, Arthaud, 1983, p. 27.

لا بأس من الاشارة في هذا الصدد أن ظاهرة تقلص الغطاء الغابوي لم تكن حكرا على غالة وحدها، بل شهدتها مختلف ممالك غرب أوربا. ففي ايطاليا على سبيل المثال، يفيدنا جيرار ريب (Gérard Rippe) أن الغابة المحاذية لبادو (Padoue) كانت حتى حدود القرن الثامن تساهم في تسمين 4000 رأس من الخنازير. وبعد عمليات الاستصلاح التي استهدفت تلك الغابة في وقت مبكر نسبيا، لم تعد بعد مطلع القرن العاشر تساهم سوى في تسمين نصف ذلك

"المجال المشعر" التي كانت تحضر في الأذهان عند النطق باسم غالة.

ومهما يكن من أمر، فبهذه المناطق المستصلحة أقام المهاجرون مختلف المرافق الضرورية للحياة. فغدت مراكز استيطان واستقرار جديدة. والجدير بالذكر أن دور الفلاحين وأفراد الأرستقراطية فيما يتعلق بعمليات الاستصلاح ونشأة القرى الجديدة كان متفاوتا بين منطقة وأخرى. ففي بعض المناطق كان دور الفلاحين حاسما. وفي مناطق أخرى برز دور أفراد الأرستقراطية. ويوضح رولان سنفاسون في هذا الصدد أن فلاحي إقليم بواتو هم الذين أخذوا المبادرة في بادئ الأمر. ولكن سرعان ما انضم أفراد الأرستقراطية اللائكية للعملية[38].

والراجح، أن هؤلاء كانوا يعارضون في بداية الأمر عمليات استصلاح الأراضي وتشييد مرافق جديدة بها. لأنهم رأوا أنها ستعمل على تقليص المساحات الغابوية التي كانت بالنسبة لهم مجالا للقنص والنزهة. ثم أخذوا يشجعون تلك العمليات حين اقتنعوا بأنها ستعود عليهم بفوائد مادية. وانتقلوا، في مرحلة ثالثة، من التشجيع الى الإشراف المباشر عليها. لأنها أضحت مصدرا جديدا للدخل بالنسبة لهم. على اعتبار أن الفلاحين المستقرين بالقرى الجديدة كانوا ملزمين، كما هو الشأن في القرى القديمة، بتقديم ضرائب ومكوس وغيرها من الالتزامات النقدية والعينية. وفضلا عن ذلك، ففي العديد من الحالات، أقيمت المستوطنات الجديدة في مناطق اختيرت بعناية لتكون بمثابة حاميات، أو مراكز حراسة، لبعض الأسواق أو لبعض

العدد الذي استمر في التراجع، لأن المساحات المستصلحة اتسعت. واضحت مزروعة بالحبوب والبقول وغيرها. ولم تعد كما كانت في الماضي فضاءات للرعي.
أنظر الفصل الثاني من مؤلفه:
Padoue et son cantado (Xe-XIIIe siècle), Rome, Biblothèques des Ecoles françaises d’Athènes et de Rome, 2003.

[38] - Ibid. p.322.

الطرق التجارية. ولا بأس من التذكير في هذا الإطار، بأن المؤسسات الدينية، كالأديرة والموناستيرات والطوائف الدينية، لم تتخلف هي الأخرى عن عمليات الاستصلاح، اذ ساهمت في تفعيلها بواسطة الرهبان الذين شاركوا في العمليات المذكورة بشكل مباشر، أو من خلال وضع قطع من الأرض (كانت مساحتها تتعدى أحيانا المائتي هكتار) رهن إشارة مجموعة من الفلاحين. كانوا ينشئون بها مرافق استقرار. ويقومون بتهيئة المساحات الصالحة منها للزراعة ويستثمرونها على أساس تقديم بعض الإتاوات النقدية والعينية، وخاصة منها ما يعرف بالعشور (la dîme)، في حين تقوم تلك المؤسسات من جانبها بتوفير الأمن لهم.

ويذكر الباحث أميدي فرانسوا طالاما (Amédée François Thalamas) في هذا الصدد أن رجال الدين المسؤولين عن دير سان- دوني أشاعوا في أوساط الفلاحين أنهم يلتزمون باستقبال وحماية كل من أراد الاستقرار بالمستوطنة التي كانوا يعتزمون إنشاءها بمنطقة البوربوني (le Bourbonnais) سنة 1065، كيفما كانت وضعية الراغب في الاستقرار "سارقا" أم "قنا آبقا" (أي هاربا من إحدى القرى)[39].

وعلى كل، فإذا كانت ظاهرة إقامة القرى الجديدة، التي واكبت عمليات الاستصلاح الكبرى، قد غيرت كثيرا من معالم الريف الفرنسي، فتعتبر بحق مؤشرا هاما ومظهرا بارزا للنمو الديموغرافي الذي شهدته غالة منذ مطلع القرن الحادي عشر حتى بداية انتشار الطاعون الأسود. كما أنها تعتبر أحد أهم أوجه حركية المجتمع خلال تلك الفترة التاريخية.

[39] - Amédée François Thalamas, La société seigneuriale française (1050-1270), Paris, Librairie Marcel Rivière et Cie., 1951, p. 46.

المبحث الرابع: الهجرات القسرية لعلماء قرطبة عند مطلع القرن الخامس الهجري من خلال كتاب الصلة لابن يشكوال

توصف الهجرات بكونها تحركات في المجال يقوم بها فرد أو ثلة من الأفراد. وقد تقوم بها مجموعة بشرية خلال فترة زمنية محدودة أو خلال فترات. وتتم بين نقطة وأخرى داخل حدود كيان سياسي معين. وقد تتم خارج حدود هذا الكيان.

وتعتبر من وجهة نظر البحث العلمي من بين المواضيع التي يشترك في الاهتمام بدراستها الباحثون في مختلف حقول المعرفة، ومن بينهم الديموغرافي والمؤرخ والمهتم بالديموغرافيا التاريخية.

فالأول يتعامل معها كظاهرة ديموغرافية تندرج ضمن الظواهر الأخرى كالولادات والوفيات والخصوبة. وقد يوليها في بعض الحالات أهمية قصوى لأنها، مثل ظاهرتي الولادات والوفيات، تؤثر في العدد الإجمالي لسكان الكيان المعني بها سواء تمت منه أو إليه. كما تؤثر في تركيبته السكانية من حيث الأعمار والأجناس (الذكور والإناث) ومن حيث الأنشطة السوسيو- مهنية[1].

ويعتمد الديموغرفي لدراستها، من حيث الكم والكيف، على التصاريح التي يضعها الأفراد لدى المصالح المختصة بعد تغيير مراكز الإقامة، حين يتعلق الأمر بالهجرات الداخلية، وإلى القوائم التي يضعها موظفو مراكز الحدود ومصالح الهجرة فيما يتعلق بالهجرات الخارجية. وغالبا ما يلجأ إلى سجلات عمليات الإحصاء العامة للسكان لتكون الدراسة علمية أكثر.

---

[1] - Georges Tapinos, Eléments de démographie. Analyse, déterminants socio-économiques et histoire des populations, Paris, A. Colin, 1985, pp. 154-155.

والثاني يتعامل معها كحدث تاريخي شهدته معظم المجتمعات البشرية. وقد يتوقف مليا عند بعض الهجرات الفردية أو الجماعية التي اكتسبت بعدا تاريخيا هاما وحددت المسيرة التاريخية والحضارية لبعض المجتمعات، كما هو الشأن مثلا بالنسبة لهجرة الرسول صلى الله عليه وسلم من مكة إلى المدينة، أو هجرة بطون من القبائل العربية ومن القبائل البربرية إلى الأندلس، أو هجرة عرب بني هلال وبني سليم من صعيد مصر إلى إفريقية.

أما المهتم بالديموغرافيا التاريخية فيتناولها كظاهرة وكحدث حصلا في الزمن الماضي. ومن ثم يسعى إلى دراستها من وجهة نظر ديموغرافية، ولكن في سياق الظروف التاريخية التي أحاطت بها.

ويشترك المهتم بالديموغرافيا التاريخية مع المؤرخ في اعتماد مختلف شواهد الماضي لدراسة نموذج أو نماذج من الهجرات الفردية أو الجماعية.

وقد ارتأينا في هذا البحث تبني وجهة نظر المهتم بالديموغرافيا التاريخية لدراسة الهجرات التي **اضطر** للقيام بها بعض علماء قرطبة عند مطلع القرن الخامس الهجري من خلال كتاب الصلة لابن بشكوال.

وإذا كانت علاقة موضوع العرض بالديموغرافيا علاقة وثيقة، على اعتبار أن الهجرات ظاهرة ديموغرافية كما أوضحنا ذلك من قبل، فإن علاقة النص المعتمد بالديموغرافيا لا تطرح إشكالا في نظرنا. ونعتبرها مشروعة لأن كتاب الصلة يتضمن معطيات عن هجرات فئة من المجتمع، وردت تلك المعطيات في سياق التعريف بهم.

ولا بأس أن نوضح في ضوء هذه الإشارة بأن كتاب الصلة يندرج ضمن المصنفات المعروفة بكتب التراجم. وضعه أبو القاسم خلف بن عبد الملك بن مسعود بن موسى بن بشكوال الخزرجي

الأنصاري[2]. المتوفى سنة 578هـ/ 1183م. كتكملة لكتاب "تاريخ علماء الأندلس"[3]؛ الذي ألفه أبو الوليد عبد الله بن محمد بن يوسف بن نص الأزدي المعروف بابن الفرضي والمتوفى سنة 403 هـ/ 1013 م.

وقد وضع ابن بشكوال مصنفه على منوال ابن الفرضي. حيث عرف فيه بثلاثة وسبعين وخمسمائة وألف (1573) عالم وفقيه. من بينهم أكثر قليلا[4] من مائة توفوا بين سنتي 350 و399 هجرية. لم يرد ذكرهم في كتاب علماء الأندلس. وحوالي أربعين(40) توفوا سنة 400 هجرية. وأكثر قليلا من أربعمائة وألف (1400) عاشوا خلال الفترة المتراوحة بين سنتي 401. و563 هجرية (1011 - 1108 م.). وهم الذين تشكل ترجمتهم معظم مادة الأجزاء الثلاث[5] التي يتألف منها الكتاب.

رتب ابن بشكوال العلماء والفقهاء الذين عرف بهم انطلاقا من أسمائهم على حسب ترتيب حروف المعجم. ورتب العلماء والفقهاء المدرجة أسماؤهم تحت كل حرف حسب تقادم وفياتهم. فقيد الاسم الكامل لكل واحد منهم ونسبه مرفوعا إلى إحدى القبائل أو البطون التي ينحدر منها. وذكر المدينة أو البلدة التي ينتسب إليها أو التي سكنها. كما تحدث عن مجالات اجتهاد أولائك العلماء والفقهاء. وأورد أسماء شيوخهم وتلامذتهم وعناوين مؤلفاتهم. وساق أخبارا، كثيرة أحيانا أو قليلة في أحايين أخرى، عن سيرة كل واحد منهم في حياته الخاصة أو العامة. فتضمنت معلومات عن رحلاتهم وعن

---

[2] - للاطلاع على ترجمته الوافية نحيل القارئ على مقدمة النسخة التي حققها إبراهيم الأبياري؛ والتي صدرت عن دار الكتاب المصري (القاهرة) ودار الكتاب اللبناني (بيروت) سنة 1989 في ثلاثة أجزاء.

[3] - قام بتحقيقه لأول مرة المستشرق الاسباني فرنسسكو كوديرا ونشره بمدريد سنة 1831. وقد تلت هذا التحقيق عدة تحقيقات و نشرات من بينها تحقيق إبراهيم الأبياري الصادر عن دار الكتاب المصري بالقاهرة و دار الكتاب اللبناني ببيروت سنة 1980 في جزأين.

[4] - استعملنا هذه العبارة لأن ابن بشكوال لم يذكر تواريخ وفاة بعض المترجم لهم.

[5] - نعتمد في هذا البحث على النسخة التي حققها إبراهيم الأبياري، والتي أحلنا عليها في الهامش الثاني.

هجرات قسرية قام بها عدد منهم. وهؤلاء هم الذين يهمنا أمرهم في هذا البحث.

- أولا: من هم العلماء الذين قاموا بتلك الهجرات؟
- ثانيا: هل كانت هجراتهم فردية أم كانت جماعية؟
- ثالثا: هل قام بها كل واحد منهم بمفرده أم بمعية أفراد أسرته؟
- رابعا: هل كانت هجراتهم مؤقتة أم كانت نهائية؟
- خامسا: ما مقدار المسافة الفاصلة بين قرطبة وبين المراكز التي انتقلوا إليها؟
- سادسا: ما هي أسباب ودواعي تلك الهجرات؟

تلك هي أهم الأسئلة التي سنحاول الإجابة عنها.[6]

تتضمن الأجزاء الثلاثة التي يتألف منها الكتاب ستا وتسعين وثلاثمائة (396) ترجمة لعلماء وفقهاء كانوا أحياء سنة 400 ه. ينعت ابن بشكوال كل واحد منهم بكونه "من أهل قرطبة" أو "سكن قرطبة". اضطر واحد وعشرون (21) منهم للجلاء عن هذه الحاضرة بين سنتي 400 و422 هجرية. وأسماؤهم حسب تسلسل تراجم الكتاب هي[7]:

1- -أبو العباس أحمد بن قاسم بن عيسى بن فرج بن عيسى اللخمي الاقليشي، من سكان قرطبة. ولد سنة 363 ه. وتوفي سنة 410 ه. (الجزء الأول، ترجمة رقم 60، ص. 65.)

---

[6] - نشير إلى أننا استلهمنا بعض هذه الأسئلة من دراسة :
Bernard Mumpassi Lututala, "Les migrations africaines dans le contexte socio-économique actuel, une revue critique des modèles explicatifs", in La sociologie des populations, livre dirigé par Hubert Gérard et Victor Piché, Montréal , Presses de l'Université de Montréal, 1995, pp.391-416.

[7] - تفاديا لأي التباس، لم نسجل في هذه اللائحة سوى أسماء العلماء الذين يربط ابن يشكوال خروجهم من قرطبة بالفتنة التي اندلعت ابتداء من شوال 399 هجرية.

2- أبو عمر أحمد بن مطرف، المعروف بابن الحطاب، من أهل قرطبة. لم يرد ذكر تاريخ ولادته. توفي سنة 410 ه. (الجزء الأول، ترجمة رقم 69، ص.71.)

3- أبو عمر أحمد بن عفيف بن عبد الله بن مربول بن حاتم الأموي، من أهل قرطبة. ازداد سنة 348 ه. وتوفي سنة 420 ه. (الجزء الأول، ترجمة رقم 75، ص. 74.)

4- أبو عمر أحمد بن محمد بن سعيد الأموي، المعروف بابن الفراء، من أهل قرطبة. لم يذكر ابن بشكوال تاريخ ولادته ووفاته. (الجزء الأول، ترجمة رقم 94، ص. 86.)

5- أبو عمر أحمد بن يحي بن أحمد بن سميق بن محمد بن واصل بن حرب، من أهل قرطبة. ازداد سنة 372 ه. وتوفي سنة 450 ه. (الجزء الأول، ترجمة رقم 119، ص. 102.)

6- أبو عمر أحمد بن محمد بن يحي بن أحمد بن محمد بن داود التميمي، المعروف بابن الحذاء، من أهل قرطبة. ازداد سنة 380 ه. وتوفي سنة 467 ه. (الجزء الأول، ترجمة رقم 350، ص. 249.)

7- أبو عبد الله حبيب بن أحمد بن محمد بن نصر بن غرسان مولى الإمام هشام بن عبد الرحمن بن معاوية، من أهل قرطبة. ازداد سنة 324 ه. وتوفي بعد سنة 404 ه. (الجزء الأول، ترجمة رقم 350، ص. 249.)

8- أبو القاسم حاتم بن محمد بن عبد الرحمن بن حاتم التميمي، المعروف بابن

الطرابلسي من أهل قرطبة، ازداد سنة 398 ه. وتوفي سنة 469 ه. (الجزء

الأول، ترجمة رقم 358، ص. 253.)

9- أبو القاسم خلف بن مروان بن أمية بن حيوة، المعروف بالصخري. لم يرد ذكر تاريخ ولادته. توفي سنة 401 ه. (الجزء الأول، ترجمة رقم 366، ص. 259.)

10- أبو سعيد خلف مولى جعفر الفتى المقرئ، المعروف بابن الجعفري، من سكان قرطبة. لم يرد ذكر تاريخ ولادته. توفي سنة 425 ه. أو سنة 429 ه. (الجزء الأول، ترجمة رقم 381، ص. 266.)

11- أبو محمد، أو أبو سعد، خلف بن علي بن ناصر بن منصور البلوي السبتي، من سكان قرطبة. لم يذكر ابن بشكوال تاريخ ولادته. توفي سنة 400 ه. (الجزء الأول، ترجمة رقم 408، ص. 281.)

12- أبو عبد الملك راشد بن إبراهيم بن عبد الله بن إبراهيم، من أهل قرطبة. لم يرد ذكر تاريخ ولادته. توفي سنة 404 ه. (الجزء الأول، ترجمة رقم 429، ص. 295.)

13 - أبو عثمان سعيد بن إدريس بن يحي السلمي المقرئ، من سكان قرطبة. ازداد سنة 349 ه. وتوفي سنة 428 ه.(الجزء الأول، ترجمة رقم 504، ص. 343.)

14- أبو العلاء صاعد بن الحسن بن عيسى الربعي البغدادي، من سكان قرطبة. لم يذكر ابن بشكوال تاريخ ولادته. توفي سنة 410 ه. أو 417 ه. (الجزء الأول، ترجمة رقم 546، ص. 371.)

15- أبو القاسم عبد الرحمن بن محمد بن أبي يزيد خالد بن خالد بن يزيد اليسري الأزدي العتكي المصري، من سكان قرطبة. ازداد سنة 333 ه. وتوفي سنة 410 ه. (الجزء الثاني، ترجمة رقم 762، ص. 519.)

16- أبو عبد الله محمد بن معافى بن صميل، من سكان قرطبة. لم يرد ذكر تاريخ ولادته. توفي سنة 410 ه. (الجزء الثاني، ترجمة رقم 1103، ص. 736.)

17- أبو عبد الله محمد بن يحي بن أحمد بن محمد بن عبد الله بن داود التميمي، المعروف بابن الحذاء، من أهل قرطبة. ازداد سنة 347 ه. وتوفي سنة 416 ه. (الجزء الثاني، ترجمة رقم 1111، ص. 740.)

18- أبو عبد الله محمد بن فتحون بن مكرم التجيبي النحوي، من أهل قرطبة. لم يرد ذكر تاريخ ولادته وتاريخ وفاته. (الجزء الثاني، ترجمة رقم 1140، ص. 758.)

19- أبو عبد الله محمد بن يوسف بن محمد الأموي النجاد، من أهل قرطبة. ولد بعد سنة 350 ه. وتوفي سنة 429 ه. (الجزء الثاني، ترجمة رقم 1145، ص. 761.)

20- أبو الوليد محمد بن عبد الله بن أحمد البكري، المعروف بابن ميقل، من سكان قرطبة، ولد سنة 362 ه. وتوفي سنة 436 ه.(الجزء الثاني، ترجمة رقم 1163، ص 770.)

21- أبو الوليد هشام بن غالب بن هشام الغافقي الوثائقي، من أهل قرطبة. ولد سنة 357 ه. وتوفي سنة 438 ه. (الجزء الثالث، ترجمة رقم 1446، ص.937.)

لا يوضح ابن بشكوال ما إذا كان العلماء الذين أوردنا أسمائهم قد غادروا قرطبة فرادى أو بشكل جماعي، ولكن السياق الذي وردت فيه المعلومات المقتضبة عن هجراتهم، يفيد بأنهم قاموا بذلك فرادى. فابن بشكوال يستعمل عبارات تؤكد ذلك من قبيل عبارة "خرج في الفتنة"[8]، أو عبارة "جلا عن قرطبة إذ وقعت الفتنة"[9]. ومع ذلك، فنشير الى أنه ليس من المستبعد أن يكون حصل اتفاق بين عالمين، وقررا الخروج من قرطبة معا في وقت واحد. ونذهب الى هذا الاعتقاد انطلاقا من ثلاث اعتبارات:

- أولا: لأن ظاهرة الهجرة حدثت عموما على شكل موجة بين سنتي 400 و404 للهجرة. وهذا ما يستشف من كلام ابن بشكوال في سياق ترجمته لأبي عمر أحمد بن عفيف بن عبد الله بن مريول.

---

[8] - الصلة، الجزء الأول، ص. 65. وكذلك ص. 71 وص. 75 وص. 102 من نفس الجزء.

[9] - نفس المصدر ونفس الجزء، ص. 110.

حيث يذكر أنه "(...) خرج من قرطبة فيمن خرج عنها لما وقعت الفتنة"[10].

- ثانيا: لأن العديد من العلماء الذين أوردنا أسماءهم خرجوا من قرطبة في وقت متزامن تقريبا. فأبو عمر أحمد بن محمد بن سعيد الأموي "خرج من قرطبة في أول الفتنة، أي سنة 399-400 ه. وهي السنة التي خرج فيها أيضا أبو محمد، أو أبو سعيد، خلف بن علي بن ناصر البلوي السبتي[11]. أما أبو القاسم حاتم بن محمد بن عبد الرحمن بن حاتم التميمي، فقد رحل عن قرطبة سنة 402.[12]وهي نفس السنة التي هاجر فيها أبو عبد الله محمد بن معافى بن صميل[13].

- ثالثا: لأن عددا من العلماء المهاجرين توجهوا الى نفس مراكز الاستقبال بعد خروجهم من قرطبة. كما هو الشأن مثلا بالنسبة لأبي العباس أحمد بن قاسم بن عيسى بن فرج اللخمي الإقليشي وأبي عبد الله محمد بن معافى بن صميل وأبي عمر أحمد بن يحي بن أحمد بن سميق الذين اختاروا التوجه إلى طليطلة[14].

لم يكن هم ابن بشكوال تقديم معلومات ضافية عن هجرة أولائك العلماء رغم أنها تندرج ضمن صميم الترجمة لهم، ولذلك فإن الإشارات التي يمدنا بها لا تفيد ما اذا كان العلماء المهاجرون قد خرجوا من قرطبة بمفردهم أم اصطحبوا معهم أفراد أسرهم. فقد كانوا كلهم متزوجين فيما يبدو. انطلاقا من كنية كل واحد منهم. فهذا أبو العباس والآخر أبو بكر وذاك أبو عبد الله... وانطلاقا أيضا من المعلومات القليلة التي يقدمها عن بعضهم. فقد أورد في معرض ترجمته لأبي الوليد محمد بن عبد الله بن أحمد البكري، المعروف

---

[10] - نفس المصدر ونفس الجزء، ص.75.

[11] - نفس المصدر ونفس الجزء، ص. 86 و ص. 281.

[12] - نفس المصدر ونفس الجزء، ص. 253.

[13] - نفس المصدر، الجزء الثاني، ص.736.

[14] - نفس المصدر، الجزء الأول، ص. 66 وص. 102 والجزء الثاني، ص. 736.

بابن ميقل، أنه "سكن قرطبة من صباه، وتفقه فيها، ونكح بها"[15].
كما أورد وهو يعرف برئيس المحدثين بقرطبة، أبا علي حسين بن محمد بن أحمد الغساني أنه ولد بمدينة جيان سنة 427 ه. بعد أن نزلها أبوه وأمه عقب خروجهما من الزهراء في الفتنة.[16] وحين اشتد عوده وشرع في طلب العلم، قدم إلى قرطبة واستقر بها للسماع بها من كبار علمائها أمثال أبي العاصي حكم بن محمد الجذامي وأبي عمر بن عمر بن عبد البر.

ومن ثم، فالغالب على الظن أن جميع العلماء الذين أوردنا أسماءهم اصطحبوا معهم أفراد أسرهم حين خرجوا من قرطبة. ويحتمل أيضا أن يكون أحد العلماء قد ترك أفراد أسرته بقرطبة ليلتحقوا به بعد حين بمركز الاستقبال. ليكونوا هم الآخرين في مأمن من الأحداث الدامية التي كانت حاضرة الأندلس مسرحا لها كما سنوضح بعد حين، ولأنهم لم يكونوا متيقنين بأنهم سيعودون مجددا إلى قرطبة.

تفيد المعلومات التي يقدمها لنا ابن بشكوال، بأن الغالبية الساحقة من العلماء الذين اضطروا لمغادرة قرطبة بمناسبة أحداث الفتنة لم يعودوا إليها. فلائحة العلماء الذين أوردنا أسمائهم لا تتضمن سوى اسمي عالمين قدر لهما أن يعودا إلى قرطبة. وهما أبو عمر أحمد بن محمد بن يحي بن أحمد بن محمد بن داود التميمي وأبو عبد الله محمد بن يوسف بن محمد الأموي النجاد.

فالأول عاد إلى قرطبة "في أخر عمره"[17] كما يقول ابن بشكوال، بعد سنوات طوال قضاها بين سرقسطة وألمرية وطليطلة. وحين عاد اشتغل مدة متصرفا بين مدينتي اشبيلية وقرطبة حتى تاريخ وفاته سنة 467 ه. وإذا افترضنا انطلاقا من عبارة "أخر عمره" بأنه عاد

---

15 - نفس المصدر، الجزء الثاني، ص. 771.
16 - نفس المصدر، الجزء الأول، ص. 233.
17 - نفسه، ص.110.

إلى قرطبة سنة 460 هجرية، فقد يكون قضى حوالي ستين (60) سنة بعيدا عن قرطبة. لأنه غادرها حين "وقعت الفتنة وافترقت الجماعة"، أي حوالي سنة 400 ه. أو بعدها بقليل.وإذا علمنا بأنه ولد سنة 380 ه.، فمعنى ذلك أنه خرج من قرطبة شابا ابن عشرين أو اثنين وعشرين سنة. وعاد إليها شيخا. ورغم ذلك، لم يقدر له أن يلقى ربه بقرطبة. إذ توفي بإشبيلية. وتمت مواراة جثمانه بمقبرة الفخارين[18].

والثاني قدر له هو الآخر أن يعود إلى قرطبة بعد أن استوطن الثغر وأقرأ الناس به دهرا كما يقول ابن بشكوال[19]. وقد كان أكثر حظا من الأول. حيث كتب له أن يتوفى ويدفن بقرطبة في صدر ذي القعدة سنة 429 ه. ولكننا لا نملك، مع الأسف، أية إشارة تساعد على تحديد المدة الزمنية التي قضاها بعيدا عن قرطبة. وكل ما نملكه من معطيات هو أنه ولد بعد سنة 350 ه. بقليل[20]. أخذ القراءة عن علماء قرطبة. ثم أصبح بدوره يقرأ الناس بمسجدها حتى اضطر أن يخرج عنها إلى الثغر عند بداية الفتنة. ومن المحتمل جدا أن يكون قد عاد الى قرطبة حوالي أواخر سنة 422 ه. بعد أن أخذ الأمن يستتب في المدينة. وبذلك، يكون قضى في الثغر حوالي عشرين أو اثنين وعشرين سنة.

وانطلاقا من المعطيات التي أمدنا بها ابن بشكوال، يتضح بأن واحدا فقط من العلماء الذين اضطروا للهجرة هو الذي قدر له أن يعود إلى قرطبة ويتوفى ويدفن بها، أما الآخرون فلم يقدر لهم ذلك. إذ توفوا ودفنوا بعيدا عن أم المدائن في مدن أخرى كإشبيلية وطرطوشة وطليطلة وميورقة ومرسية وسرقسطة وطليطلة.

---

[18] - نفسه، ص.111.

[19]- نفس المصدر، الجزء الثاني، ص.761.

[20] - نفس المصدر ونفس الجزء و نفس الصفحة.

وتفيدنا نفس المعطيات بأن ثلاثة من العلماء المهاجرين توفوا خارج الأندلس. وينطبق هذا الأمر على علماء أندلسيين من أهل قرطبة، وعلى علماء قدموا إلى الأندلس من مراكز أخرى بدار الإسلام وسكنوا قرطبة. والعلماء المعنيون، هم أبو عمر أحمد بن محمد بن سعيد الأموي، وهو من أهل قرطبة. خرج عنها في الفتنة واستقر باشبيلية، التي خرج منها إلى المشرق بنية الحج. فسار إلى بيت المقدس وبها توفي [21]. وأبو العلاء صاعد بن الحسن بن عيسى الربعي البغدادي، الذي قدم من المشرق وسكن قرطبة. ثم اضطر لمغادرتها بمناسبة أحداث الفتنة. وقصد صقلية التي سكنها وتوفي بها حوالي سنة 410 ه. أو 417 ه.[22]. وأبو القاسم الأزدي العتكي المصري الذي قدم من مصر وسكن قرطبة إلى أن وقعت الفتنة. فخرج من قرطبة وعاد إلى مصر التي توفي بها سنة 410 هجرية[23].

وتعني هذه المعطيات من وجهة نظر البحث في حركات الهجرة، بأن المهاجرين تفرقوا في أنحاء عدة بعد خروجهم من قرطبة. وقطعوا مسافات تتراوح بين مئات الكلمترات وألاف الكلمترات. ولتوضيح هذا الأمر، نذكر بأن بعض الحواضر التي استقبلت عددا من المهاجرين مثل اشبيلية وطليطلة تفصل بينها وبين قرطبة مسافات طويلة (بالنظر إلى وسائل النقل آنذاك). فإشبيلية تبعد عن قرطبة بثلاث مراحل[24]. وإن المسافة الفاصلة بينهما تقدر بثمانين ميلا[25] (حوالي 148كلم)[26]. أما طليطلة فتبعد عن قرطبة بتسع

---

[21]- نفس المصدر، الجزء الأول، ص.86. نشير إلى أن ابن بشكوال لم يذكر تاريخ وفاته.

[22] - نفس المصدر ونفس الجزء، ص.371.

[23] - نفس المصدر، الجزء الثاني، ص.519.

[24] - انظر أبا عبد الله محمد بن محمد الإدريسي(توفي سنة 540ه.)، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، تحقيق مجموعة باحثين، مكتبة الثقافة الدينية ،بور سعيد، بدون تاريخ، المجلد الثاني، ص. 573.

[25] - نفسه، ص. 580.

[26] - على أساس أن الميل الواحد يعادل 1.848 كلمترا. أنظر في هذا الشأن كتاب محمد ضياء الدين الريس، الخراج والنظم المالية للدولة الإسلامية، دار الأنصار، القاهرة، 1977، ص.

مراحل[27]. وتبلغ المسافة الفاصلة بينهما 225 ميلا[28] (حوالي 416 كلم).

ويبدو أن عملية قطع هذه المسافات كانت أمرا طبيعيا بالنسبة للعلماء، لأن السفر والرحلة كانا جزءا من نمط حياتهم. فقد اشتهر علماء بلاد المغرب والأندلس بتحركهم الدائم في اتجاه المشرق لطلب العلم و/ أو لأداء فريضة الحج. ومن ثم، يمكن اعتبارهم في نظر المهتم بالبحث في حركات الهجرة، أكثر أفراد المجتمع، بعد التجار، ممن يتوفر لديهم استعداد دائم للهجرة (la prédisposition à migrer). وهذا ما يعبر عنه ابن بشكوال في عدة مواضع من مصنفه. حيث يذكر، وهو يعرف بالمترجم له: أنه "سائح"[29]. أو"كان سائحا في الأرض، لا يأوي إلى وطن"[30]. أو "كان دائم التجول في الأمصار"[31].

ولا نحتاج إلى التأكيد بأن السفر والرحلة كانا ينطويان على كثير من العناء والمكابدة بالنظر إلى وسائل النقل التي كانت مستعملة خلال العصر الوسيط، كما أشرنا إلى ذلك فيما مضى. وبالنظر أيضا إلى طبيعة الأوضاع السياسية والعسكرية التي كانت سائدة في الأندلس عند مطلع القرن الخامس الهجري. فالخروج من قرطبة بعد اندلاع شرارة الفتنة كان في حد ذاته مغامرة. وقد قام بهذه المغامرة ونجح فيها العلماء الذين أوردنا أسماءهم ضمن لائحة المهاجرين، باستثناء أبا عبد الملك راشد بن إبراهيم الذي ألت مغامرته للفشل. حيث ذبح في الطريق بعد خروجه من قرطبة في اتجاه الجوف[32].

300. وكذلك كتاب عبد القادر زلوم،الأموال في دولة الخلافة،دار العلم للملايين، بيروت، 1983، ص. 59.

[27] - الإدريسي، نزهة المشتاق...، مصدر سبق ذكره، المجلد الثاني، ص.536.

[28] - لا يورد الإدريسي هذا الرقم. ولكننا استنتجناه انطلاقا مما يقوله عن المرحلة وعن الميل في الصفحة 581 من المجلد الثاني.

[29] - ابن بشكوال، الصلة،مصدر سبق ذكره، الجزء الأول، ص. 167.

[30] - نفس المصدر ونفس الجزء، ص. 281.

[31] - نفس المصدر، الجزء الثاني، ص. 646.

[32] - نفسه، الجزء الأول، ص. 296.

والراجح، أن العلماء المهاجرين كانوا أوفر حظا إذ أتيحت لهم إمكانية المكابدة والمعاناة اللتان لا شك أنهم نسوها أو تناسوها بعد استقرارهم بالحواضر التي هاجروا إليها. أما زملاء آخرون لهم، وما أكثرهم، فقد لقوا حتفهم[33] في الاضطرابات التي شهدتها قرطبة بمناسبة أحداث الفتنة. وهذا ما سيقودنا لتبيان دواعي هجرات علماء قرطبة عند مطلع القرن الخامس الهجري. وبالتالي، توضيح الأسباب التي دعتنا إلى نعتها بكونها هجرات قسرية.

لم يتطرق ابن بشكوال لتلك الدواعي. إذ اكتفى وهو يعرف بالعلماء الذين اضطروا للخروج من قرطبة بترديد عبارة "خرج من قرطبة في الفتنة". وقد انتقل إلى مستوى أعلى من التوضيح حين أورد في معرض ترجمته لأبي عمر أحمد بن محمد (ابن الحذاء) قوله: "جلا عن وطنه إذ وقعت الفتنة وافترقت الجماعة"[34]. وهو إذ اكتفى بهذه الإشارات، ولم يوضح أكثر، فإن همه لم يكن استعراض جوانب من تاريخ الأندلس السياسي والاجتماعي، وإنما الترجمة لعلماء وفقهاء عاشوا خلال فترة معينة كما بينا ذلك بمناسبة حديثنا عن موضوع كتاب الصلة. ومع ذلك يستحق ابن بشكوال كل التنويه لأنه أحالنا على المظهرين السياسي والاجتماعي لأحداث مطلع القرن الخامس الهجري.

ومن ثمة، فإن الوقوف على ذينك المظهرين، ولو بإيجاز، يستدعي الاعتماد على مؤلفات أخرى، أهمها الحوليات أو كتب التاريخ العام. ولكن لن نقوم بذلك. ولن نخرج عن إطاركتب التراجم، لأن المكتبة الأندلسية تتضمن لحسن الحظ مصنفا أخر يندرج ضمن

---

33 - من بينهم على سبيل المثال لا الحصر أبو عمر أحمد بن بريل المقرئ الذي استشهد بعقبة البقر صدر شوال سنة 400 ه. وأبو عمر أحمد بن محمد بن مسعود، وأبو القاسم خلف بن سلمة، وأبو الوليد عبد الله بن محمد بن نصر الأزدي (المعروف بابن الفرضي) الذين قتلوا يوم "دخل البربر قرطبة" في شوال سنة 403 هجرية. أنظر في هذا الشأن كتاب الصلة، الجزء الأول، ص. 50، وص. 59، وص.260، وص.391. وكذلك نماذج أخرى يتضمنها نفس الجزء والجزءان الثاني والثالث.

34 - نفس المصدر، الجزء الأول، ص. 110.

الصنف. وضعه أبوعبد الله محمد بن فتوح بن عبد الله الحميدي[35] الذي عاصر تلك الأحداث[36]. فتناول مظاهرها السياسية والاجتماعية بإيجاز ضمن الجزء الأول الذي خصصه لاستعراض تاريخ الأندلس من خلال التعريف بقادتها وولاتها منذ الفتح حتى بداية الفتنة.

انطلقت شرارة تلك الفتنة، حسب رواية الحميدي،[37] عندما استصدر عبد الرحمن بن محمد بن أبي عامر من الخليفة القاصر والمحجور عليه هشام بن الحكم أمرا أصبح بموجبه وليا للعهد. فأثارهذا الإجراء حفيظة محمد بن هشام بن عبد الجبار أحد أحفاد عبد الرحمن الناصر الذي استنفر عددا من المؤيدين لأسرة بني أمية. فاستغلوا غياب عبد الرحمن بن محمد في إحدى الغزوات وقاموا بما يشبه عملية انقلاب يوم الثلاثاء 16 جمادى الآخرة سنة 399 هـ. حيث هاجموا قصر قرطبة وخلعوا الخليفة الشرعي. ومكنوا محمد بن هشام من السلطة التي انفرد بها لبضعة أشهر. اضطر خلالها إلى مواجهة حركة تزعمها هشام بن سليمان بن عبد الرحمن الناصر الذي ألب البربر الناقمين على محمد بن هشام الذي شرع منذ توليه السلطة في التنكيل بهم.

فأخذ الصراع طابعا عرقيا بين طائفة العرب الأندلسيين والعناصر البربرية. وتفجر في مواجهة عسكرية أولى بين الطرفين حدثت يومي خامس وسادس شوال سنة 399 هجرية. انتهت بهزيمة العناصر البربرية ومقتل هشام بن سليمان. فاتجه الناجون من تلك العناصر إلى ضواحي قرطبة. حيث عينوا على رأسهم سليمان بن الحكم بن سليمان ابن أخ هشام السالف الذكر.

---

[35] - نقصد هنا كتاب "جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس وأسماء رواة الحديث وأهل الفقه والأدب وذوي النباهة والشعر" الذي نشره محمد عزة العطار الحسيني وقام بتصحيحه وتحقيقه محمد بن تاويت الطنجي. وصدر عن مكتبة الخانجي بالقاهرة سنة 1952.

[36] - توفي سنة 488 هجرية. فعاصر تلك الأحداث زمانيا. كما عاصرها مكانيا ، لأنه كان مستقرا ساعة حدوثها بقرطبة. واضطر بعد اندلاعها إلى مغادرة الأندلس إلى أرض العراق التي ألف فيها الكتاب المذكور

[37] - أنظر نص تلك الرواية في الصفحات 17-34 من الكتاب.

واستجمعوا قواتهم. واستعانوا ببعض المحاربين المسيحيين. وعادوا ثانية إلى قرطبة التي خرج أهلها للدفاع عنها في جبل قنليش (أو قنتيش). فسقط منهم ما يزيد على العشرين ألفا كما يذكر الحميدي[38]. كان من بينهم العديد من العلماء والفقهاء وأئمة المساجد، بينما فر محمد بن هشام إلى طليطلة. حيث استجمع هو الآخر قواته التي انضم إليها الصقالبة بزعامة واضح الفتى العامري والي الثغر الأعلى ومقاتلون من المدن التي ظلت موالية له. ودعمها ببعض المحاربين المسيحيين. وزحف على قرطبة محاولا استردادها. فتم له ذلك بعد هزيمة سليمان بن الحكم في موقعة عقبة البقر بضواحي قرطبة في منتصف شهر شوال من سنة 400 هجرية. ولكن محمد بن هشام لم يستفد من نصره. إذ تم اغتياله بعد أشهر معدودة على يد أبرز حلفائه الفتى العامري واضح الذي أعاد هشام بن الحكم إلى سدة الحكم رغبة منه في إرضاء العناصر البربرية وحسم الصراع.

ورغم هذا التحول، ظل هؤلاء يعملون بزعامة سليمان بن الحكم على توطيد وجودهم بعدة مدن أندلسية. ثم عادوا إلى قرطبة التي ضربوا عليها الحصار. وضيقوا على أهلها. ثم اقتحموها في مطلع شوال من سنة 403 هـ.

ولم يهدأ الوضع. بل تواصلت عمليات التصفية الجسدية والمواجهات العسكرية بين العناصر العربية والعناصر البربرية. وتأجج لهيبها أكثر بانضمام أطراف وعناصر أخرى من بعض المدن الأندلسية إلى الصراع الدائر بقرطبة. ولم تخف حدة الاضطرابات نسبيا إلا ابتداء من منتصف شهر ذي الحجة سنة 422 هجرية؛ حين تم إعلان النهاية الرسمية لمؤسسة الخلافة. وافترقت الجماعة. وأصبحت الأندلس والجزائر التابعة لها مجالا لأكثر من عشرين دولة، عرفت منذئذ بدول الطوائف.

---

[38] - أنظر جذوة المقتبس...، ص.18.

وكان من الطبيعي أن يتأثر العلماء والفقهاء بهذه الأحداث. فمنهم من شارك في تفعيلها بالقول أو الفعل من خلال انضمامه إلى هذا الطرف أو ذاك من أطراف الصراع. فقتل بعضهم. وتعرض الناجون للتهديد والتنكيل. ومن العلماء من أثر العافية ولم يناصر أحدا. وفي ضوء هذه الأحداث وجد نفر من العلماء والفقهاء أنفسهم مكرهين على الخروج من قرطبة. وفي هذا السياق إذن تمت هجرات أولائك الذين أوردنا أسمائهم.

المبحث الخامس: الأسرة في البادية الأندلسية خلال القرن الخامس الهجري

تتميز الأسرة بكونها مؤسسة كونية، قامت على أساسها جميع المجتمعات في جميع المجالات الجغرافية وفي جميع الأزمنة. حتى إن أحد مشاهير علم الأنثروبولوجيا[1]، ذهب إلى القول بأنه لا يمكن الحديث عن مجتمع بدون وجود أسر.

يصدق هذا القول أيضا على المجال العربي – الإسلامي. ومن ضمنه المجال الأندلسي. حيث شكلت الأسرة نواة المجتمع والعنصر المركزي في التنظيم الاجتماعي.

ومن هذا المنطلق كان من المفترض أن تحظى باهتمام المشتغلين بالبحث التاريخي. غير أن تصفحا سريعا لعناوين الدراسات والأبحاث التي تتألف منها المكتبة الأندلسية، يفيد بأن موضوع الأسرة هو الغائب الأكبر من بين المواضيع التي تم تناولها.

ومما لا شك فيه، أن ثمة أسباب موضوعية تبرر هذا القصور. فموضوع الأسرة من المواضيع الشائكة؛ لذلك لم يجرؤ الباحثون في تاريخ الأندلس، أو غيرهم من الباحثين في تاريخ المجال العربي الإسلامي، على الخوض فيه.

وما يؤكد ذلك، هو أن المؤرخين الأوربيين المهتمين بتاريخ العصر الوسيط، أو المهتمين بالديموغرافيا التاريخية، يترددون في تناول موضوع الأسرة. وإن معظم المؤرخين الذين أقدموا على ذلك، هم من المهتمين بتاريخ الأزمنة الحديثة والمعاصرة. ومع ذلك فلا زالوا يسعون إلى استكمال مناهج البحث في موضوع حديث العهد

---

[1] - يتعلق الأمر بالباحث الفرنسي كلود ليفي ستروس (Claude Lévi-Strauss). انظر التصدير الذي وضعه
للكتاب الذي أنجزه مجموعة باحثين تحت عنوان:
Histoire de la famille, Paris, A.Colin, 1986, 2 vol.

على حقل الدراسات التاريخية والديموغرافية[2]. لأنه حتى حدود مطلع سبعينيات القرن الماضي كان البحث فيه حكرا على الأنثروبولوجيين وعلماء الاجتماع. كما أن المصادر التي تعد حجر الأساس بالنسبة للباحث للخوض في عالم الأسرة وفك رموزه لا تيسر سبل القيام بذلك.

فالمصادر الخطية التي يمكن اعتمادها، لا تتمثل في صنف بعينه. بل تتميز بالتنوع الأمر الذي يقتضي من الباحث العودة إلى مختلف المظان والمصنفات لاستيقاء المعلومات والمعطيات التي يتطلبها الموضوع. أما المصادر الأركيولوجية، التي قدمت إسهامات جلة للباحثين الأوربيين كما رأينا ذلك في مبحث سابق، فما زالت بالنسبة للباحث في تاريخ الأندلس، غير شاملة وغير متكاملة لتقديم إجابات عن أسئلة لا تجيب عنها النصوص. رغم أن الخلاصات والنتائج التي أسفرت عنها عمليات التنقيب توفر شهادات مادية ومعطيات ذات قيمة بالغة. كما سنوضح ذلك لاحقا.

وفي ضوء ما تقدم، يتضح بأن المعطيات التي سنقدمها عن الأسرة في البادية الأندلسية لا تعدو كونها مجرد ملاحظات. لا نعتقد أنها ترقى إلى مستوى الخلاصات الشاملة والنهائية. وقد ارتأينا اختيار القرن الخامس الهجري كحيز تندرج في إطاره هذه الملاحظات، لأنه يمثل لحظة في مسيرة تطور الأسرة الأندلسية. وإن تلك المسيرة التي استغرقت ثمانية قرون لا يمكن رصدها بشكل إجمالي. لأن بنية الأسرة ومكوناتها تشكلت على قاعدة الإسلام

---

[2] - للوقوف على هذه الحقيقة يمكن العودة إلى الفصل الذي خصصه روبير فوصيي (Robert Fossier)
للموضوع ضمن كتابه:
Enfance de l’Europe. Aspects économiques et sociaux, Paris, P.U.F., 1982, Tome II, pp. 905-950.
وكذلك المداخلات التي يتضمنها الكتاب المشار إليه في الهامش السابق.

وتشريعاته. ولكنها أخذت تتأثر بعد عمليات الفتح والاستقرار بمؤثرات ما فتأت تتغير. وتمثلت هذه المؤثرات في الأوضاع السياسية والعسكرية والاقتصادية، والأوضاع الديموغرافية، ومنظومة القيم والثقافات التي اتسمت بالتنوع بالنظر لتنوع انتماءات أفراد المجتمع الدينية والإثنية.

ومع ذلك، فإننا لا نعطي لتلك المؤثرات دورا حاسما يجعل الأسرة الأندلسية المسلمة جد متميزة. بل نعتبرها مجرد مثال للأسر التي اعتنقت الإسلام في المجال الذي ساد فيه خلال العصر الوسيط.

قامت الأسرة في أرياف وحواضر الأندلس، كما في سائر أقاليم دار الإسلام، على أساس اقتران (union) بين ذكر وأنثى، وفق ما أقره كتاب الله وسنة الرسول (صلى الله عليه وسلم). كانا يتعايشان لمدة قصيرة أو طويلة تنتهي بطلاقهما أو بوفاة أحد طرفي الاقتران. وكانا يقيمان خلال فترة المعاشرة بيت زوجية. وينجبان

أطفالا يسهران على تربيتهم والإنفاق عليهم حتى بلوغ مرحلة معينة. وقد أجمع الفقهاء في هذا الشأن بأن النفقة تسقط عن الأب ببلوغ الابن، الذي يصبح مالكا الأمر نفسه[3]. أما البنت، فتظل في ولاية أبيها حتى تتزوج[4].

ويحق لنا القول بأن الأسرة القائمة على الزواج مثلت المؤسسة السائدة في الأرياف وفي الحواضر على السواء. وربما حظي الزواج بين ذكر وأنثى من نفس الوسط الاجتماعي والديني والإثني بأهمية أكبر في الأرياف. أما في الحواضر، فشاعت ظاهرة الزواج المختلط بين ذكور وإناث ينحدرون من أصول عرقية ودينية مختلفة. كما كان

---

[3] - انظر على سبيل المثال ما أورده أبو المطرف عبد الرحمن بن قاسم الشعبي المالقي (توفي سنة 497هـ) في
كتاب الأحكام، تقديم وتحقيق الصادق الحلوي، منشورات دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1992، ص. 108.

[4] - نفسه، ص. 109.

بإمكان الأزواج التسري بالجواري والإماء، أو إقامة علاقات خارج إطار الزواج والتسري[5].

وقد توفرت في حواضر الأندلس عوامل عدة مشجعة على انتشار مثل هذه الزيجات والعلاقات. كتوفر الإمكانيات المادية لدى بعض فئات المجتمع، واحتكاك المسلمين بغيرهم من العناصر، وشيوع ظاهرة الاختلاط بين الجنسين، ووجود أعداد من الجواري.

غير أن هذه العوامل لم تتوفر في القرى على نطاق واسع. حيث إن سكانها، الذين كانوا مشكلين في غالبيتهم العظمى من فلاحين ومزارعين بسطاء، كانوا أكثر أفراد المجتمع استحضارا لتعاليم الإسلام التي حضّت على الزواج. وسمحت بتعدد الزوجات. ولكنها حرمت العلاقات القائمة خارج إطار الزواج. وقد نظمت تلك التعاليم عملية الزواج حرصا على نقاوة الدماء واستمرارية النسل.

ولا بأس من التذكير في هذا الصدد أن الاسلام أرسى نظاما لتحريم الزنا بالمحارم. وحدد العناصر التي تتشكل منها طبقات المحارم. وظلت كتب أحكام الفقه، ومن ضمنها كتب القرن الخامس الهجري[6]، تتواتر مبادئ هذا النظام تفاديا لوقوع المقبلين عن الزواج في المحارم.

---

[5] - يمكن العودة بخصوص هذه الظواهر إلى دراسة مريم قاسم طويل، مملكة غرناطة في عهد بني زيري البربر (403-483هـ/1012-1090م)، دار الكتب العلمية، بيروت، 1994، ص.ص. 260-265. ومداخلة الباحثة سحر السيد عبد العزيز سالم، "الجوانب الإيجابية والسلبية في الزواج المختلط في الأندلس" (دراسة سياسية أدبية واجتماعية)، ندوة الغرب الإسلامي والغرب المسيحي خلال القرون الوسطى، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، 1995، ص.ص. 33-79.

[6] - أنظر على سبيل المثال كتاب فصول الأحكام وبيان ما مضى عليه من العمل عند الفقهاء والحكام لأبي الوليد
سليمان بن خلف الباجي الأندلسي (توفي سنة 474هـ)، تحقيق وتقديم محمد أبو الأجفان، منشورات دار ابن حزم،
بيروت، 2003، ص.ص. 205-206. وكتاب المقدمات الممهدات لأبي الوليد محمد بن أحمد بن رشد القرطبي
(توفي سنة 520هـ)، تحقيق محمد حجي وسعيد أحمد أعراب، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1988، الجزء
الأول، ص.ص. 454-458.

ويبدو أن الامتثال لمبادئ هذا النظام، لم يؤد إلى إضعاف الزواج الداخلي، أي ذلك الذي يتم بين أطراف داخل نفس الجماعة القرابية، والذي يسمح بتمتين علاقات القرابة.

وإذا كانت مصنفات القرن الخامس الهجري التي أطلعنا عليها، لا تقدم معلومات ضافية عن زيجات تمت في البادية بين أفراد أسرتين تربط بينهما علاقات دموية. كأن يتزوج الأبناء ببنات الأعمام، فمن المحتمل أن تكون قد حدثت حالات من هذا القبيل. لأن نموذجا من هذه المصنفات وهو كتاب أحكام يعالج مسائل محدودة تسير في هذا الاتجاه. كمسألة الرجل الذي أنكر بأنه قال لعمه سأتزوج ابنتك[7]. ومسألة الأب الذي قال "لقوم" لقد زوجت ابنتي لابن أخي ليعتذر لهم. ويردهم عن طلب يد ابنته لأحدهم[8].

بينما تتورع كتب التاريخ العام بين مصنفات تتضمن قرائن دالة على استمرار وجود علاقات القرابة في بعض أقاليم الأندلس[92]. ومصنفات تتضمن شهادات تفيد بتلاشي تلك العلاقات. وأبرزها ما ورد في كتاب الحلل الموشية على لسان المعتمد بن عباد وهو يقول: "أنا نحن العرب في هذه الأندلس، قد تلفت قبائلنا، وتفرق جمعنا، وتغيرت أنسابنا بقطع المادة من معيننا فصرنا شعوبا لا قبائل وأشتاتا لا قرابة ولا عشائر، فقل ناصرنا وكثر شامتنا"[10].

---

[7] - أبو أبو المطرف عبد الرحمن بن قاسم الشعبي المالقي، الأحكام، مصدر سبق ذكره، ص.ص. 432-433

[8] - المصدر نفسه، ص. 433.

[9] - يمكن العودة على سبيل المثال إلى كتاب جمهرة أنساب العرب لأبي محمد علي بن أحمد بن حزم الأندلسي (توفي سنة 456هـ)، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار المعارف، القاهرة، 1962. وكتاب الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة لأبي الحسن علي بن بسام الشنتريني (توفي سنة 542هـ)، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، 1978، ثمانية مجلدات.

[10] - مؤلف مجهول من أهل القرن الثامن الهجري، الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، تحقيق سهيل زكار
وعبد القادر زمامة، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، 1979، ص.ص.45-46.

ومعنى ذلك في اعتقادنا أن علاقات القرابة لم تعد قوية خلال القرن الخامس الهجري كما كانت عليه خلال القرنين الثاني والثالث للهجرة. فقد أثرت فيها الأحداث السياسية والعسكرية والتحولات الاقتصادية والاجتماعية التي شهدتها الأندلس منذ سنة 92 للهجرة. ولكن لم تؤد إلى تلاشيها واختفائها بصفة نهائية، وخاصة في أوساط الأسر الحاكمة والأسر الأرستقراطية. حيث ظلت تنبثق عن استمراريتها في هذه الأوساط مجموعة وحدات (des unités). تحمل كل وحدة منها اسما معينا. وينحدر الأفراد الذكور والإناث الذين يؤلفونها من أصل واحد. وينتسبون إلى شخص واحد يعتبرونه جدهم الأعلى[11].

وحتى إذا سلمنا بأن الزواج القرابي ظل معمولا به في أوساط الفلاحين والمزارعين، فإنه لم يفض إلى وجود الأسر الواسعة أو الممتدة (les familles larges) في البادية الأندلسية. إذ نميل إلى الاعتقاد بأن القرى سادت فيها الأسر الصغيرة الحجم أو ما يعرف عند المختصين بالأسر النواتية (les familles nucléaires). التي تتكون كل واحدة منها من الزوج والزوجة وأبنائهما. وهذا ما يستفاد من القضايا التي تعالجها بعض كتب أحكام الفقه وبعض كتب الفتاوى والنوازل.

فقد وردت في كتاب الأحكام للشعبي المالقي عدة قضايا تثبت ذلك. من قبيل قضية كاتب فيها أحد المفتين الشعبي المالقي "في رجل نكح امرأة وساق إليها ثلثي ماله ثم توفيت المرأة عن زوجها وأربع

---

[11] - للاطلاع على نموذج من هذه الأسر يمكن العودة إلى دراسة كمال السيد أبو مصطفى: "بنو رزين ودورهم
السياسي والحضاري في شنتمرية الشرق"، ضمن مؤلفه بحوث في تاريخ وحضارة الأندلس في العصر الإسلامي،
منشورات مؤسسة شباب الجامعة الإسكندرية، 1993، ص.ص. 7-43.

بنات وابنين..."[12]. وقضية استفتي فيها ابن المكوي[13] "في رجل تصدق على رجل بجميع أملاكه في قرية. فعمّر المتصدق مع المتصدق عليه عاما. ثم إن المتصدق عليه ساق إلى زوجته ثلاثة أخماس ما تصدق به عليه..."[14].

ويتضمن كتاب الفتاوى لابن رشد [15] قضايا تسير في نفس الاتجاه. من قبيل قضية وردت عليه من نواحي مدينة شلب في رجل تزوج امرأة وساق إلهيا نصف عرصة على أن يبنيها بنيانا تواصفاه. وتكون بينهما بنصفين[16]. وقضية الرجل الذي تزوج امرأة على عدد مسمى من المواشي وقطعة أرض مسماة قد عرفتها[17].

وإذا كانت هذه القضايا تفيد بأن الأسرة كانت نواتية كما ذكرنا، فإنها تفيد، إلى جانب قضايا أخرى بأن عدد أفراد الأسرة كان يتراوح بين ثلاثة وثمانية أفراد خلال الفترة الزمنية التي حدثت فيها وقائع تلك القضايا التي عاصرها الشعبي المالقي المتوفى سنة 497هـ، وابن رشد المتوفى سنة 520هـ.

فقد ذكر الشعبي المالقي أن ابن المكوي كتب له "في رجل تصدق على ابن له بالغ رشيد بجميع أملاكه. على أن المتصدق عليه طاع له حين الصدقة عليه بأقفزة من طعام معلومة إلى موت المتصدق. وملك هذه الأملاك خمسا وعشرين سنة، وله أخوات متزوجات لا يغيرن عليه ولا ينكرن في بقاء الأب، ولا بعد موته فتوفي الأب ثم توفي البنات بعده إلى أعوام (...) ثم إنهن تركن بنين، فملك الرجل

---

12 - أبو المطرف الشعبي المالقي، الأحكام، مصدر سبق ذكره، ص. 149.

13 - هو أبو محمد عبد الله بن عبد الملك بن هشام. يعرف بابن المكوي، من أهل قرطبة، توفي سنة 448هـ. انظر
ترجمته في كتاب الصلة: 267/1، ترجمة رقم 606.

14 - أنظر تفاصيل القضية في كتاب الأحكام، ص. 146.

15 - أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد القرطبي (توفي سنة 520هـ)، فتاوى ابن رشد، تقديم وتحقيق وجمع وتعليق
المختار بن الطاهر التليلي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1987، ثلاثة أسفار.

16 - نفسه، السفر الأول، ص.ص. 224-227.

17 - نفسه السفر الأول، ص.ص. 608-609.

أيضا في وجه البنين الأعوام الكثيرة إلى أن توفي المتصدق عليه وترك ابنة وزوجة"[18]. وكتب بعضهم إلى ابن المكوي في رجل يشهد على نفسه في مرضه الذي توفي على إثره، أنه باع جميع أملاكه لصهره زوج ابنته، وليس للرجل سوى تلك الابنة وزوجة أمها[19].

ومن القرائن الدالة أيضا بأن الأسرة كانت نواتية ومعدودة الأفراد، هو أن أغلب عمليات الإرث أو هبة قطع أرضية أو التصدق بها كان يستفيد منها أقرب المقربين من مالك الأرض وتعني بهم أولاده وبناته وزوجته. وقد تضمنت القضايا التي أدرجناها فيما مضى ما يفيد ذلك.

وفي نفس السياق نشير الى أن أولاد المالك العقاري كانوا هم أوائل المستفيدين من عمليات التحبيس. ولا يستفيد قرابة المحبس من الحبس إلا إذا اشترط المحبس ذلك أو إذا توفي الأولاد وليس لهم عقب.

ويوضح هذا الأمر سؤال طرح على ابن المكوي في "رجل (...) حبّس نصف ماله من الأرضين على بنيه الأصاغر على الإشاعة (...) ثم مات"[20]. فضاقت ذات يد الأم التي باعت ما تم تحبيسه عليهم. فأجاب ابن المكوي بأن العملية غير جائزة إذا تمت وهم في حال صغر، فيفسخ البيع وينفذ الحبس[21].

وفي نفس السياق أورد الشعبي المالقي أن أحد فقهاء قرطبة استفتي في رجل تصدق على ولده بأرض وشجر من ماله المحبّس عليه. واشترط أن ترجع هذه الصدقة إلى أقرب الناس بالابن ملكا مطلقا غير محبس. فتوفي الابن ولم يكن له عقب. وكان له عم

---

18 - أبو المطرف الشعبي المالقي، الأحكام، مصدر سبق ذكره، ص. 145، انظر أيضا فتاوى ابن رشد، السفر
الأول، ص.ص.301-302.

19 - أبو المطرف الشعبي المالقي، الأحكام، ص.ص. 145-146.

20 - نفسه، ص. 147.

21 - نفس المصدر ونفس الصفحة.

وخالان فأفتى الفقيه بأن ترجع الصدقة إلى العم، أي أخ الأب لأنه أقرب إلى المتصدق عليه من الخالين أخوي الأم[22].

وإذ أضحت الأسرة النواتية هي التشكلة القاعدية في المجتمع الريفي وتراجعت أهمية العشيرة والقبيلة، فلا يعني ذلك انتفاء أشكال التضامن والتكتل التي كانت تتحقق في إطار الانتماء للعشيرة أو القبيلة. إذ وجدت في البادية الأندلسية خلال القرن الخامس الهجري صيغ مماثلة لتلك الأشكال. تمثلت في السكن التجمعي[23] في إطار القربة.

وفي هذا الشأن توضح بعض المصنفات ككتب التاريخ العام، وكتب الجغرافيا وكذلك الخلاصات التي أسفرت عنها بعض عمليات السبر والتنقيب الأثري، بأن الأسر البدوية كانت تقيم في القرى على هيأة كومينوطات (des communautés).

كانت تلك القرى منتشرة بين مدن الموسطة وشرق وغرب الأندلس. وكل مجموعة قرى شكلت شبكة مرتبطة بالمركز الحضري الذي يشرف عليها.

وإذا كانت كتب الجغرافيا وكتب المسالك والممالك تتضمن فيضا من المعلومات حول المراكز الحضرية، فإنها مع الأسف لا تتضمن سوى إشارات قليلة وباهتة عن القرى التابعة لتلك المراكز.

ورغم ذلك لا ننكر بأن نماذج من هذه الكتب ومصنفات أخرى وأهمها كتب الفتاوى والنوازل تقدم للباحث مادة طيبة ومعلومات ذات قيمة بالغة.

---

[22] - نفسه، ص. 151.

[23] - يؤكد بعض الباحثين في علم الاجتماع بأن عامل الاستقرار المكاني للأسرة يكتسي أهمية بالغة، على اعتبار أن
مكان السكنى يؤثر بفعالية على طبيعة التعاون الاقتصادي بين الأسر. وهو ما كان يتم السعي لتحقيقه في إطار
الزواج القرابي داخل الجماعة القرابية. انظر في هذا الشأن علياء شكري، الاتجاهات المعاصرة في دراسة الأسرة
دار المعارف، القاهرة، 1979، ص.ص. 113-114.

ومن قبيل هذه المعلومات ما ورد في كتاب ترصيع الأخبار للعذري[24] حين ذكر بأن أعداد القرى التي يضمها كل إقليم من أقاليم قرطبة تراوحت بين 17 قرية (وهو عدد قرى إقليم بني مسرة) و102 قرية (وهو عدد قرى إقليم أولية السهلة)[25] وكذلك ما ورد في كتاب الفتاوى ضمن سؤال طرح على ابن رشد من شرق الأندلس بخصوص سوء تفاهم حصل بين سكان أربعة عشر قرية حول المسجد الواجب إقامة الصلاة فيه. يستفاد منه بأن أصغر القرى حجما كانت تضم اثنا عشر مسكنا. وأن أكبرها كانت تضم ثلاثين مسكنا[26].

وقد أكدت صحة هذه الأرقام حفريات قام بها الباحث الفرنسي أندري بازانا (André Bazzana) في بعض المواقع التابعة لمورسية وبلنسية[27]. وعمليات تنقيب مماثلة قام بها الباحث الإسباني بيدرو لويز إلوم (Pedro Lopez Elum) بمواقع ريفية تابعة لبلنسية[28]. أبانت فعلا بأن معظم قرى القرنين الخامس والسادس للهجرة كانت تتكون من مجموعات سكنية صغيرة الحجم ومتجانسة إلى حد ما. وكل مجموعة منها كانت تشكل وحدة استيطان (un centre de peuplement). تضم عددا متفاوتا من المنازل يصل في المتوسط إلى عشرة منازل.

---

[24] - هو أبو العباس أحمد بن عمر العذري الدلائي (توفي سنة 478هـ) صاحب كتاب ترصيع الأخبار وتنويع الآثار
والبستان في غرائب البلدان والمسالك إلى جميع الممالك، تحقيق عبد العزيز الأهواني، منشورات معهد الدراسات
الإسلامية، مدريد، 1965.

[25] - نفسه، ص.ص. 124-127.

[26] - فتاوى ابن رشد، مصدر سبق ذكره، السفر الثاني، ص.ص.783-785

[27] - تندرج هذه الحفريات في إطار أطروحة أنجزها لنيل الدكتوراه بجامعة ليون الثانية بفرنسا تحت عنوان:

Archéologie de l’habitat médiéval dans l’ancien shark al-Andalus, LyonII, 1990.

تتألف الأطروحة من جزئين بالإضافة إلى عدة ملاحق، وقد اعتمدنا على نسخة منها مرقونة.

[28] - أنظر خلاصات هذه الحفريات في مؤلفه:

La Alqueria Islamica en Valencia, Estudio arqueologico de Bofila, siglo XI a XIV, Edicion por federico Domenech, valencia, 1994.

أثبتت الحفريات السالف ذكرها أن المنازل كانت تأوي أسرا نواتية. بالنظر إلى صغر حجمها. فقد تراوحت مساحة بعضها بين 70 و80م^2. وكانت مؤلفة من ثلاث أو أربع غرف. في حين أن بعضها الآخر لم تتجاوز مساحته 40م^2. وكانت مؤلفة من غرفتين فقط.

وكانت كل مجموعة منازل ملحقة بمزدرع (associées à un terroir) وتابعة لمقاطعة ترابية (une circonscription territoriale) تمتد على مساحة تتراوح بين 100 و300 هكتار. وتفصل بين الوحدات بعضها البعض مسافات متفاوتة تتراوح عموما بين 1.5 و2 كلم. وقد كانت أعداد الوحدات متفاوتة تبعا لأهمية الموقع الذي تتواجد به. كما كانت تتراجع أو تتزايد تبعا لتراجع أو تزايد عدد السكان. وربما هذا ما نلمس صداه عند بعض المؤلفين. فقد جاء على لسان الزهري في معرض حديثه عن كورة تدمير أن بعض ضواحيها كانت توجد به ثلاثمائة قرية[29]. وأورد المقري نقلا عن "بعض المؤرخين" قوله: "إن عدد القرى التي على نهر إشبيلية اثنا عشر ألف قرية"[30]. وقوله: "وبخارج قرطبة ثلاثة آلاف قرية، في كل واحدة منبر وفقيه"[31].

[29] - أبو عبد الله محمد بن أبي بكر الزهري (توفي بعد سنة 560هـ)، كتاب الجعرافيا، تحقيق محمد حاج صادق، Bulletin d'études orientales، المجلد 21، دمشق، 1968 ،ص. 209

[30] - أبو العباس شهاب الدين أحمد بن محمد المقري التلمساني (توفي سنة 1041هـ)، نفح الطيب من غصن الأندلس
الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1968، المجلد الأول،
ص. 226.

[31] - نفسه، ص. 458.

المبحث السادس: الوفيات المفاجئة والوفيات الناتجة عن الأمراض في أوساط علماء الأندلس

تمثل الوفاة محطة المنتهى في مسيرة الإنسان في الحياة الدنيا. لينتقل بعدها إلى الآخرة. مصداقا لقوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾[1].

وتحدث الوفاة اليوم بشكل مفاجئ. كما تحدث نتيجة مجموعة أسباب كالأمراض والأوبئة وحوادث السير والحروب والزلازل. وقد كانت تحدث في عالم العصر الوسيط بصورة مفاجئة أو بسبب الحروب والانتفاضات الاجتماعية والمجاعات والأوبئة التي تحفل الحوليات التاريخية بمعلومات ضافية عن الخسائر البشرية التي كانت تترتب عنها.

وكانت الأمراض بدورها تمثل رافدا من روافد الوفاة خلال العصر الوسيط. لذلك ارتأينا أن نسلط الضوء في هذا المبحث على الوفيات المفاجئة وعلى الوفيات الناتجة عن الأمراض في أوساط فئة سوسيو – مهنية، هي فئة العلماء. واخترنا الأندلس كمجال جغرافي لتحقيق هذا المبتغى. وسنركز على العلماء الذين توفوا خلال عصري الخلافة والطوائف.

يجعل واضعو قواميس اللغة العربية، وعلى رأسهم ابن منظور، الوفاة مرادفة للمنية وللموت. وقد أورد في معجمه أن العرب كانوا يقولون **"توفي فلان أو توفاه الله أي قبض نفسه أو روحه"**[2].

والوفاة في جوهرها عبارة عن سكون يحدث خلال بضع ساعات. فيكون المقصود به النوم. وقد يستغرق فترة طويلة لا يحدث بعدها نهوض. فيكون المقصود به الموت. أي مفارقة الروح للبدن.

---

[1] - سورة العنكبوت، الآية 57.

[2] - لسان العرب لجمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور، طبعة دار صادر، بيروت، دون ذكر تاريخ الطبع، المجلد الخامس عشر، ص. 400، مادة "الوفاة".

ويحدث هذا السكون الطويل احيانا بغتة ودون سابق انذار. فيسمى بالوفاة المفاجئة، أو موت البغتة. ويرى واضعو الموسوعات الطبية الحديثة بأن هذا السكون يتم في خلال مدة اقصاها ساعة. ويحدث نتيجة توقف القلب عن اداء وظيفته أو نتيجة اضطرابات في الجهاز التنفسي[3].

أما المرض، الذي يعد أحد مسببات الوفاة، فيعرفه واضعو قواميس اللغة بكونه السقم، أو السقام، وهو نقيض الصحة[4]. يلحق الكائن الحي إنسانا كان أو حيوانا أو نباتا.

وتشترك المصنفات الطبية القديمة مع قواميس اللغة في تعريف المرض بكونه تحول من حالة صحية عادية إلى حالة غير عادية. ففي "قانون" ابن سينا الشهير نقرأ نقلا عن جالينوس: " بأن الصحة هي هيئة يكون فيها بدن الإنسان في مزاجه وتركيبه، بحيث تصدر عنه أفعال صحيحة سليمة، أما المرض فهو هيئة في بدن الإنسان مضادة للصحة"[5]. وتزيد كتب الطب الحديثة في الشرح. فيوضح نموذج من بينها، بأن المرض عبارة عن تفاعلات تحدث داخل جسم الإنسان بسبب عوامل داخلية أو خارجية مرتبطة بالمحيط. تترتب عنها تغيرات في الأنسجة، أو في الأعضاء. تظهر على شكل علامات أو أعراض[6].

يستغرق السقم، وما يتصل به من تفاعلات، فترة زمنية قصيرة أو متوسطة أو طويلة نسبيا، يتماثل بعدها المصاب للشفاء ويستعيد

---

[3] - أنظر على سبيل المثال:
Paul Brouardel, La mort et la mort subite, Paris, J.B. Baillière, 1895.

[4] - أنظر لسان العرب، المجلد السابع، مادة "مرض". ومختار الصحاح لمحمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي، إخراج دائرة المعارف في مكتبة لبنان، بيروت، 1986، مادة "سقم".

[5] - ابن سينا، أبو علي الحسين بن عبد الله بن علي (توفي سنة 428 ه.)، القانون في الطب، حققه ووضع حواشيه محمد أمين الضناوي، دار الكتب العلمية، بيروت، 1999، الجزء الأول، ص. 114.

[6] - يمكن العودة في هذا الشأن إلى كتاب :
Peter M. Marcuse, Disease, in search of remedy, Champaign, University of Illinois Press, 1996. p. 12.

صحته وعافيته. وقد يحدث العكس، فيودي السقم بحياة العليل ويلقى نحبه. وكما يلحق السقم شخصا ما بمفرده، فقد يحدث أحيانا أن يأخذ صبغة عدوى تصيب مجموعة أفراد. وفي أحايين أخرى يتحول المرض إلى وباء ينتشر في أوساط فئات عريضة من المجتمع.

ومن المعروف أن المرض لا يميز بين الذكور والإناث. كما لا يميز بين الأطفال والكهول، ولا بين الأغنياء والفقراء، ولا بين المشتغلين والعاطلين، رغم أن لكل فئة جنسية أو عمرية أو اجتماعية أو سوسيو – مهنية، أمراض خاصة بها. كما يتبين ذلك من خلال استعراض بعض العلل التي أودت بحياة عدد من علماء الأندلس.

وقد اعتمدنا في استعراض هذه العلل على مجموعة من كتب التراجم التي عرف واضعوها بالعلماء الذين عاشوا خلال عصري الخلافة والطوائف. من بينها كتاب "تاريخ علماء الأندلس" لابن الفرضي[7]، وكتاب "جذوة المقتبس" للحميدي[8] وكتاب "ترتيب المدارك" للقاضي عياض[9] وكتاب" الصلة" لابن بشكوال. وتتضمن هذه المصنفات، رغم تفاوت قيمتها، معلومات غزيرة ودقيقة وردت في سياق حديث واضعيها عن العلماء الذين ترجموا لهم في تلك المصنفات. وقد حفزتنا تلك المعلومات على تناول الموضوع الذي ارتأينا إثراء مادته بالعودة إلى بعض مؤلفات أعلام الطب العربي – الإسلامي.

ويتضح من خلال المادة التي توفرت لدينا، بأن عددا من العلماء الذين سيرد ذكر أسمائهم في هذا المبحث لقوا نحبهم **بغتة** من دون

---

[7] - أبو الوليد عبد الله بن محمد بن يوسف بن نصر الأزدي (توفي سنة 403 ه.)، تاريخ علماء الأندلس، تحقيق إبراهيم الأبياري، دار الكتاب المصري، القاهرة ودار الكتاب اللبناني، بيروت، 1989، ثلاثة أجزاء.

[8] - أبو عبد الله محمد بن فتوح الأزدي (توفي سنة 488 ه.)، جذوة المقتبس في تاريخ علماء الأندلس، تحقيق ابراهيم الأبياري، دار الكتاب المصري، القاهرة ودار الكتاب اللبناني، بيروت، 1989، جزءان.

[9] - أبو الفضل عياض بن موسى اليحصبي (توفي سنة 544 ه.)، ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، ضبطه وصححه محمد سالم هاشم، دار الكتب العلمية، بيروت، 1998، جزءان.

علة ظاهرة، ببنما توفي مجموعة منهم نتيجة **علل ظاهرة**، أهمها الفالج والخدر والأورام والطاعون.

أولا: الوفيات المفاجئة

يورد مؤلفو كتب التراجم في عدة مواضع، وهم يتحدثون عن وفاة العلماء المترجم لهم، عبارة "عاجلته منيته فتوفي" سنة كذا. ويوردون أحيانا أخرى عبارة "توفي فجأة" يوم كذا من سنة كذا، أو عبارة "توفي فجأة" سنة كذا (من دون ذكر اليوم). وتعد عبارة "توفي فجأة" العبارة الأكثر تداولا. فيذكر ابن الفرضي، في ختام التعريف بأبي عمر أحمد بن إبراهيم بن عبد الرحمن الكلاعي، أنه "توفي فجأة يوم الثلاثاء لخمس بقين من جمادى الأولى سنة 391 هجرية"[10]. ويفيد ما ذكره بأن العالم المترجم له **توفي بغتة** دون أن تظهر عليه أعراض مرض معين. وهذا ما يعبر عنه ابن بشكوال بوضوح وهو يعرف بالمقرئ القرطبي أبي القاسم عبد الرحمن بن الحسن بن سعيد الخزرجي. حيث يذكر بأنه توفي يوم الخميس لست بقين من شهر المحرم سنة 446 ه. "وكان موته فجأة من غير علة دارت عليه"[11]. ثم يذكر عند التعريف بقاضي الجماعة بقرطبة، أبي جعفر عبد الصمد بن موسى بن هذيل البكري، أنه "صرف عن القضاء، ولزم بيته إلى أن هلك في أجمل أحواله يوم الأربعاء أول أيام ربيع الآخر سنة 495 ه."[12]. ويعود ليؤكد في نفس الموضع بأن أبا جعفر عبد الصمد، توفي "من غير علة دارت عليه بعد أن بلغ من السن نحو السبعين عاما"[13].

---

[10] - ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، مصدر سبق ذكره، الجزء الأول، ترجمة 194، ص. 123.

[11] - ابن بشكوال، كتاب الصلة، الجزء الثاني، ترجمة 717، ص.ص. 493-494.

[12] - نفس المصدر ونفس الجزء، ترجمة 812، ص. 550.

[13] - نفسه، ص. 551.

وانطلاقا من هذه النماذج، ومن نماذج أخرى سنستعرضها لاحقا، نستطيع القول بأن عددا من علماء القرنين الرابع والخامس للهجرة توفوا من غير أن تصيبهم علة ظاهرة. وهذا النوع من الوفاة هو ما يتحدث عنه بعض الفقهاء القدامى باسم "موت الفجأة" أو "موت الفجاءة".

فما هي حقيقة موت الفجأة من وجهة نظر هؤلاء الفقهاء ومن وجهة نظر أطباء العصر الوسيط؟ ومن هم علماء الأندلس الذين قدر لهم أن يتوفوا من غير أن تبدوا عليهم أعراض علة؟

ننبه بأن قولنا بان الفقهاء القدامى تحدثوا عن موت الفجاة، لا يعني بأنهم خصوا هذا النوع من الوفاة بتآليف. بل على العكس من ذلك، ما كتبوه عنه لا يتعدى بضعة أسطر جاءت على شكل شروح لحديث نبوي في الموضوع. وقد أورد البخاري نص الحديث في "صحيحه" تحت عنوان: "باب موت الفجاءة، البغتة". جاء فيه: "حدثنا سعيد بن أبي مريم حدثنا محمد بن جعفر قال: أخبرني هشام عن أبيه عن عائشة رضى الله تعالى عنها أن رجلا قال للنبي صلى الله عيه وسلم إن أمي إفتلتت نفسها وأظنها لو تكلمت تصدقت فهل لها أجر إن تصدقت عنها قال: نعم"[14].

وقد استعرض ثلة من الفقهاء القدامى، أمثال ابن حجر العسقلاني[15] وشهاب الدين القسطلاني[16]، شروحا لهذا الحديث. تناولوا فيها معاني عبارة "إفتلتت نفسها" وما يرادفها في اللغة. كما

---

[14] - أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري (توفي سنة 256 ه.)،صحيح البخاري، دون ذكر اسم المحقق، دار ابن كثير، دمشق- بيروت، 2003، حديث رقم 1388، ص. 335.

[15] - هو أبو الفضل احمد بن علي بن محمد ابن حجر العسقلاني (توفي سنة 852). اشتهر بمؤلفه فتح الباري بشرح صحيح البخاري، حققه وعلق عليه عبد القادر شيبة الحمد، منشورات مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، 2001، 14 مجلدا.

[16] - هو أبو العباس أحمد بن محمد بن أبي بكر شهاب الدين القسطلاني 'توفي سنة 923 ه.). وضع مصنفا على غرار فتح الباري يعرق بإرشاد الساري إلى شرح صحيح البخاري، المطبعة الأميرية، بولاق، القاهرة، 1905، 10 مجلدات.

أثاروا مسألة "الخوف من موت الفجأة" واختلاف القول في "كراهته"، ومسألة ما إذا كان "راحة للمؤمن وأسفا على الفاجر"؟.

وما يهمنا من تلك الشروح، فيما نحن بصدده، هو أنها أجمعت على أن "موت الفجأة" ينطوي على عنصري الهجوم والمباغتة. فكأن الذي توفي من غير سبب ظاهر، يكون الموت قد هاجمه بغتة فأزهق روحه.

والراجح أن عنصرا المهاجمة والمباغتة اللذان يميزان موت الفجأة، هما اللذان جعلا ثلة من الفقهاء يتوقفون عند مسألة على جانب من الأهمية تتعلق بما إذا كان الموت المفاجئ يعني نهاية الحياة. ولذلك أوصوا بضرورة التريث في غسل الميت إذا توفي بغتة من دون أن تكون به علة "لاحتمال أن تكون به سكتة"، حتى يتيقن أولوا أمره من وفاته، وذلك بتغير رائحته أو ظهور علامات تفيد بمفارقة الروح لبدنه[17].

ولا نحتاج إلى التأكيد بان وجهة نظرهم كانت رائدة. على اعتبار أنه يحدث أن "يموت" شخص بشكل مباغت. فيتقدم من يقوم بغسله وتجهيزه استعدادا لدفنه. وهو في حقيقة الأمر ليس ميتا، وإنما في غيبوبة عميقة. ولا زالت تحدث في عصرنا هذا أخطاء من هذا القبيل، حين يتعرض أحد الأشخاص لنوبة قلبية، أو لحادث ما، فتتوقف حركته التلقائية. ويعد ميتا وهو في الحقيقة في غيبوبة عميقة.

والجدير بالإشارة أن ما قالا به أولائك الفقهاء يتضمن عبارة "السكتة" رغم أنهم لم يحددوا طبيعتها. وقد تطرق علماء الطب المسلمون القدامى لموضوعها. واستعملوا في مؤلفاتهم عبارة

---

[17] - أنظر في هذا الشأن كتاب روضة الطالبين وعمدة المفتين لأبي زكريا يحي بن شرف النووي الدمشقي (توفي سنة 676 ه.)، نسخة تحت إشراف زهير الشاوش، منشورات المكتب الإسلامي، بيروت 1991، الجزء الثاني، باب غسل الميت، ص. 98.. وكتاب شرح منتهى الإرادات وفائق أولي النهي لمنصور بن يونس بن إدريس البهوتي (توفي سنة 1051 ه.)، تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، بيروت، 2000، الجزء الثاني، ص. 76.

"السكتة". ونعتوها بكونها نوع من "السبات". وكان أبرزهم الرازي[18] وابن سينا[19]. تحدث عنها الأول في بضع فقرات من كتاب "الحاوي في الطب". وخصها الثاني بفصل من أربع صفحات في كتابه "القانون في الطب". فذكر الرازي بأنها تحدث من جراء "امتلاء العروق والشرايين، امتلاء لا يمكن معه [للشخص] أن يتنفس. وعند ذلك يبرد البدن البتة حتى يعدم الحس والحركة"[20]. ثم عاد في موضع آخر ليؤكد، نقلا عن الطبيب والفيلسوف اليوناني جالينوس قوله: بأن "السكتة هي أن يعدم البدن كله **بغتة** الحس والحركة خلا حركة التنفس وحدها. فإن هو عدمها، فذلك أعظم وأدهى ما يكون منها"[21]. واتفق العالمان بأن "السكتة" تكون قوية، إذا كان الشخص يتنفس بصعوبة. وتكون متوسطة نسبيا، إذا كان يتنفس دون بذل جهد كبير[22]. تؤدي الحالة الأولى الى الوفاة، بينما يصعب علاج الحالة الثانية. وأكد الرازي أن عضل صدر المصاب "بالسكتة" يستمر في الحركة نظرا لشدة الحاجة للتنفس[23]. كما اقر بأن من بين أسباب حدوث "السكتة" "ارتطام الرأس أو وجود ورم في الدماغ"[24]، أو "امتلاء بطون الدماغ رطوبة بلغمية"[25].

ولا مراء في أن الرازي وابن سينا كانا محقين فيما ذهبا إليه بخصوص السكتة. فقد تحدث عنها أطباء القرن التاسع عشر في

---

[18] - هو أبو بكر محمد بن يحي بن زكريا الرازي (توفي سنة 313 ه.)، طبيب العرب الأول واضع كتاب الحاوي في الطب، راجعه وصححه محمد إسماعيل محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، 2000، ثمانية مجلدات.

[19] - هو أبو علي الحسين بن عبد الله بن علي (توفي سنة 428 ه.)، واضع كتاب القانون في الطب، الذي نشر إحدى نسخه ووضع حواشيها محمد أمين الضناوي، دار الكتب العلمية، بيروت، 1999، ثلاثة أجزاء.

[20] - أنظر كتابه الحاوي في الطب، المجلد الأول، ص.12.

[21] - نفسه، ص. 13.

[22] - الرازي، الحاوي في الطب، ص. 13. وابن سينا، القانون في الطب، الجزء الثاني، ص. 132.

[23] - الرازي، الحاوي في الطب، المجلد الأول، ص. 13.

[24] - نفسه، ص. 13.

[25] - نفس المصدر والصفحة.

أوربا باسم "l’apopléxie" و"apoplexy". وقام احدهم، وهو الطبيب الباحث إتيين مولان (Étienne Moulin)، بعدة أبحاث وتحريات ميدانية في موضوعها. أثبت من خلالها بأن "السكتة" إصابة تلحق الدماغ على حين غرة. وغالبا ما يكون ضحاياها من كبار السن[26]. كما أكدت الخلاصات التي انتهى إليها الأطباء منذ بضع سنوات بأنها واحدة من بين إصابات أخرى تلحق رأس الإنسان. بعضها يتعرض لها المخ، وأخرى يتعرض لها المخيخ، وأخرى يتعرض لها جذع الدماغ. وتعد هذه الأخيرة أصعب الإصابات، لأنها تؤدي إلى "موت الدماغ"، أي إلى الموت النهائي[27]. وقد تحدث هذه الإصابة، وتستمر مع ذلك حركة القلب والتنفس لفترة[28] قد تطول نسبيا باستعمال أجهزة التنفس الاصطناعي.

وإذا كانت الحوادث، وأهمها حوادث السير، السبب الرئيسي وراء موت الدماغ، فثمة أسباب أخرى، من بينها الأورام التي تلحق الدماغ والنزيف الداخلي[29]. وهذه الأسباب هي التي قال بها الرازي وابن سينا.

والغريب في الأمر أن الأطباء العرب وجمهور الفقهاء المعاصرين، تبنوا ما انتهى إليه الطب وعلم التشريح في الغرب من خلاصات في موضوع "موت الدماغ"[30]، ولم يعيروا أي اهتمام للاستنتاجات التي توصل إليها الرازي وابن سينا في موضوع

---

[26] - أنظر في هذا الشأن كتابه:

Traité de l’apopléxie ou hémorragie cérébrale, Paris, J.B. Libraire, 1819

[27] - يمكن العودة بهذا الخصوص لمقال حمد محمد الهاجري، "موت الدماغ بين الفقهاء والأطباء"، مجلة كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة قطر، العدد 24، سنة 2006ن ص-ص. 291-338. ومقال ندى قياسة، "الموت الدماغي بين الطب والدين"، مجلة جامعة دمشق للعلوم الاقتصادية والقانونية، العدد الأول، سنة 2010، ص-ص. 480-500.

[28] - نفس المقالين، ص. 294 بالنسبة للأول وص. 486 بالنسبة للثاني.

[29] - نفسه.

[30] - تم تبني هذه الخلاصات من قبل المجمع الفقهي الإسلامي التابع لرابطة العالم الإسلامي، ومن قبل مجمع الفقه الإسلامي المنبثق عن منظمة المؤتمر الإسلامي. أنظر مقال حمد محمد الهاجري الذي أحلنا عليه، ص. 294.

"السكتة". مع أن سكتة الدماغ التي تحدثا عنها تعد مقدمة نحو موته، وبالتالي نحو نهاية الحياة.

ومهما يكن من أمر، ففي ضوء ما تقدم، نستطيع القول بأن "موت الدماغ" كان وراء وفاة أولائك العلماء الذين ذكر المترجمون لهم بأنهم "توفوا فجأة" من دون أن تبدو عليهم أعراض مرض قبل الوفاة. وكان من بينهم:

- أبو سلمة الفضل بن سلمة بن جرير الجهني. من أهل بجانة. يذكر الخشني في التعريف به، أنه كان رجلا فاضلا. سمع ببجانة والبيرة. ورحل الى المشرق. وأقام به نحو عشرة أعوام. عاد بعدها الى الأندلس. فاستوطن بجانة. "وانكب على النظر والمناظرة. وتصرف في الدواوين المؤلفة على مذهب مالك وأصحابه (...) وأقام سوقا عظيما للعلم في بجانة. وظل على حاله حتى توفي فجأة سنة 319 هجرية"[31].

- أبو بكر محمد بن إبراهيم بن عيسى الكناني. يعرف بابن حيويه. وهو من أهل قرطبة. كان حافظا للفقه. عالما بالأقضية والأحكام. تولى الشورى عدة مرات. و"توفي فجاة سنة 328 هجرية"[32].

- أبو محمد عبد الله بن محمد بن عبد الله بن أبي دليم. من أهل قرطبة. يذكر ابن الفرضي أنه "كان من العارفين بعلم الحديث، ضابطا لما يرويه. بصيرا بالاعراب. "ولاه الأمير المستنصر بالله قضاء البيرة وبجانة (...). ثم ولاه أحكام الشرطة. وتوفي فجأة في القصر[الخلافي] بمدينة الزهراء في إحدى ليالي جمادى الأول سنة 351 هجرية. وسيق إلى داره ليلا"[33]. ويؤكد القاضي عياض بأن

---

[31] - أبو أبو عبد الله محمد بن حارث الخشني (توفي سنة 361 ه.)، أخبار الفقهاء والمحدثين، تحقيق ماريا لويسا آبيلا ولويس مولينا، منشورات المجلس العلى للأبحاث العلمية ومعهد التعاون مع العالم العربي، مدريد، 1991، ترجمة 405، ص. 297. أنظر أيضا ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، الجزء الثاني، ترحمة 1040، ص. 593.

[32] - ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، الجزء الثاني، ترجمة 1219، ص. 700.

[33] - نفس المصدر، الجزء الأول، ترجمة 606، ص. 299.

أبا محمد هذا، توفي فعلا "فجاة بالقصر". ويضيف بأنه أصيب قبل وفاته نحو عام بعلة "فالج. ثم استقل شيئا" حتى وفاته[34].

- أبو القاسم خالد بن سعد. من أهل قرطبة. كان إماما في الحديث يفتخر به أهل الأندلس. ألف كتابا في رجال أهل الأندلس. أهداه للخليفة المستنصر بالله. "توفي فجأة ليلة السبت لحمس خلون من ذي الحجة سنة 352 هجرية. وهو ابن نيف وستين سنة"[35].

- أبو محمد قاسم بن محمد بن قاسم بن محمد بن يسار. سكن قرطبة. وهو من بيت علم ومعرفة حسب إفادات القاضي عياض[36]. كان بصيرا بالشروط. تولى خطة الوثائق. ثم تولى قضاء استجة وقبرة واشبيلية، وأحكام الشرطة بقرطبة[37]. وظل محمود السيرة الى أن "توفي فجأة سنة 353 هجرية. أصابته سكتة فمات"[38].

- أبو بكر يحي بن عبد الله بن محمد. يعرف بالمغيلي. وهو من أهل قرطبة. كان محدثا ومؤلفا جيد النظر والاستنباط. "توفي فجأة يوم الخميس لعشر خلون من شهر ربيع الأول سنة 362 هجرية"[39].

- أبو القاسم أحمد بن محمد بن يوسف المعافري. من أهل قرطبة. رحل الى المشرق سنة 342 هجرية، حسب إفادات ابن الفرضي. وعاد بعد ثلاثة سنوات ليحدث الناس. فعينه الخليفة المستنصر بالله مؤدبا لولي العهد المؤيد بالله. ثم ولاه أحكام الشرطة. "توفي في صفر سنة 368 هجرية. سقط في الحمام. فكان ذلك سبب موته"[40]. وكان مولده في ذي الحجة سنة 310 هجرية.

- أبو رجاء زكرياء بن محمد مولى لب بن فضل. وهو من أهل تدمير. كان من الفقهاء الصالحين. رحل إلى المشرق وعاد بعلم كثير.

---

34 - أنظر ترتيب المدارك، المجلد الثاني، ص. 108.
35 - ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، الجزء الأول، ترجمة 396، ص. 240.
36 - أنظر ترتيب المدارك، المجلد الثاني، ص. 109.
37 - نفس المصدر والصفحة.
38 - نفس المصدر والصفحة.
39 - ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، الجزء الثاني، ترجمة 1592، ص. 918.
40 - نفس المصدر، الجزء الأول، ترجمة 164، ص. 107.

وسكن مرسية. "توفي فجأة سنة 371 هجرية وهو ابن ثمانين سنة"[41].

- أبو زكريا يحي بن مالك بن عائذ بن كيسان. وهو من أهل طرطوشة. يذكر ابن الفرضي أنه رحل الى المشرق سنة 347 هجرية. ومكث به مدة طويلة جمع خلالها علما عظيما. وعاد الى الأندلس سنة 369 هجرية[42].(...) ولد سنة 300 هجرية. وتوفي فجأة ليلة السبت لأربع بقين من رجب سنة 375 هجرية"[43].

- أبو عبد الله محمد بن عامر بن محمد الخنعي. كان معروفا بابن البلوطي. رجل صالح من أهل شذونة. سكن بلدة قلسانة وكان يحدث أهلها. واشتهر بينهم بالفصاحة والأدب. "توفي فجأة سنة 385 هجرية[44].

- أبو عمر احمد بن إبراهيم بن عبد الرحمن الكلاعي المعلم. وهو من أهل قرطبة. وسكن شقندة. "كان حافظا للمسائل. عاقدا للشروط (...) توفي فجأة يوم الثلاثاء لخمس بقين من جمادى الأولى سنة 391 هجرية"[45].

- أبو عبد الله محمد بن سعدون. كان يعرف بابن الزنوني. وهو من أهل

حصن مورة من أعمال باجة. يذكر ابن الفرضي أنه كان رجلا صالحا زاهدا على دراية بعلوم الحديث[46]. "توفي بحضرة بطليوس فجأة يوم الأربعاء منصف جمادى الأولى سنة 392 هجرية. وكان مولده سنة 322 هجرية"[47].

---

41 - نفسه، الجزء الأول، ترجمة 450، ص. 273.
42 - أنظر تاريخ علماء الأندلس، الجزء الثاني، ترجمة 1597، ص. 922.
43 - نفس المصدر و الجزء والصفحة.
44 - ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، الجزء الثاني، ترجمة 1370، ص. 782.
45 - نفسه، ترجمة 196، ص. 59. أنظر أيضا القاضي عياض، ترتيب المدارك، الجزء الثاني، ص. 263.
46 - تاريخ علماء الأندلس، الجزء الثاني، ترجمة 1386، ص. 791.
47 - نفس المصدر والجزء والصفحة.

- أبو المطرف عبد الرحمن بن محمد بن احمد الرعيني. يعرف بابن المشاط. وهو من أهل قرطبة. يذكر القاضي عياض أنه "كان من أهل العلم والفهم والمعرفة"[48]. ويضيف ابن بشكوال أنه "كان من الساعين للدارين الأولى والآخرة (...) ولاه المنصور بن أبي عامر أحكام الشرطة وخطة الوثائق السلطانية وقضاء استجة وقرمونية ومرور وتاكرنا. ثم صرفه وولاه أحكام السوق وقضاء جيان ثم قضاء بلنسية وأعمالها (...) وتوفي قجأة سنة 397 هجرية في أيام المظفر عبد الملك بن أبي عامر"[49].

- أبو عمر احمد بن عبد الملك بن هاشم الاشبيلي. يعرف بابن المكوي. من أهل اشبيلية. سكن قرطبة. وأضحى أحد كبار مفتيها، حسب إفادات القاضي عياض وابن بشكوال. ولد سنة 324 هجرية. "وتوفي فجأة ليلة السبت لسبع خلون من جمادى الأولى سنة 401 هجرية"[50].

- أبو محمد إسماعيل بن عبد الرحمن بن احمد القرشي الزمعي العامري المصري. وهو من الغرباء. "قدم الأندلس من مصر في ذي القعدة سنة 356

هجرية[51]. كان من أهل العلم. سمع عنه الكثير. "وتوفي فجأة باشبيلية يوم عيد الفطر سنة 421 هجرية"[52].

- أبو العباس أحمد بن أيوب بن أبي الربيع الالبيري. من أهل إلبيرة. رحل الى قرطبة فسكنها. اشتهر بالوعظ الذي وضع فيه عدة تصانيف. فصار معروفا بالواعظ. يذكر القاضي عياض وابن

---

48 - أنظر ترتيب المدارك، الجزء الثاني، ص. 263.

49 - أنظر كتاب الصلة، الجزء الثاني، ترجمة 685، ص. 464. يذكر القاضي عياض أنه توفي سنة 396 هجرية في مجلس نظره.

50 - القاضي عياض، ترتيب المدارك، الجزء الثاني، ص. 241. وابن بشكوال، الصلة، الجزء الأول، ترجمة 38، ص. 54.

51- ابن بشكوال، الصلة، الجزء الثاني، ترجمة 249، ص. 176.

52 - نفس المصدر والصفحة.

بشكوال نقلا عن ابن حيان، أنه ولد سنة 360 هجرية. "وتوفي فجأة بالجامع سنة 432 هجرية"[53].

- أبو القاسم عبد الرحمن بن الحسن بن سعيد الخزرجي المقرئ. وهو من اهل قرطبة. وأوردنا اسمه عند مقدمة الحديث عن موت الفجأة. يذكر ابن بشكوال وهو يعرف به أنه كان من العلماء الأفاضل. رحل إلى إفريقية. فاقرأ القرآن بجامع عمرو بن العاص بالقيروان مدة. ثم رحل عنها إلى المشرق. فتجول بين أمصاره نحوا من عشرين عاما. ثم "عاد الى قرطبة التي واظب في جامعها على إقراء القرآن والإمامة بالناس. إلى أن توفي في شهر المحرم لسبع بقين منه سنة 446 هجرية. وكان موته فجأة من غير علة دارت عليه"[54].

- أبو مروان عبيد الله بن محمد بن عبيد الله بن مالك. من أهل طليطلة. رحل الى قرطبة واستوطنها وتفقه بها. يذكر القاضي عياض أنه اشتغل واعظا ومشاورا أحيانا رغم أنه لم يضع مؤلفات. ولكنه كان محط تقدير من قبل بعض الشيوخ أمثال أبي الأصبغ عيسى بن سهل[55]. "توفي ليلة الثلاثاء حادي عشر جمادى الأولى سنة 460 هجرية، عام وفاة ابن القطان، بشبه الفجأة"[56]. فقد آوى الى فراشه بعد عودته من المسجد الذي أدى به صلاة العشاء. "فقبض الله روحه أسهل قبض"[57].

- أبو جعفر احمد بن محمد بن رزق الأموي. من أهل قرطبة. ولد سنة 427 هجرية. يذكر ابن بشكوال أن أبا جعفر هذا "توفي فجأة ليلة الاثنين لخمس بقين من شوال سنة 477 هجرية"[58]. ويضيف أنه قرأ في بعض تآليف الفقيه أبي الحسن بن مغيث، أن

---

[53] - أنظر ترتيب المدارك، الجزء الثاني، ص. 310. وكتاب الصلة، الجزء الأول، ترجمة 100، ص. 89.

[54] - الصلة، الجزء الثاني، ترجمة 716، ص. 493.

[55] - أنظر ترتيب المدارك، المجلد الثاني، ص. 356.

[56] - نفس المصدر والصفحة.

[57] - نفس المصدر والصفحة.

[58] - ابن بشكوال، الصلة، الجزء الثاني، ترجمة 140، ص. 115.

أحد طلبة أبا جعفر احمد اخبره أنه سمع شيخه يقول في سجوده في صلاة العشاء ليلة وفاته "اللهم أمتني موتة هينة. فكان ذلك"[59].

- أبو المطرف عبد الرحمن بن محمد بن سنة الأنصاري. من أهل طليطلة. "كان حافظا للمسائل وعلى دراية بالفتوى. امتحن في آخر عمره مع أهل بلده. فرحل الى بطليوس [مغتما]. وتوفي بها فجأة في عقب صفر سنة 478"[60].

- أبو القاسم عبد العزيز بن محمد بن عتاب بن محسن. من أهل قرطبة. ولد سنة 440 هجرية. كان حافظا للفقه وبصيرا بالفتوى، حسب ابن بشكوال. كما اشتغل بصياغة عقود الشروط. وقدم للشورى. ولكنه "لم يعمر طويلا. فقد توفي فجأة يوم الجمعة ليلا منتصف جمادى الأولى سنة 491 هجرية"[61].

- أبو جعفر عبد الصمد بن موسى بن هذيل بن تاجيت البكري. أوردنا اسمه في مقدمة الحديث عن الوفاة المفاجئة. وهو من الغرباء الوافدين إلى الأندلس. ولد سنة 433 هجرية. كان عالما ورعا. شغل منصب قضاء الجماعة بقرطبة. "ثم صرف عن القضاء. ولزم بيته إلى أن هلك على أجمل أحواله، يوم الأربعاء أول أيام ربيع الآخر سنة 495 هجرية، من غير علة دارت عليه"[62] .

ولا باس من الإشارة في أعقاب هذا الجرد الذي خصصناه للعلماء الذين ربطنا وفاتهم المفاجئة "بموت الدماغ"، الى أن بعض العلماء توفوا هم الآخرين "فجأة" ولكن ليس من جراء إصابات في الدماغ، وإنما لأسباب أخرى أفادنا بها ابن بشكوال وهو يعرف بهم. ويتعلق الأمر بالعلماء الآتية أسماؤهم:

- أبو إسحاق إبراهيم بن مبشر بن شريف البكري. قدم من المغرب الأقصى الى الأندلس. واستقر بقرطبة التي اتخذ بها دكانا

---

[59] - نفس المصدر والصفحة.

[60] - نفس المصدر ونفس الجزء، ترجمة 738، ص. 515.

[61] - نفس المصدر ونفس الجزء، ترجمة 799، ص. 542.

[62] - نفسه، الجزء الثاني، ترجمة 812، ص. 550.

قرب المسجد الجامع. كان يقرئ به ويعلم المبتدئين. و"كان ذا جسم. واحتجم. ففار دمه ولم ينقطع حتى مات رحمه الله سنة 395 هجرية"[63].

- أبو محمد بن اعبس الفقيه. من أهل بلنسية. ذكر ابن بشكوال، وهو يعرف بأبي الوليد سليمان بن عبد الملك العبدري البلنسي، أن أبا محمد بن أعبس هذا "توفي فجأة على اثر جبن طري أكله في شعبان سنة 410 هجرية"[64].

- أبو محمد عبد الله بن سعيد بن عبد الله الأموي. كان يعرف بابن الشقاق. وهو من أهل قرطبة. "كان فقيها جليلا. حاز الرياسة في الشورى والفتيا في قرطبة. كما تولى قضاء الكور حسب إفادات ابن بشكوال[65]. وحدَث في بعض أيام سنة 426 هجرية، أن "رمدت عينه. فأشير عليه بالفصد. ففصد والوقت حار. فانهدت قوته. وفنيت رطوبته. وتسكع في علته ثلاثا. ثم قضى نحبه رحمه الله"[66].

ثانيا: الوفيات الناتجة عن علل ظاهرة

لقي عدد مهم من العلماء ربهم بصورة مفاجئة كما رأينا. أي من غير أن تظهر عليهم علل واضحة كما يذكر واضعو كتب التراجم. وبالمقابل، توفي عدد آخر من العلماء نتيجة أمراض مختلفة. أفصح المترجمون عن بعضها. ولم يقدموا إشارات عن بعضها اللآخر. وإن أهم الأمراض "الظاهرة" التي جعلوها سببا في وفاة عدد من علماء عصري الخلافة والطوائف، توزعت بين الفالج والخدر والقرح السرطانية كما سنرى في الفقرات الموالية.

---

63 - أنظر كتاب الصلة، الجزء الثاني، ترجمة 195، ص. 147.
64 - نفس المصدر، الجزء الثالث، ترجمة 1560، ص. 1002.
65 - نفس المصدر، الجزء الثاني، ترجمة 592، ص. 408.
66 - نفس المصدر، ص. 409.

1) الوفيات الناتجة عن علة الفالج

تورد معاجم اللغة العربية فعل فلج بمعنى قسم. فيقال: "فَلَج الشيءً بينهما يَفْلِجُه، فَلْجاً: أي قَسَمَه إلى نصْفَيْنِ". ويقال: "فَلَجْتُ الشيء فلِجَيْنِ'، أَي شَقَقْتُه نِصفين. الواحد فَلْجٌ، وفِلْجٌ. والجمع فُلُوجُ[67]. وتطلق كلمة "الفَلْجُ" و"الفَالِجُ" على البعير ذو السنامين، لأن سنامه في الأصل سنام واحد مقسم إلى نصفين[68].

ومن البعير، استعمل العرب اسم "الفالج" لنعت الداء الذي يصيب الإنسان فيشقه إلى نصفين، طولا من رأسه إلى قدميه. نصف يتحرك ونصف عديم الحركة. ويسمى داء الفالج اليوم في الأوساط الطبية باسم: "الشلل النصفي" أو "الشلل الشقي". وهو داء قديم قدم الإنسانية. تحدث عنه الطبيب والفيلسوف اليوناني جالينوس حسب المعلومات التي نقلها عنه الرازي. وقد أدرج ما نقله عنه وما استقاه من أبحاثه وتحرياته الخاصة عن هذا الداء، ضمن "الباب" المتعلق "بالسكتة والخدر والرعشة وعسر الحس والحركة"[69] وجملة الأمراض المتعلقة بما يعرف بالجهاز العصبي.

فذكر أن الفالج، في صورته البسيطة، عبارة عن استرخاء يلحق عضوا واحدا بسب إصابة قوية (رضة[70]) أثرت في عصب العضو، أو بسبب برودة شديدة أو بسبب ورم. فقد تصاب يد شخص، لسبب من هذه الأسباب، فتسترخي. وقد تصيب برودة شديدة مثانة الشخص، فيسترخي عضلها. ويحدث عنده تبول لا إرادي[71].

---

67 - أنظر لسان العرب لابن منظور. معجم سبقت الإحالة عليه، مادة "فلج"، المجلد الثاني.

68 - نفسه.

69 - أنظر الحاوي في الطب، مصدر سبقت الإحالة عليه، المجلد الأول، ص. 7 وما يليها.

70 - رضة (بتشديد الضاض)، جمعها رضوض. وهي عبارة عن كدمات تصيب العضو من دون أن تكون به جروح.

71 - الحاوي في الطب، المجلد الأول، ص. 7.

ونقل في هذا الإطار رواية عن جالينوس، مفادها أن رجلا وقع من على دابة على ظهره. وفي اليوم الثالث بعد الإصابة، فقد الصوت واسترخت رجلاه. ولم تلحق أية آفة يداه. فعمد بعض الأطباء، عن جهل، إلى وضع أدوية على رجليه. فمنعهم جالينوس عن ذلك. واهتم بالمصاب. فعالج جزء النخاع الواقع أسفل العنق لعلمه بأنه تورم. فلما سكن ذلك الورم في اليوم السابع، استعاد المريض صوته وحركة رجليه[72].

ويفيدنا الرازي بأن الفالج قد يأخذ صورة معقدة وصعبة، حين يصاب الرأس لسبب من الأسباب السابق ذكرها. وتلحق تلك الإصابة الدماغ. وبما أن هذا الأخير يتألف من جزأين، فإذا أصيب الجزء الأيمن على سبيل المثال، يسترخي الجانب الأيسر من الوجه. ويحدث الفالج في النصف الأيسر من البدن. وإذا همت الإصابة الدماغ بأكمله حدثت السكتة.

وتحدث ابن سينا بدوره عن الفالج[73]. فنبهنا في البدء، انطلاقا من صور الاسترخاء التي أشار إليها الرازي، بأن **انعدام الحس والحركة** في قسم من الرأس ومن الوجه ومن البدن حتى القدم، يمثل الصورة الحقيقية التي يأخذها الفالج. وتتطابق هذه الصورة مع دلالات فعل فلج التي استعملها العرب القدامى بمعنى شق.

وأوضح على غرار الرازي، بأن هذا الداء يمكن أن يأخذ صورا أخرى. هي تلك التي سبق أن توقف عندها الرازي. كما أكد بأن الفالج إذا أصاب الرأس، يتحول إلى "سكتة".

ويتفق العالمان بأن معالجة الفالج، بإعادة الحس والحركة للعضو المفلوج، ممكنة ومستحيلة في ذات الوقت تبعا للصورة التي يأخذها

---

72 - نفسه، ص. 8.

73 - أنظر كتاب القانون في الطب، مصدر سبقت الإحالة عليه،الجزء الثاني، ص. 136 وما يليها.

الداء[74]. فإذا عدم عضو من الأعضاء الحس والحركة من جراء ضربة قوية، أو قطع أصاب عصبا غائرا، فالحالة آنئذ لا ينفع معها تدبير. وإن حدث ذلك من جراء ورم أو سواه، يمكن استدراك الأمر، ولو بصعوبة، باستعمال الأدوية والحقن. ويراعى التركيز في العلاج على المنطلق الذي يخرج منه العصب في اتجاه العضو المصاب لا على العضو في حد ذاته. وإذا تعلق الأمر "باسترخاء" شمل أعضاء البدن، يجب اللجوء للفصد أو للكي، اللذان يجب أن يطالا مواضع عدة ومتفرقة من جسم المصاب. ويراعى بعد الفصد أو الكي، وضع ضمادات مكونة من مواد حارة قصد إعادة الحركة للأعضاء.

وفي ضوء ما ذكرناه عن الفالج الشقي، وعن الصور الأخرى التي يمكن أن يأخذها الفالج عموما، نرجح أن يكون **الفالج الشقي** وراء وفاة العلماء الذين سيأتي ذكرهم لاحقا. ونميل إلى هذا القول، لأن انعدام الحس والحركة في الجزء الأيمن أو الأيسر من البدن، بدءا من الدماغ وحتى أسفل القدم، يمثل اخطر أنواع الفالج. ويمكن أن يتحول هذا النوع إلى "سكتة".

ونرجح أن واضعي كتب التراجم، كانوا يقصدون هذا النوع من الفالج في مؤلفاتهم. كما كانوا على دراية بالصور الأخرى التي يأخذها الفالج. لأنهم تحدثوا عن بعض العلماء الذين انعدم لديهم الحس والحركة في عضو مخصوص من أعضاء أبدانهم.

فقد ذكر كل من القاضي عياض وابن بشكوال أن أبا إسحاق ابراهيم بن محمد بن ابراهيم الحضرمي، المعروف بابن الشرفي الخولاني. قدم من المشرق وسكن قرطبة. وأضحى من علمائها

---

[74] - لمزيد من التفاصيل بهذا الخصوص، يمكن العودة لكتاب الحاوي في الطب، المجلد الأول، ص. 17 وما يليها. وكتاب القانون في الطب، الجزء الأول، ص..ص. 140-142. وكتاب أبي القاسم خلف بن عباس الزهراوي 'توفي سنة 404 ه.)، المقالة الثلاثون من التصريف لمن عجز عن التأليف من كتاب في الطب لعمل الجراحين، تحقيق ودراسة محمد ياسر زكور، تدقيق لغوي، محمد هاشم زكور، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق، 2009، ص. 91.

الأجلاء. فشغل منصب الشرطة والمواريث والصلاة بالمسجد الجامع الى أن "أصيب بفالج منعه من الكلام ومن تحريك يديه لمدة ثلاثين شهرا. فكان لا يتكلم إلا بعبارة لا اله إلا الله. ولا يكتب بيده غير باسم الله الرحمن الرحيم. وظل اقدر الناس عليهما حتى توفي يوم الأحد لعشر خلون من شعبان سنة 396 هجرية"[75].

ورغم أن الفالج الشقي يعد أخطر أنواع الفالج. ورغم أن واضعي كتب التراجم ربطوا وفاة عدد من العلماء بهذا النوع، فلا بأس من التنبيه مع ذلك، بأن الفالج الشقي قد يصيب أحدهم دون أن يودي بحياته للتو، أو بعد فترة قصيرة من إصابته. فقد ذكر الخشني، في الترجمة للفقيه أبي عمرو عثمان بن عبد الرحمن بن عبد الحميد، أنه "عرضت لعثمان بن عبد الرحمن هذا علة الفالج في آخر عمره. وأقعدته في بيته زمانا. ثم توفي سنة 325 هجرية"[76]. وذكر ابن الفرضي بدوره أن أبا عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه. وهو من أهل قرطبة. سمع عن بعض كبار فقهاء الأندلس. ولكنه اشتهر بنظم الشعر. "توفي يوم الأحد لاثنتي عشرة ليلة بقيت من جمادى الأولى سنة 382 هجرية. وهو ابن إحدى وثمانين سنة، وثمانية أشهر وثمانية أيام"[77]. وكان قد أصابه الفالج قبل موته بأعوام[78]. وأورد ابن بشكوال هو الآخر أن أبا عمرو احمد بن قاسم بن محمد بن قاسم البياني، وهو من اهل قرطبة. "كان عفيفا طاهرا شديد الانقباض. "توفي سنة 430 هجرية"[79]. ونقل عن ابن حيان قوله أن أبا عمرو أحمد هذا "كان قد تعطل قبل موته بمدة بعلة فالج لحقته"[80].

---

75 - أنظر ترتيب المدرك، الجزء الثاني، ص. 263 وكتاب الصلة، الجزء الثاني، ترجمة 196، ص. 148.

76 - أبو عبد الله محمد بن حارث الخشني، أخبار الفقهاء والمحدثين، مصدر سبقت الإحالة عليه، ترجمة 379، ص. 283.

77 - أنظر تاريخ علماء الأندلس، الجزء الأول، ترجمة 118، ص. 88.

78 - ،نفس المصدر والجزء والصفحة.

79 - أنظر كتاب الصلة، الجزء الأول، ترجمة 98، ص. 88.

80 - نفس المصدر والجزء والصفحة.

وإذ قدر لهؤلاء الفقهاء أن يعيشوا فترة بعد إصابتهم بالفالج، فإن فقهاء آخرين لقوا حتفهم على اثر الإصابة مباشرة أو بعد حين. ومن بينهم:

- أبو مروان عبد الملك بن العاصي بن محمد. من أهل قرطبة. كان فقيها حافظا، حسب إفادات الخشني[81]. برع في الحفظ. وناظر علماء الأندلس منذ حداثة سنه. تقلد منصب الشورى أيام حكم القاضي أسلم بن عبد العزيز في ولايته الأولى. ثم رحل إلى المشرق. فتجول بين العراق وبلاد الشام. فاستخلفه عبيد الله بن المنتاب القاضي، على قضاء حمص في ربيع الآخر سنة 320 هجرية. ثم استخلفه أبو الحسين عمر بن محمد على قضاء بيت المقدس وأعماله في شعبان سنة 322 هجرية. ثم أصبح مشاورا[82]. وظل كذلك حتى "توفي على اثر فالج ألم به ليلة السبت لثمان بقين من المحرم سنة 330 هجرية. وهو ابن ثلاث وأربعين سنة وثمانية أشهر. وكان مولده في جمادى الأولى سنة 287 هجرية"[83].

- أبو عبد الملك عبد السلام بن عبد الله بن زياد اللخمي. من أهل طليطلة. كان من العارفين بالحديث واللغة والأنساب، حسب رواية ابن الفرضي[84]. "ولاه الأمير هشام قضاء طليطلة. وتوفي مفلوجا في عقب ربيع الآخر سنة 371 هجرية"[85].

- أبو الفضل عباس بن عمرو بن هارون الكناني الوراق. يذكر ابن الفرضي في التعريف به، أنه من أهل صقلية. انتقل من صقلية الى القيروان سنة 315 ه.

---

81 - أنظر أخبار الفقهاء والمحدثين، ترجمة 330، ص. 254

82 - نفسه

83 - نفسه. أنظر كذلك، ترتيب المدارك، الجزء الثاني، ص.ص. 105- 106.

84 - أنظر كتاب تاريخ علماء الأندلس، مصدر سبقت الإحالة عليه، ترجمة 854، ص. 233.

85 - نفس المصدر والصفحة.

ثم رحل عنها الى الأندلس سنة 336 هجرية. واستقر بقرطبة[86]. اتصل بولي العهد الحكم بن عبد الرحمن. فسمح له بالاشتغال في الورق. فأضحى من جملة الوراقين المشهورين بقرطبة. وكان فضلا عن ذلك بصيرا بالمذاهب. حافظا للأخبار وعالما بالكلام. "عاش حتى علت سنه وذهب بصره. وضربه فالج. وتوفي يوم الجمعة لأربع خلون من رمضان سنة 379 هجرية[87]. وكان مولده سنة 295 هجرية.

- أبو محمد عبد الله بن محمد بن زياد. يعرف بابن اليخيمي. وهو من أهل قرطبة. كان حسب إفادات ابن الفرضي، شيخا حليما. حفظ كثيرا من الأحاديث. وسمع الناس منه مدة طويلة. "أصابه فالج.[وعاش بعد الإصابة فترة قصيرة]. وتوفي يوم الثلاثاء لخمس خلون من جمادى الآخرة سنة 389 هجرية"[88].

- أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن سعيد القيسي. من أهل قرطبة. أورد ابن الفرضي وهو يعرف به، أنه اشتهر بالفضل والتقوى والضبط. "فقدمه القاضي

محمد بن يحي بن زكريا للنظر في الأوقاف. فلم يزل كذلك الى أن توفي على اثر فالج نازعه"[89]. ويفيدنا ابن الفرضي، بأن الفالج ألم بأبي عبد الله محمد هذا وهو في مجلس القاضي صباح يوم الثلاثاء لاثنتين ليلة خلت من جمادى الأولى سنة 391 هجرية. فحمل الى داره. وتوفي مساء ذلك اليوم[90].

- أبو بكر محمد بن هشام بن محمد الأنصاري. من أهل بطليوس. عالم جليل. تولى قضاء بطليوس فترة من الزمن حسب إفادات ابن

---

[86] - نفس المصدر، ترجمة 884، الجزء الثاني، ص. 509..

[87] - نفس المصدر والصفحة.

[88] - نفس المصدر، ترجمة 754، ص. 203.

[89] - أنظر تاريخ علماء الأندلس، الجزء الثاني، ترجمة 1383، ص. 790.

[90] - نفس المصدر والصفحة.

بشكوال[91]. ثم انتقل الى قرطبة التي سكنها. "وتوفي بها في صفر سنة 401 هجرية بسبب فالج أصابه بالحمام[92].

2) الوفيات الناتجة عن علة الخدر

يتعلق االخدر بالجهاز العصبي، شأنه في ذلك شأن الفالج. ولذلك كان من الطبيعي أن يتطرق له الرازي وابن سينا، رغم أنهما لم يفردا له صفحات مطولة. ويتفق العالمان بأنه في الأصل، عبارة عن عسر في حس وحركة عضو من الأعضاء[93].

ويحدث ذلك العسر بسبب إصابة في إحدى فقرات النخاع تؤدي الى صعوبة تحريك العضو القريب من موضع الإصابة. وقد يكون بسبب صعوبة سريان الدم الى عضو من الأعضاء من جراء ورم أو غيره[94]. وغالبا ما يصيب هذا الداء الأطراف السفلى من جسم الإنسان من جراء البرودة أو بسبب وضعية تتكرر يوميا وتدوم فترة طويلة. كوضعية الوقوف لأداء عمل يتطلب الوقوف، أو وضعية الجلوس لأداء عمل أو للقراءة والكتابة. وقد نقل الرازي، في هذا الصدد رواية عن جالينوس مفادها أن رجلا تعود أن يجلس كل يوم على ضفة نهر لصيد السمك. وحدث يوما أن "بردت المواضع التي تلي دبره ومثانته، حتى أن برازه وبوله كانا يخرجان بغير إرادة. فعولج بأدوية مسخنة"[95]. ونقل رواية أخرى عن رجل ابتل رأسه في يوم ماطر شديد البرودة. فذهب حس جلدة رأسه. فعالجه الأطباء بمواد مسخنة[96].

---

91 - أنظر كتاب الصلة الذي سبقت الإحالة عليه، الجزء الثالث، ترجمة 1068، ص. 1005.

92 - نفس المصدر والصفحة.

93 - أنظر الرازي، الحاوي في الطب، المجلد الأول ص. 8 وابن سينا، القانون في الطب، الجزء الثاني، ص. 159.

94 - ابن سينا، القانون في الطب، الجزء الثاني، ص. 159.

95 - الحاوي في الطب، المجلد الأول، ص. 9

96 - نفس المصدر والصفحة.

ويتضح مما أورده الرازي وابن سينا، أن استعادة الحس والحركة ممكنة في المراحل الأولى من المرض بمعالجة منبت أعصاب العضو المصاب[97]. ويؤكد ابن زهر بدوره، أن العلاج يمكن أن يتم عن طريق الكي[98]. ولكن قد يحدث أن يتحول عسر الحس والحركة، مع مرور الوقت، الى استرخاء. وإذا أزمن وطال دون علاج فعال، يتحول الى بطلان تام في الحركة. ويحذرنا ابن سينا من هذه العاقبة بقوله: "إن خدر كل عضو إذا دام واشتد، ينذر بفالج أو تشنج يصيبه"[99]. ثم يزيد فيؤكد في الموضع ذاته بقوله: "اعلم أن الخدر إذا دام في عضو ولم تر له الاستفراغ. ثم أعقب دوارا، فهو منذر بسكتة"[100].

ويبدو أن ابن سينا كان محقا فيما ذهب إليه تبعا للمعطيات التي أوردها ابن بشكوال في كتاب "الصلة". فقد حدث أن أصابت علة الخدر بعض العلماء الذين ترجم لهم. فطاولتهم مدة من الزمن تعطلوا خلالها حتى لقوا ربهم.

فهذا أبو القاسم وليد بن عبد الله بن عباس الأصبحي. كان عالما فصيح اللسان[101]. نشأ بقرطبة، ثم غادرها الى طليطلة التي تولى الصلاة والخطبة بجامعها خلال فترة من حياته. ثم عاد الى قرطبة. ولكن لم يقدر له أن يشتغل بها كما كان يفعل في طليطلة. فقد "تعطل مدة طويلة قبل وفاته من علة خدر أقعدته عن التصرف وحضور المسجد الجامع"، الى أن توفي يوم الأربعاء لثمانية عشرة يوما خلت من رمضان سنة 449 هجرية. بعد أن عمر حوالي تسعين سنة[102].

---

97 - نفس المصدر والصفحة.

98 - أنظر المقالة الثلاثون من التصريف لمن عجز عن التأليف، مصدر سبقت الإحالة عليه، ص. 28.

99 - القانون في الطب، الجزء الثاني، ص. 159.

100 – نفس المصدر والجزء والصفحة.

101 - بن بشكوال، الصلة، ترجمة 1426، الجزء الثالث، ص. 927.

102 - نفس المصدر والصفحة.

وعلى غراره، كان أبو علي حسين بن محمد بن أحمد الغساني من المحدثين المبرزين في قرطبة[103]. ظل يستمع إليه عامة الناس وخاصتهم حتى لحقته علة خدر. "فلزم داره مدة طويلة الى أن توفي ليلة الجمعة لاثنتي عشر ليلة خلت من شعبان سنة 498 هجرية"[104].

وكان أبو الوليد مالك بن عبد بن محمد العتبي، هو الآخر أحد علماء قرطبة الأجلاء. اشتهر بعلو كعبه في رواية الحديث. فضلا عن درايته بالآداب واللغات ومعاني الشعر[105]. ولكن لم يقدر له أن يفيد الناس بمعارفه حتى آخر رمق من حياته. فقد "طاولته علة خدر. وتوفي يوم السبت لثمان خلون من شعبان سنة 507 هجرية"[106].

3) الوفيات الناتجة عن قرحة أو ورم

تعرف معاجم اللغة "القرح" بكونه الجرح الذي يصيب عضوا من الأعضاء من جراء إصابة بسلاح أو غيره[107]. وتضيف كتب الطب بأنه الجرح الذي تتأخر نسبيا فترة إلتآمه، فيتقرح[108]. أما "الورم"، فهو في معاجم اللغة، النتوء والانتفاخ[109]. وفي كتب الطب، كل جرح متعفن، أو كل كتلة من الأنسجة، رخوة أو صلبة، تنمو خارج مستوى عضو من أعضاء الجسم[110].

---

103 - نفس المصدر، ترجمة 333، الجزء الأول، ص. 234.

104 - نفس المصدر والجزء، ص. 235.

105 - نفس المصدر، ترجمة 1375، الجزء الثالث، ص. 896.

106 - نفس المصدر والجزء والصفحة.

107 - أنظر على سبيل المثال معجم لسان العرب الذي سبقت الإحالة عليه، المجلد الثاني، مادة "قرح".

108 - أنظر كتب الطب التي سبق أن أحلنا عليها.

109 - أنظر لسان العرب، المجلد الثاني عشر، مادة "ورم".

110 – الزهراوي، المقالة الثلاثون في التصريف، ص. 22. وص 42. وكذلك ابن سينا، القانون في الطب، الجزء الأول، ص. 166 وص. 181.

وقد خص الرازي وابن سينا وابن زهر، وغيرهم من أقطاب الطب الإسلامي[111]، القروح والأورام بصفحات مطولة في مؤلفاتهم. فتحدثوا عنها إجمالا بوصفها علامات دالة على سوء حالة البدن. ثم تحدثوا عنها بتفصيل في مختلف أبواب وفصول مؤلفاتهم في سياق الحديث عن أمراض كل عضو من أعضاء الجسم.

فميزوا فيها بين الظاهر والباطن. فالقروح الناتجة عن جرح تكون ظاهرة للعيان. ومثلها القروح التي تصيب العين والفم والأنف[112]. ولكن بعضها يكون باطنيا غير مرئي، كقرحة المعدة[113]. وتكون الأورام بدورها ظاهرة أحيانا، كالورم الذي ينمو خلف الأذن[114]، أو ذلك الذي يظهر في العنق أو الرقبة. وبعضها يكون باطنيا كأورام الحلق والرئة والمعدة والكبد والمثانة وثدي المرأة ورحمها[115]. ويستدل على هذا النوع من الأورام بانتفاخ في جانب من العضو المصاب، أو بالألم والحمى أحيانا.

كما ميزوا في القروح والأورام بين الدال منها على مرض سهل العلاج وبين الدال منها على مرض يستعصى علاجه. وقد أوضحوا في هذا الصدد، أن معالجة القروح يمكن أن تتم في الأغلب الأعم

---

111 - من بينهم على سبيل المثال أبو جعفر احمد بن إبراهيم المعروف بابن الجزار القيرواني المتوفى سنة 369 هجرية. كان احد المبرزين في الطب في الغرب الإسلامي خلال القرن الرابع الهجري. وضع عدة مصنفات من بينها كتاب زاد المسافر وقوت الحاضر، حققه محمد سويسي والراضي الجازي وجمعة شيخة وفاروق العسلي وصدر بتونس في جزأين عن منشورات بيت الحكمة سنة 1999. وأبو الحسن علي بن عباس ألأهوازي المجوسي المتوفى حوالي سنة 390 هجرية . برز نجمه كطبيب في مشرق دار الإسلام خلال ذات الفترة. ووضع هو الآخر عدة مؤلفات في الطب، أشهرها كتاب كامل الصناعة الطبية المعروف بالطب الملكي. وما زال مخطوطا. يمكن الإطلاع على إحدى نسخه على موقع شبكة الألوكة www.alukah.net

112 - الرازي، الحاوي في الطب، مصدر سبقت الإحالة عليه، المجلد الأول، ص. 373 و376 وابن سينا، القانون في الطب، مصدر سبقت الإحالة عليه، الجزء الثاني، ص. 177 وص. 227 وص. 246.

113 - الرازي، الحاوي في الطب، المجلد الثاني، ص. 752.

114 - ابن سينا، القانون في الطب، الجزء الثاني، ص. 232.

115 - الرازي، الحاوي في الطب، المجلد الثاني، ص. 609 وص. 753 وص. 765 والمجلد الثالث، ص. 1098. وابن سينا، القانون في الطب، الجزء الثاني، ص. 352 وص. 459 وص. 517 وص. 700.

باستعمال دهون ومرهمات. تطرقوا بتفصيل لأنواعها وطرق تحضيرها وكيفية استعمالها. أما مداواة الأورام، فيمكن أن تتم في المراحل الأولى باستعمال الأدوية. ولكن بعضها يستعصي على العلاج. فلا يتأتى إلا عن طريق القصد أو الكي أو الاستئصال (القطع بواسطة الحديد).

ومعظم الأورام التي تتطلب هذه الأساليب في العلاج، هي من فصيلة السرطانات، ولذلك أفردوا لها حيزا مهما في مؤلفاتهم.

فقد خصها الرازي بعشر صفحات ضمن جزء من مؤلفه، تحت عنوان: "السرطان والقروح السرطانية"[116]. توقف فيها مليا عند الطرق التي اقترحها الأطباء السابقون عليه، منذ جالينوس، لعلاجها. وتوقف الزهراوي بدوره عند حالات منها أصيب بها رجال ونساء عاينهم عن كثب، أو أشرف شخصيا على مداواتهم[117]. كما وضح بإسهاب طرق كي نماذج من الأورام[118]. وتحدث ابن سينا هو الأخر عنها مطولا كما فعل الرازي. وتميز عرضه عنها بالدقة والوضوح. حيث ذكر أن السرطان "ورم سوداوي (...) له عروق يرسلها حواليه إلى العضو الذي هو فيه كأرجل السرطان"[119]. يكون خفيا عند النشأة. ثم يظهر مع المدة. يمكن علاجه في المراحل الأولى. ويغدو الأمر عسيرا إذا استحكم[120].

وفي ضوء ما تقدم، نستطيع القول بأن معظم القروح والأورام السرطانية كانت تستعصي على العلاج قديما. كما لازالت أنواع كثيرة منها تستعصي على العلاج في أيامنا هذه، رغم تقدم الطب. وبالتالي، فإنها كانت تفتك بعدد من خاصة وعامة أفراد المجتمع، ومن ضمنهم أهل القلم بطبيعة الحال.

---

116 - هو الجزء الثاني عشر من المجلد الرابع من النسخة التي اعتمدنا عليها في هذا البحث.

117 -أنظر المقالة الثلاثون من كتاب التصريف، ص.ص. 22-23.

118 - نفسه، ص.ص. 82-92.

119 - القانون في الطب، الجزء الثالث، ص. 183.

120 -نفسه، ص. 184.

ورغم أن واضعي كتب التراجم التي اعتمدنا عليها في هذا البحث، لم يوردوا حالات كثيرة من الوفيات في أوساط العلماء نتجت عن قرحة أو ورم سرطاني، فليس معنى ذلك أن العلماء كانوا بمنأى عن هذا الداء، رغم أن الأسلوب الذي كانوا يتبعونه في العيش، من حيث أنواع المأكل والمشرب، كان يقلل حالات الإصابة بأورام خبيثة في أوساطهم.

ومهما يكن من أمر، فإن أحدهم أصيب بقرحة سرطانية، وكتب له أن يعيش عمرا جديدا بعد استئصالها. بينما لم يقدر لآخرين ذلك. فلقوا ربهم من جراء الإصابة.

وتتمثل الحالة الأولى في شخص أبي بكر محمد بن معاوية، الذي أورد الحميدي عنه رواية، مفادها أن أبا بكر هذا، كان فقيها جليلا يحظى بثقة عامة وخاصة أهل قرطبة[121]. حدث أن أصابته "قرحة. خرجت بأنفه أو ببعض جسده"[122]..وحاول علاجها. فلم يجد مداويا لها بالأندلس. "فخرج الى المشرق بعد أن عظم عليه أمرها"[123]. ولم يفلح في إيجاد طبيب قادر على مداواتها هناك. فقيل له لن تجد من يداويها إلا بالهند. فرحل الى الهند. وعرض حالته على طبيب أبدى استعداده لمداواته. فاقترح عليه الطبيب استئصالها مقابل إعطائه نصف ما يملك من مال بعد التماثل للشفاء. فلم يتردد. فداواه الطبيب ولم يأخذ منه شيئا. وعاد الى الأندلس لمواصلة طلب العلم وإفادة الناس حتى وفاته قبيل سنة 350 هجرية[124].

وخلافا لأبي بكر محمد بن معاوية، فإن أبا المطرف عبد الرحمن بن أحمد بن سعيد بن محمد بن بشر، المعروف بابن الخصار قضى نحبه بسبب قرحة سرطانية. يذكر ابن بشكوال وهو يعرف به[125]أنه

---

[121] - جذوة المقتبس،ترجمة 140، الجزء الأول، ص. 147.

[122] - نفس المصدر والصفحة.

[123] - نفسه

[124] - نفسه.

[125] - أنظر كتاب الصلة، ترجمة 704، الجزء الثاني، ص.ص. 486-487.

من أهل قرطبة. ولد سنة 364 هجرية. درس علوم الفقه وأضحى من المبرزين فيها. فولاه علي بن حمود القضاء في صدر سنة 407 هجرية. فسار بأحسن سيرة. وحين تولى حكم قرطبة القاسم بن حمود، خلفا لأخيه علي، أقره في منصب القضاء والصلاة والخطبة بالمسجد الجامع. ولم يزل كذلك حتى سنة 419 هجرية. حيث عزله المعتمد بن عباد بسبب سعايات ومطالبات من خصومه[126]. ولزم داره حتى وفاته يوم الجمعة رابع عشر شعبان سنة 422 هجرية "بسبب علة قرحة طلعت بين كتفيه"[127].

ثالثا: الوفيات الناتجة عن وباء

خلافا لكلمة "وباء" المتداولة في الأدبيات اليوم، فإن معاجم اللغة، "كلسان العرب" و"مختار الصحاح"، تتضمن كلمة "وَبَأُ". وتذكر أنها تستعمل "بالقصر والمد وبالهمزة أو دون همزة". وتعني "الطاعون أو كل مرض عام"[128].

وعلى غرارهما، يتضمن معجم "تاج العروس" كلمة "وَبَأُ". ويفيدنا واضعه بأنها تعني "الطاعون"[129]. ويضيف نقلا عن ابن النفيس[130]، "أن الوباء فساد يعرض لجوهر الهواء لأسباب سماوية أو أرضية كالماء الآسن والجيف الكثيرة كما في الملاحم (...) ومن

126 - نفس المصدر، ص. 487.

127 - نفس المصدر والصفحة.

128 - أنظر ابن منظور، لسان العرب، معجم سبقت الإحالة عليه، المجلد الأول مادة "وبأ". ومحمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي، مختار الصحاح، معجم سبقت الإحالة عليه، مادة "وبأ".

129 - أبو الفيض محمد بن محمد بن عبد الرزاق المرتضى الزبيدي (توفي سنة 1205 ه./1791 م.)، تاج العروس من جواهر القاموس، معجم يتألف من حوالي 40 جزءا، قام بتحقيقه مجموعة باحثين. وصدر في عدة نسخ من بينها نسخة المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب بالكويت، 1965. أنظر بخصوص مادة "وبأ"، المجلد الأول.

130 - هو أبو الحسن علي بن النفيس (توفي سنة 687 ه.). واحد من بين أشهر االمفكرين المسلمين. برز في عدة مجالات معرفية من بينها الطب الذي وضع فيه موسوعة ضخمة تعرق "بالشامل في الصناعة الطبية".

علامات الوباء الحمى والجدري والنزلات والحكة والأورام وغير ذلك. والطاعون نوع من أنواع الوباء"[131].

ويستفاد من تلك التعاريف، أن ثمة تطابقا بين كلمتي "وَبَأُ" (أو وباء) و"طاعون". وقد تحدث واضعو كتب الإخباريات وواضعو كتب التراجم بدورهم غن "الوباء" و"الطاعون" دون تمييز بينهما. والحقيقة أن الكلمة لأولى ذات دلالات عامة، بينما الثانية ذات دلالة خاصة.

وقد وقف صاحب "تاج العروس" عند هذا التمييز دون أن يتنبه إليه، حين نقل القولة التي ورد فيها أن "الوباء فساد" عام، و"الطاعون نوع من أنواع الوباء". ومعنى ذلك أن الوباء "أسرة" تتكون من عدة أفراد هم: الطاعون والجدري والجذام والجرب. وقد تزايد عدد أفراد هذه "الأسرة" مع مرور الزمن. فانضافت إليهم الأنفلونزا والسيدا وايبولا.

ويتضح فعلا من تقارير منظمة الصحة العالمية[132]، ومن بعض الأبحاث[133]، أن الوباء، حالة مرضية تحدث عندما يصاب عدد كبير جداً من الناس بمرض معين، في منطقة ما وفي نفس الوقت. أما الطاعون، فهو مرض، من بين الأمراض الوبائية، تتسبب فيه بكتيريا فتاكة. نوع منها يؤدي الى التهاب وتورم الرئتين. ونوع آخر يؤدي الى التهاب وتورم الغدد اللمفية.

وكان الرازي وابن سينا محقين ودقيقين فيما كتباه منذ قرون خلت، حين ذكرا بأن الطاعون "طواعين"، لأنه يتألف من نوع أحمر

---

[131] ــ تاج العروس، مادة "وبأ". لا بأس من الإشارة إلى أنه يمكن العودة لقولة ابن النفيس في كتاب "الصيدلة المجربة المعروف بالموجز في الطب"، مراجعة وشرح محسن عقيل، دار المحجة البيضاء، بيروت، 2002، ص. 379.

[132] - يمكن العودة بهذا الخصوص الى موقع المنظمة على الرابط: www.who.int

[133] - من بينها دراسات قديمة. قيمة. نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر:

Ambroise-François Laennec, Considérations générales sur les épidémies, Paris, Imprimerie De Didot Jeune, 1816. Et Marchal de Calvi, Des épidémies, Paris, Editions J-B Bailliers, 1852.

وآخر أصفر وثالث أسود. وهو أشد الأنواع فتكا. لا يكاد ينجو منه احد[134]. ووضح ابن سينا بأن الطاعون عموما، هو "كل ورم قتال يرشح دما أو صديدا ونحوهما. ويؤذي القلب عن طريق الشرايين. فيحدث في البدء القيء والخفقان والغشي. ثم يودي بحياة المصاب حين يشتد"[135].

وقد شهدت الأندلس حالات وبائية كثيرة منذ الفتح حتى سقوط غرناطة. تزامنت في الأغلب الأعم مع موجات الجفاف والقحوط أوالحروب. سنكتفي في هذا المقام بعرض وجيز لتلك التي حدثت خلال عصري الخلافة والطوائف، والتي أودت بحياة عدد من عامة وخاصة المجتمع ومن ضمنهم العلماء. وقد تحدث عنها الإخباريون الذين تناولوا أحداث هذه الحقبة. كما أشار إليها واضعو كتب التراجم التي اعتمدنا عليها في هذا البحث.

إذ يفيدنا ابن حيان وابن عذاري أن "بلاء عظيما" حل بالأندلس سنوات قليلة قبيل الإعلان عن قيام الخلافة. تمثل في حالة جفاف وقحط خلال سنتي 302 و303 هجرية[136]. شمل كذلك العدوة المغربية وإفريقية حسب شهادة ابن أبي زرع[137]. فتراجعت كميات الحبوب المعروضة في الأسواق. وارتفعت الأسعار. "وبلغت الحاجة مبلغا عظيما". ولم يجد الناس ما يقتاتون به. فمات الكثيرون جوعا. و"وقع الوباء"[138]. وعجز الذين ظلوا أحياء على دفن موتاهم. وشمل

[134]- أنظر كتاب الرازي، الحاوي في الطب، المجلد السادس، ص. 2516 وكتاب ابن سينا، القانون في الطب،الجزء الثالث، ص. 165.

[135] - نفسه، ص. 164.

[136] - أبو مروان حيان بن خلف ابن حيان القرطبي (توفي سنة 469ه)، المقتبس (القطعة الخاصة بعهد الناصر)، تحقيق بيدرو شالميتا وفردريكو كورينطي، المعهد الاسباني العربي للثقافة وكلية لآداب الرباط، مدريد، 1997. ص. 109. وابن عذاري، البيان المغرب، الجزء الثاني، ص. 167.

[137] - أبو الحسن علي بن عبد الله ابن أبي زرع (توفي سنة 741 ه)، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، دون ذكر اسم المحقق، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1972، ص. 98.

[138] - ابن حيان، المقتبس، ص. 109. وابن عذاري، البيان المغرب، الجزء الثاني، ص. 168.

الموت عامة وخاصة المجتمع. ويقول ابن حيان في هذا الصدد: "وعاث الموتان في هذه الأزمة فأوْدَى بخلق من وُجوه أهل قرطبة وعُلمائها وخِيارهم. وقَصَر المؤرخون بيانهم لكثرتهم"[139]. وكان من ضمنهم أبو القاسم أحمد بن بيطير مولى محمد بن يوسف بن مطروح. وأبو إسماعيل يحي بن إسحاق بن يحي الليثي. المعروف بالرقيعة.

كان العالمان من بين أشهر حفظة الفقه بقرطبة، حسب إفادات ابن الفرضي[140]. اشتغل الأول بعقد الشروط والمشاورة في الأحكام حتى "توفي في الطاعون لليلتين خلتا من ذي الحجة سنة 303 هجرية"[141]. وكان الثاني، بدوره، أحد الفقهاء المشاورين بقرطبة. "توفي في الوباء سنة 303 هجرية"[142].

وظهرت بعد وباء سنتي 302-303 هجرية، حالات وبائية محدودة شملت قرطبة لوحدها فيما يبدو. حدثت الأولى سنة 332 هجرية على اثر "زلزلة عظيمة وقعت بالمدينة ليلة الاثنين لتسع خلون من ذي القعدة. لم ير قط مثلها"[143]. لم يذكر واضعو كتب التراجم الوفيات التي ترتبت عنها في أوساط العلماء. ثم ظهرت الحالة الثانية سنة 335 هجرية. لم يشر إليها الإخباريون هذه المرة. ولكن ابن الفرضي أشار إليها حين ذكر بأن أبا المطرف عبد الرحمن بن محمد بن عثمان الأموي. وهو من أهل قرطبة. كان رجلا أصم. ورغم ذلك رحل الى مكة لطلب العلم. ولكن غلب عليه نظم الشعر. وقد "توفي في شهر ربيع الأول من أيام الوباء، سنة 335 هجرية"[144]. وظهر وباء "محدود" سنة 338 هجرية لم يتحدث عنه

---

[139] - ابن حيان، المصدر السابق الذكر.
[140] - أنظر كتاب تاريخ علماء الأندلس، ترجمة 77، الجزء الأول، ص. 69. .وترجمة 1571، الجزء الثاني، ص. 910..
[141] - نفس المصدر، الجزء الأول، ص. 70.
[142] - نفس المصدر، الجزء الثاني، ص. 910.
[143] - ابن عذاري، البيان المغرب، الجزء الثاني، ص. 191.
[144] - أنظر كتاب تاريخ علماء الأندلس، ترجمة 789، الجزء الأول، ص. 446.

الإخباريون. ولكن أحدهم، وهو مؤلف كتاب "ذكر بلاد الأندلس" تحدث، ضمن أحداث هذه السنة، عن"برد عظيم [نزل بقرطبة] وزن الحجر منه رطل. وأكثر ما قتل، الطير والوحوش والبهائم. وكسر الثمار. وأهلك جملة من الناس"[145]. بينما تحدث كل من ابن الفرضي والقاضي عياض عن حدوث "طاعون" شمل جميع كور الأندلس فيما يبدو. لأنهما ذكرا أن أبا عمر أحمد بن دحيم بن خليل بن عبد الجبار بن حرب، وهو من أهل قرطبة، كان يتولى أحكام القضاء بطليطلة. وظل قاضيا حتى "وفاته في الطاعون يوم السبت لخمس خلون من شعبان سنة 338 هجرية"[146].

وتحدث صاحب كتاب "ذكر بلاد الأندلس" عن حدوث "وباء عظيم، وموت شنيع، ومطر عام وسيول" في بلاد المغرب والأندلس سنة 373 هجرية[147]. كما تحدث عن ظهور حالة وبائية محدودة على اثر "مجاعة شديدة بالمغرب وافريقية والأندلس" دامت ثلاث سنين بين 378 و381 هجرية. وكان من الممكن أن تترتب عنها وفيات كثيرة في أوساط العامة لولا الإجراءات التي اتخذها الحاجب المنصور بن أبي عامر "بتوزيع رغائف الخبز على فقراء قرطبة"[148]. ولم تشر كتب التراجم الى وفيات في أوساط العلماء من جراء هذا الوباء.

وانطلق القرن الهجري الخامس كالقرن السابق، بوباء تفشى في حدود قرطبة لوحدها على ما يبدو. وظهر نتيجة تظافر عامل بشري

---

[145] - مؤلف مجهول، ذكر بلاد الأندلس، تحقيق لويس مولينا، منشورات المجلس الأعلى للأبحاث العلمية ومعهد ميكل أسين، مدريد، 1983، ص. 167.

[146] - أنظر تاريخ علماء الأندلس، ترجمة 110، الجزء الأول، ص. 84. وترتيب المدارك، المجلد الثاني، ص. 94.

[147] - مؤلف مجهول، ذكر بلاد الأندلس، ص. 181.

[148] - نفسه، ص.ص. 182-183. يذكر ابن أبي زرع ضمن احداث سنة 379 هجرية عن هبوب ريح شرقية بالمغرب دامت ستة أشهر. "أعقبها وباء عظيم وأمراض كثيرة"، أنظر روض القرطاس، ص. 102. ويتحدث ضمن أحداث سنة 381 هجرية عن "قحط شديد ببلاد المغرب والأندلس وافريقية". أنظر ص. 114 من مؤلفه.

وآخر طبيعي تبعا لما أورده ابن عذاري في موضوع الفتنة التي انطلقت منذ مطلع القرن المذكور.

فقد ذكر أن وطأة الحرب اشتدت على أهل قرطبة أواخر شهر شوال سنة 400 هجرية. فأضحوا "في أضيق حال من الإغرام والمبيت على الخندق. والحرب كل يوم قائمة، والقتل ذريع. فكانوا في نقص الأموال والأنفس. وانضم مع ذلك الوباء والمرض. وهم في حرص على قتال البربر"[149]. وفي السنة الموالية تساقطت أمطار غزيرة أدت الى حدوث "سيل عظيم بنهر قرطبة. هدم نحو ألفي دار وما لا يحصى من المساجد والقناطر. ومات فيه نحو من خمسة آلاف نفس ردما وغرقا. وذهبت فيه أمتعة الناس وأموالهم (...) وأقام هذا السيل ثلاثة أيام"[150]. فعدمت الأقوات في الأسواق. "واشتد حال أهل قرطبة حتى أكل الناس الدم من مذابح البقر والغنم وأكلوا الميتة (...) وكان قوم في السجن، فمات منهم رجل فأكلوه"[151]. واستمر التقتيل في هذا السياق المأساوي. فكان من الطبيعي أن يستشري الوباء الذي فتك بعدد من عامة وببعض خاصة قرطبة. وكان من بينهم أخ لابن حزم القرطبي[152] وبعض العلماء الأجلاء كأبي حفص عمر بن حسين بن محمد بن نابل الأموي، وأبو عمر أحمد بن محمد بن سعيد بن الحباب بن الجسور

يذكر ابن بشكوال في التعريف بهما، أن الأول ينتمي لبيت علم ودين. اشتهر بين الناس بالصدق والتقوى. "كف بصره في آخر عمره وتوفي في الوباء لثمان خلون من ذي القعدة سنة 401

---

149 - أنظر البيان المغرب، الجزء الثاني، ص. 371.

150 - نفسه، ص. 374.

151 - نفس المصدر ونفس الصفحة.

152 - يذكر ابن حزم (المتوفى سنة 456 ه.) ما نصه: "توفي أخي رحمه الله في الطاعون الواقع بقرطبة في شهر ذي القعدة سنة احدى وأربعمائة، وهو ابن اثنتين وعشرين سنة". أنظر كتابه "طوق الحمامة في الألفة والآلاف"، ضمن "رسائل ابن حزم الأندلسي"، تحقيق احسان عباس، منشورات المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1987، الجزء الأول، ص. 259.

هجرية"[153]. وكان الثاني، على غراره، من أهل التقوى والعفاف. ولد سنة 319 أو 326 هجرية. "وتوفي بمنزله ببلاط مغيث بقرطبة يوم الأربعاء لأربع بقين من ذي القعدة سنة 401 هجرية (...) وكانت وفاته في الطاعون"[154] حسب الإفادات التي قدمها له الفقيه أبو عبد الله بن عتاب.

وشهدت الأندلس حالة وباء أخرى سنة 451 هجرية. ولا شك أن بعض العلماء كانوا من بين ضحاياها. وقد أورد ابن بشكوال اسم احدهم. ويتعلق الأمر بابي القاسم خلف بن يوسف المقرئ[155]. وهو من أهل بربشتر، ولذلك عرف بالبرشتري. كان "رجلا فاضلا خيرا" حسب شهادة ابن بشكوال. برز في علوم الحديث والقرآن. "وتوفي لعشر خلون من رمضان سنة إحدى وخمسين وأربعمائة في الطاعون"[156].

وظهرت حالة وباء محدود سنة 487 هجرية. شملت بلنسية لوحدها فيما يبدو وفق المعلومات التي أوردها عنها ابن عذاري وهو يتحدث عن محنة أهل بلنسية على يد السيد الكمبيدور [157]. فذكر أن "الأقوات عدمت بها بالجملة. وهلك الناس (...) وتوالى اليبس واستحكم الوباء"[158] بين ربيع الثاني ومتم جمادى الأولى من السنة المذكورة. ولم يورد واضعو كتب التراجم إشارات عن وفيات علماء المدينة من جراء هذه الكارثة.

وإذا كان عدد من علماء عصري الخلافة والطوائف قد لقوا حتفهم من جراء حالات الوباء التي ظهرت آنذاك، فان عددا آخر منهم توفوا

---

[153] - كتاب الصلة، ترجمة855، الجزء الثاني، ص. 577.
[154] - كتاب الصلة، ترجمة 39، الجزء الأول، ص. 56.
[155] - أنظر كتاب الصلة، ترجمة 389، الجزء الأول، ص. 270.
[156] - نفس المصدر والصفحة.
[157] أنظر كتاب البيان المغرب، الجزء الثالث، ص. 31.
[158] - نفسه

من جراء أوبئة أخرى، أهمها الجذام وداء السل حسب إفادات كتب التراجم.

وقبل ذكر أسمائهم، لا باس من الإشارة بان داء الجذام هو أحد الأمراض الجلدية المزمنة. يأخذ في الأغلب شكل بثور تظهر في الأطراف ثم تنتشر بعد مدة في سائر البدن. تكون المواضع المصابة حمراء اللون. ثم تميل نحو السواد بعد ذلك.

ويعود سبب ظهور هذه البثور لفساد الهواء أو رداءة الغذاء أو لأسباب وراثية كما يذكر ابن سينا[159]. وحين تكون رقيقة، وفي مستوى الجلد، تحدث حكة. وإذا اندفعت الى سطح الجلد، تصبح على شكل برش أو بهق أسود[160]. وإذا لم تتم معالجتها في المراحل الأولى، فإنها "تفسد مزاج الأعضاء وهيئتها وشكلها"[161]. فتظهر على بدن المصاب زوائد غددية. ويغدو لون جلده أكثر سوادا. ويضيق لديه التنفس وتصيبه بحة. ثم يلقى حتفه. ولذلك نعت ابن سينا داء الجذري "بسرطان البدن". وسمى السرطان "جذام العضو"[162].

وفي ضوء ما تقدم، يتضح بأن الجذام داء فتاك أودى بحياة عدد من العامة وببعض خاصة الأندلس عبر قرون. ومن ضمنهم جمهور من علماء عصري الخلافة والطوائف. من بينهم:

- أبو(...)[163]محمد بن مروان بن ونان الفرشي. من أهل اشبيلية. يذكر ابن الفرضي أنه كان على دراية بعلوم الفقه والنحو وقرض الشعر[164]. اشتغل بالفتيا، ثم انصرف عنها الى العبادة والزهد. وظل

---

159 - أنظر كتاب القانون في الطب، الجزء الثالث، ص. 188.

160 - نفسه.

161 - نفسه.

162 - نفسه، ص. 189.

163 - لم يذكر ابن الفرضي كنيته.

164 - أنظر كتاب الصلة، ترجمة 1194، الجزء الثاني، ص. 682.

كذلك حتى"امتحن بعلة الجذام. فلزم بيته الى أن مات"[165] حوالي سنة 316 هجرية.

- أبو محمد عبد الله بن محمد بن احمد بن أبي عوسجة. من أهل شذونة. يذكر ابن الفرضي أنه كان يسكن بلدة شريش من أعمال شذونة سمع من قاسم بن اصبغ. وكان احد تلامذة ابن النديمة[166]. توفي حوالي سنة 376 هجرية بعد إصابته بداء الجذام[167].

وإذا كان الجذام عبارة عن وباء يأخذ شكل بثور ظاهرة، فإن السل داء باطني. أصله قرحة تصيب الرئة. وهو بدوره داء فتاك. يبدأ بسعال متكرر حسب إفادات الرازي[168]. ثم يتطور إذا طال أمده الى عملية نفث للدم، لأن السعال يعمل على توسع تلك القرحة كما يوضح ابن سينا في حديثه عن هذا الداء[169].

وتتأكد الإصابة بالداء، بظهور أعراض خاصة على المصاب من بينها: غور العينين وانتصاب الأنف وتمدد العنق وشخوص الكتفين والمرفقين اللذين يصبحان بارزين على هيأة جناحين[170]. ثم يأخذ الشعر في التساقط. وحين يكثر تساقطه، يكون ذلك مؤشرا على قرب وفاة المصاب[171].

ولكن تطور داء السل لا يتم دوما بشكل متسارع كما يؤكد ذلك ابن سينا. فقد يحدث أن يمتد بالعليل لعدة سنوات. ويفيدنا في هذا المقام، بأنه كان يعرف امرأة عايشت هذا الداء ما ينيف عن ثلاث وعشرين سنة[172]. ولهذا الاعتبار وغيره، فإن كتب التراجم لم تتحدث عن إصابات بداء السل في أوساط علماء الفترة التي تهمنا في هذا

---

[165] - نفس المصدر، ص. 682.

[166] - تاريخ علماء الأندلس، ترجمة 738، الجزء الأول، ص. 412.

[167] - نفس المصدر والصفحة.

[168] - الحاوي في الطب، المجلد الثاني، ص. 639. وص. 661.

[169] - أنظر كتابه القانون في الطب، الجزء الثاني، ص. 354.

[170] - الرازي، الحاوي في الطب، المجلد الثاني، ص. 661. وابن سينا، القانون في الطب، الجزء الثاني، ص. 355.

[171] - الرازي، الحاوي في الطب، المجلد الثاني، ص. 662.

[172] - أنظر كتابه القانون في الطب، الجزء الثاني، ص. 355.

البحث، باستثناء تلك التي ورد ذكرها في كتاب "تاريخ علماء الأندلس". وتتعلق بأبي بكر محمد بن إسحاق بن إبراهيم بن مسرة. وهو من أهل قرطبة. تعرف عليه ابن الفرضي عن كثب. ولذلك يذكر أنه كان رجلا عفيفا وقورا. ويصيف بأنه كان الى جانبه (أي ابن الفرضي) من بين أعضاء الوفد الذي رحل الى المشرق للحج وطلب العلم. وعاد الوفد ومكث أبو بكر محمد بن إسحاق فترة بمكة[173]. ثم عاد الى الأندلس "وقد لحقه طرق من السل. فلم يزل يتزايد عليه الى أن توفي رحمه الله (...) ليلة الثلاثاء لثلاث خلون من رجب سنة 389 هجرية"[174].

مما لا شك فيه أن المعلومات التي تضمنتها الصفحات التي خصصنها لموضوع وفيات العلماء من جراء الأمراض، قد مكنتنا من تكوين فكرة عن الصور المختلفة التي اكتساها الموت في أوساط هذه الفئة السوسيو- مهنية.

ورغم أننا لم نوسع دائرة البحث لتشمل عموم أهل القلم، أو فئات سوسيو- مهنية اخرى كالحرفيين على سبيل المثال، نستطيع القول بأن الأمراض التي أودت بحياة العلماء الذين أدرجنا أسماءهم، لم تكن أمراضا خاصة بهم مائة بالمائة دون سواهم. لأنها أمراض تصيب عموم الرجال المتقدمين في السن.

ولكن لا بأس من الإشارة بأن ثمة أنواع من الأمراض الغير مميتة (لم نعرض لها) كانت حكرا على جمهور العلماء خاصة، وأهل القلم بصفة عامة. ونعني هنا فقدان البصر واختلاط الذهن. إذ كثيرا ما أورد واضعو كتب التراجم عبارتي "كف بصره" أو "اختلط ذهنه" وهم يتحدثون عن مسار بعض العلماء. وهذان النوعان لا يصيبان عموما الا من يقضون سنوات طويلة من حياتهم في القراءة المتواصلة والاجتهاد في طلب العلم.

---

[173]- أنظر كتاب تاريخ علماء الأندلس، ترجمة 1378، الجزء الثاني، ص. 786.

[174] - نفسه، ص. 787.

ولا مناص من التنبيه، بأن اختيارنا للعلماء كفئة للمساءلة كان اختيارا صعبا. لأن المعطيات المتعلقة بكل واحد منهم كتاريخ الميلاد وتاريخ الوفاة ونوعية المرض الذي أودى به غير متوفرة بالصورة المطلوبة في المصادر المعتمدة. وبالتالي، فان الفئة موضوع الاختيار لا تمثل "كهورتة" (une cahorte) بالمعنى المتعارف عليه في البحث الديموغرافي. أي كتيبة مؤلفة من عدد محدد من العناصر يشتركون في نفس الحدث الديموغرافي. رغم أن العلماء يؤلفون فئة سسوسيو- مهنية واضحة كما ذكرنا. ويمكن القول تجاوزا بأن العلماء الذين اخترناهم في هذا المبحث يؤلفون كتيبة (كهورتة) الى حد ما. لأنهم يشتركون في حدث وهو الوفاة من جراء مرض.

ومن المعروف، أنه كلما كانت العناصر "المستجوبة" تمثل كتيبة متجانسة، وكانت المعطيات المتعلقة بها وفيرة، تكون مقاربة الظاهرة الديموغرافية، موضوع المساءلة، كمية. وتترتب عنها نتائج دقيقة الى حد بعيد. والحال أننا كنا ملزمين، تحت ضغط قلة المعطيات، الى توسيع الحيز الزمني. فأضحت العناصر الواجب مساءلتها كثيرة. بينما كانت المعطيات المتعلقة بها قليلة. اذ اتضح أن عدد العلماء الذين توفوا فعلا من جراء أمراض، خلال عصري الخلافة والطوائف، لم يتجاوز 40 فردا وفق شهادة الذين ترجموا لهم. 22 منهم توفوا فجأة. و10 توفوا من جراء علل واضحة. و08 توفوا من جراء وباء. أحدهم عمر ثمانين سنة. ويتعلق الأمر بأبي رجاء زكرياء بن محمد الذي توفي فجأة سنة 371 هجرية بعد أن عمر حوالي ثمانين سنة حسب شهادة ابن الفرضي الذي لم يذكر تاريخ ولادة هذا العالم. بينما توفي أحدهم وهو دون الخمسين كثيرا. ونعني هنا أبا مروان عبد الملك بن العاصي الذي توفي على اثر فالج ألم به وهو ابن ثلاث وأربعين سنة وثمانية أشهر. وكذلك لم يتجاوز أبو جعفر أحمد بن محمد بن رزق الأموي الخمسين حين توفي فجأة سنة 477 هجرية. وكان قد ولد سنة 427 هجرية. وعلى

غراره توفي أبو القاسم عبد العزيز بن محمد بن عتاب فجأة وسنه 51 سنة.

وخلافا لهؤلاء، عاش معظم العلماء بين 62 و77 سنة. فيكونوا قد توفوا ومتوسط أعمارهم يتراوح بين 68 و70 سنة.

ورغم النقائص التي أشرنا إليها، فإن حصيلة البحث لا تخلو من فوائد. يمكن إجمالها في العناصر التالية:

- أولا: ينتمي العلماء المنخرطون في الكتيبة للوسط الحضري. وتوفوا من جراء أمراض مختلفة نسبيا عن تلك التي كانت تؤدي للوفاة في أرياف الأندلس. ولكن، يجب التنبيه بأن العلماء الذين توفوا من جراء أمراض، يمثلون في اعتقادنا نسبة أقل من أولائك الذين توفوا من جراء الأحداث الدامية التي شهدتها قرطبة عند مطلع القرن الخامس الهجري. ونعني هنا ما يعرف بالفتنة التي ذهب ضحيتها عدد كبير من العلماء في مدينة واحدة وفي حيز قصير. حسب إفادات كتب التراجم المعتمدة في هذا البحث.

- ثانيا: ينتمي العلماء الذين توفوا على اثر أمراض لخاصة المجتمع. ومعنى ذلك، أن مستوى عيشهم كان أفضل من مستوى عيش عامة سكان حواضر الأندلس. وبالتالي، كانوا بمنأى عن الأمراض التي تتفشى في أوساط العامة بسب سوء التغذية.

- ثالثا: ينتمي أولائك العلماء للنخبة المثقفة. وهم فضلا عن ذلك، من رجال الدين المتفقهين. ومعنى ذلك أيضا، أنهم يختلفون عن عامة سكان الحواضر. كما يختلفون عن بعض أهل القلم كالشعراء، وعن المنتمين للفئات السوسيو-مهنية الأخرى كالحرفيين، في كونهم كانوا يحرصون على أن تتوفر أقصى شروط النظافة والسلامة في بيوتهم، وفي محيطهم. وكذلك في مأكلهم ومشربهم وملبسهم وما الى ذلك. ولذلك، فإن الذين توفوا من جراء علل ظاهرة يمثلون نسبة قليلة. بينما كانت الأمراض الظاهرة، والباطنية متفشية بين عامة الناس في الأندلس حسبما يتضح من كتب الطب.

ويبدو كذلك أن عدد العلماء الذين توفوا من جراء وباء كان قليلا. لأن الأوبئة كانت تتفشى أكثر في أوساط المستضعفين. لأنهم كانوا يعيشون قبل حدوثها، تحت وطأة الفاقة أو الجوع. فكانت المجاعات تودي بحياة أكثرهم. فتترتب عن تلك الوفيات طواعين تنتشر بينهم. وإن كان ذلك لا يمنع من حدوث وفيات بين العلماء من جراء فساد الهواء الذي يشتركون مع المستضعفين في استنشاقه.

المبحث السابع: وباء منتصف القرن الثامن الهجري في الأندلس

شهدت أقاليم غرب البحر المتوسط خلال العصر الوسيط سلسلة كوارث وآفات طبيعية. توزعت بين مجاعات وأوبئة وهزات أرضية وسيول. وقد نالت، تلك التي وقعت في أقاليم أوربا المتوسطية، حظها من البحث منذ قرابة نصف قرن. بينما لم يجرؤ الباحثون المغاربيون، والعرب عموما، على الخوض في تلك التي شهدتها بلاد المغرب والأندلس إلا منذ بضع سنين. وإن انصب اهتمامهم على المجاعات والأوبئة التي شهدها القرنان السادس والسابع[1].

والملاحظ أن وباء منتصف القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي، الشهير باسم "الطاعون الأسود"، شكل لوحده موضوع عدد كبير من الأبحاث والدراسات في أقطار أوربا. وما زالت بعض جوانبه موضوع نقاش الى اليوم، كما أوضحنا ذلك في المبحث المتعلق بنشأة وتطور الديموغرافيا التاريخية. ويبدو أن هذا الاهتمام يتماشى مع حجم الكارثة البشرية التي ترتبت عنه في مختلف مناطق اوربا بشكل عام وفي مدنها بشكل خاص. وخلافا لذلك، لم يخضع للبحث من قبل المهتمين بتاريخ الغرب الاسلامي. رغم أنه فتك بعدد هائل من السكان. ودليلنا فيما نذهب إليه، هو أن بيبليوغرافية الأبحاث التي تناولته لا تتعدى بضعة عناوين[2]. فضلا عن كون بعض

---

[1] - من بين الأبحاث التي تم انجازها في هذا الإطار، نذكر على سبيل المثال دراسة حسين بولقطيين جوائح وأوبئة مغرب عهد الموحدين، منشورات الزمن، الدار البيضاء، 2002. وبعض المداخلات التي ألقيت خلال الأيام الوطنية العاشرة للجمعية المغربية للبحث التاريخي في موضوع: "المجاعات والأوبئة في تاريخ المغرب". صدرت أعمال تلك الأيام ضمن منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، 2002. ودراسة عبد الهادي البياض، الكوارث الطبيعية وأثرها على سلوك وذهنيات الإنسان في المغرب والأندلس (ق 6-8 ه)، دار الطليعة، بيروت، 2008.

[2] - من بينها مقال محمد الأمين البزاز، "الطاعون الأسود بالمغرب في القرن الرابع عشر"، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط،، عدد 16، سنة 1991، ص.ص. 109-122.

النصوص الأساسية التي تهمه ظلت مخطوطة حتى السنين الأخيرة. ولم تعتمد الا في نطاق محدود جدا[3].

وانطلاقا من هذه الاعتبارات، واستكمالا أيضا للمباحث التي يتضمنها هذا الكتاب، ارتأينا تخصيص هذا المبحث لتسليط الضوء على هذا الوباء وعلى نتائجه الديموغرافية في الأندلس. وسنسعى الاعتماد في جانب منه على نسخة من نص مخطوط لابن خاتمة[4]

ومقال مطول أنجزه خالد بلعربي رغم أن موضوعه الرئيس لم يكن الطاعون الأسود. وقد نشر المقال بمجلة كان التاريخية، العدد الرابع، يونيو 2009، تحت عنوان: "المجاعات والأوبئة بتلمسان في العهد الزياني '689-845 ه./ 1422-1299 م). ومداخلة ألقاها ياسر بنهيمة ضمن أشغال مؤتمر علمي عقد بمدينة براطو (Prato) الايطالية بين 26 و30 ابريل 2009. تناول في جانب منها الطاعون الأسود. وكان موضوع مداخلته: " Epidémies et mouvements de populations au Maroc (XIVe-XVIe siècle*)* **."** ومقال رشيد يماني، "تداعيات وباء منتصف القرن الثامن الهجري على الحياة الفكرية في مملكة غرناطة"، المجلة الجزائرية للبحوث والدراسات التاريخية المتوسطية، العدد الثاني، شتاء 2015، ص.ص. 47-61.

[3] - يتعلق الأمر بمقالة "تحصيل غرض القاصد في الوباء الوافد" لأبي جعفر أحمد بن علي بن محمد، المعروف بابن خاتمة. الشاعر الطبيب الألميري، المتوفى سنة 770 هجرية. ومقالة "مقنعة السائل عن المرض الهائل" لأبي عبد الله محمد بن عبد الله، لسان الدين بن الخطيب ذو الوزارتين، الأديب والمؤرخ والطبيب، المتوفى سنة 776 هجرية. ومقالة "النصيحة". وتمثل ما تبقى من كتاب "تحقيق النبأ عن أمر الوبأ" الذي يعد في عداد المؤلفات المفقودة، للطبيب الغرناطي أبي عبد الله محمد بن علي اللخمي الشقوري، الذي توفي بعد سنة 775 هجرية. ومقالة "رسالة في معالجة الوباء قبل نزوله" لمؤلف مجهول من أهل القرن الثامن الهجري.

[4] - يحمل هذا النص عنوان: "تحصيل غرض القاصد في الوباء الوافد" كما ذكرنا في الهامش السابق. توجد نسخة منه بقسم المخطوطات بالخزانة العامة بالرباط في شكل ميكروفيلم يحمل رقم 1221. والجدير بالإشارة أن محمد العربي الخطابي. قام بتحقيقه ونشره ضمن مادة الجزء الثاني من كتابه "الطب والأطباء في الأندلس الإسلامية دراسة وتراجم ونصوص، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1988. كما قامت الباحثة الفرنسية سوزان جبكَندي (Suzanne Gigandet) بالتقديم له وترجمته الى الفرنسية. ونشرته سنة 2010 تحت عنوان:

La grande peste en Espagne musulmane au XIVè siècle, Damas, les Editions de l'Ifpo.

وقام الباحث التونسي محمد حسن بتحقيقه وتحقيق مقالتي ابن الخطيب والشقوري. ونشر المقالات الثلاث تحت عنوان: ثلاث رسائل أندلسية في الطاعون الجارف، منشورات المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون (بيت الحكمة)، تونس، 2013. وقامت كذلك الباحثة الاسبانية لويزا ماريا أربيدي كمبرا (Luisa María Arvide Cambra.) بالتقديم لنص ابن خاتمة وترجمته الى الاسبانية. ونشرته تحت عنوان:

El tratado de la peste d'Ibn Jatima,intrducción, traducción y notas,Logos Verlag, Berlin, 2014.

نتوفر عليها. وكنا نفكر منذ مدة في تحقيقها أو التعريف بها على الأقل.

أولا: في التعريف بالوباء

1) في التعريف بالوباء عامة

ذكرنا في المبحث السابق، في مقدمة الحديث عن وفاة بعض علماء الأندلس من جراء الأوبئة، أن واضعي معاجم اللغة أوردوا كلمة "وبأ" (أو وباء) بمعنى "الطاعون أو كل مرض عام". وأشرنا الى أن تلك التعاريف تفيد بأن ثمة تطابقا بين "الوباء" و"الطاعون". ولاحظنا أيضا أن واضعي كتب الإخباريات ذهبوا في ذات الاتجاه. فتحدثوا بدورهم عن الوباء وعن الطاعون دون تمييز.

وخلافا لهؤلاء وأولائك، جعل جمهور الأطباء المسلمين الوباء مرضا عاما والطاعون نوعا من أنواعه. فماذا قالوا عن حقيقة الوباء؟

ربط رائدا الطب الإسلامي في المشرق، الرازي[5] وابن سينا[6]، الوباء بتغير طبيعة الهواء. وقد اكتفى الرازي ببضع ملاحظات تخص ظاهرة التغير. فأورد نقلا عن الطبيب السرياني جورجس، ما مفاده: أن فساد الهواء يحدث من جراء تغير طبيعة الفصول. فقد يحدث أن يمر فصل الربيع قليل المطر وباردا. تتخلل أكثر أيامه رياح جنوبية، ثم يصفو الجو فجأة خلال عشرة أيام، يكون فيها النهار حارا والليل باردا. فذلك يعني تعفن الهواء. وينذر بحدوث وباء[7]. وخلافا له، كان ابن سينا أكثر دقة في معالجة المسالة. فذكر أن

[5] - عرفنا به وأحلنا على مؤلفه "الحاوي في الطب" في المبحث السابق

[6] - عرفنا به هو الأخر وأحلنا على مؤلفه "القانون في الطب" في المبحث السابق.

[7] - أنظر الحاوي في الطب، المجلد الخامس، ص. 2344.

"الوباء ينتج عن عفونة الهواء إذا خالط أبخرة رديئة، أو إذا خالط أبخرة طيبة بقيت راكدة، ولم تفرقها الرياح. فتتحول الى أبخرة رديئة"[8]. وبما أن الهواء يمثل مادة أساسية يحتاج إليها الإنسان أكثر من غيرها، فإنه يستنشق ذلك الهواء الفاسد الذي يؤدي الى فساد مزاج القلب. ثم يلحق الفساد سائر أجزاء البدن لأنها تابعة للقلب[9].

وعلى غرار الرازي وابن سينا، اتفق أعلام الطب الإسلامي في الأندلس على القول بأن الوباء ينتج عن فساد الهواء. وكان من بينهم ابن زهر[10]. الذي يبدو أنه تفطن لما يشبه الالتباس الذي وقع فيه سابقوه بخصوص طبيعة الوباء وأسبابه، فارتأى أن يخصه بكلام جامع مانع. فأفرد له فعلا حيزا مستقلا، في ذيل كتابه حول الأغذية، تحت عنوان معبر: "القول في الوباء وفي أصنافه"[11]. فذكر أن "العادة جرت عند الناس بإطلاق اسم الوباء على الأمراض التي تصيب أهل بلد من البلدان. وتشمل أكثرهم. وهذا إنما يكون بما يشترك الناس في استعماله. فيصيبهم كآفة واحدة بحسب استعدادهم لقبولها"[12]. وأضاف بأن "الأشياء التي يشترك الناس في استعمالها هي الهواء. كل انسان يستنشقه ويدخله الى بدنه عن طريق التنفس. فيقبض العروق الضاربة. وانبرى بعد ذلك للحديث عن أصناف الوباء. كما هو وارد في عنوان المقالة. فتطرق لأسباب كل "صنف". وتوقف في الوقت ذاته عند للتدابير العلاجية التي يجب القيام بها عند

---

[8] - أنظر كتابه دفع المضار الكلية عن الأبدان الإنسانية (الأرجوزة في الطب وكتاب الأدوية القلبية)، تحقيق ودراسة محمد زهير البابا، منشورات جامعة حلب والمنظمة العربية للعلوم والثقافة ومعهد التراث العلمي العربي ومعهد المخطوطات العربية، حلب، 1984.، ص. 30.

[9] - نفس المصدر والصفحة.

[10] - هو أبو مروان عبد الملك بن زهر الأندلسي. ينتمي لأسرة اشتهر أفرادها بتعاطيهم للطب (توفي سنة 557 ه.). وضع عدة مصنفات في الطب من بينها كتاب التيسير في المداواة والتدبير وكتاب الأغذية الذي نشر نسخة منه محمد أمين الضاوي تحت عنوان: النشاط والقوة والشفاء في الأغذية. وهو كتاب الأغذية، دار الكتب العلمية، بيروت، 1989

[11] - أنظر الصفحة 126 من كتاب الأغذية السالف الذكر.

[12] - نفس المصدر والصفحة.

حدوث كل واحد منها. وسنكتفي في هذا المقام باستعراض أسباب كل نوع من أنواع الوباء كما أوردها:

- يتمثل السبب الأول في المتغيرات المناخية، أي تغير طبيعة الفصول، كما قال بذلك الرازي وابن سينا. فيفسد الهواء من جرائها. ويعم المرض أهل الموضع الذي حدث فيه التغير، أو يعم أكثرهم[13]. وقد كان محقا فيما ذهب اليه. اذ لا زالت تحدث في أيامنا هذه متغيرات مناخية كارتفاع درجات الحرارة أو انخفاضها الى مستويات دنيا. فتظهر بعض الأمراض التي تنتشر بين عدد من سكان البلد الذي حدث فيه التغير. ومن أبسطها نزلات البرد التي تأخذ شكل عدوى بين الناس.

- يتمثل السبب الثاني في تصاعد أبخرة جثامين الآدميين، وجثث الحيوانات، المتعفنة التي تترتب عن الحروب. وتتأخر عمليات دفنها أو إحراقها. فتؤدي تلك الأبخرة الى فساد الهواء.[14]. ومثل هذا الأمر صحيح. ولذلك تسارع السلطات في بلد ما تعرض لغارة عسكرية أو حدثت به كارثة طبيعية (زلازال على سبيل المثال) الى دفن جثامين الضحايا مخافة ظهور وانتشار /رض وبائي.

- يتمثل السبب الثالث في تصاعد "الأبخرة المنبعثة من مناقع الكتان" وفي تصاعد "أبخرة مواضع السروب" (مجاري الأمطار والمياه العادمة) وأيضا في تصاعد "الأبخرة من مواضع تكدس الأزبال" حين تكون متراكمة بكثرة وتكون درجة الحرارة مرتفعة[15]. وقد كان محقا أيضا بهذا الخصوص. فقد بات من المعروف اليوم، أن المياه العادمة والمياه الراكدة في برك وغيرها وكذلك الأزبال والنفايات المتراكمة تؤثر في سلامة البيئة وفي صحة الإنسان.

---

13 - نقس المصدر والصفحة.

14 - نفسه، ص. 127.

15 - نفس المصدر والصفحة.

- يتمثل السبب الرابع في إقدام عامة الناس على"أكل حبوب فاسدة عندما ترتفع الأسعار (...) أو أكل أشياء غير مألوفة"[16]. فينتشر بينهم مرض عام يودي بحياة أكثرهم، حتى وان لم يكن الهواء فاسدا. وقد أكد ابن زهر في هذا الشأن ما قال به إخبارييو الأندلس، وإخبارييو مناطق دار الإسلام عامة، حين ربطوا حدوث الأوبئة بإقبال عامة الناس على أكل مواد فاسدة خلال فترات المجاعات أو بمناسبة حصار، أو حين يقبلون على تناول أي شيء يمكن أن يسد الرمق عندما تشتد الحاجة وتنعدم الأقوات جملة.

- يتمثل السبب الخامس في تفشي "القحط اذا تمادى. واشتد الحر وأفرط". فتنتشر أمراض تصيب عددا كبيرا من الناس أكثرها قاتل[17]. وينبه ابن زهر، بأنه لم تجر العادة أن تنعت هذه الأمراض بالوباء[18]. ويكون ضحاياها "أصحاب المزاج الحار" الذين تضعف أجسامهم وتجف. وتخور قواهم. وقد يتأثر جهازهم التنفسي، فيصيبهم داء السل.

- ويتمثل السبب السادس في "غضب الله". وقد حرص ابن زهر وهو يورد هذا السبب على ألا يحيل على أية مرجعية دينية إسلامية. بل أحال على الطبيب اليوناني أبقراط. وقال ما نصه: "ذكر أبقراط أنه قد يكون وباء من غير سبب معلوم عندنا. قال هو من غضب الله –عز وجل-"[19]. وظل ابن زهر وفيا لأبقراط، حين عزز ما نقله عنه في هذا المقام بحدث الطبيب اليوناني الذي "أصابته حرارة يسيرة وسعلة خفيفة. ثم نفث من يومه نفثا أسود ومات"[20]. وكان هذا

---

[16] - نفس المصدر والصفحة.
[17] - نفسه ونفس الصفحة
[18] - نفس المصدر والصفحة.
[19] - نفس المصدر والصفحة.
[20] - نفسه، ص. 128.

السبب، حسب أبقراط خاصا بذلك الرجل، لا يعلمه الا الله. فقد كان طبيبا يعتني بنفسه. فتصرف فيه أمر الله[21].

ومما لا شك فيه، أن ابن زهر عرف الوباء بدقة. فهو مرض يظهر في بلد من البلدان بسب فساد الهواء، أو لأسباب أخرى. ويتفشى هذا المرض بين معظم أهل ذلك البلد. ويصيب كل واحد بحسب استعداده لتقبل المرض. كما اجتهد في الإحاطة بمختلف الأسباب التي يمكن أن يحدث من جرائها الوباء. ومما يلفت الانتباه، أنه تحاشى الدخول في التفسيرات الفلكية عند حديثه عن فساد الهواء بسبب اضطراب دورة الفصول. كما أدرج جملة من الأسباب ذات صلة بدور الإنسان الحاسم في ظهور الأوبئة، كالحروب وعدم تدبير أمر الفضلات والنفايات والأبخرة المترتبة عن بعض الأنشطة الحرفية. وهي التي تحولت بعد الثورة الصناعية الى غازات تنبعث من الوحدات الصناعية. فأدت مع مرور الزمن الى ما يعرف اليوم بالاحتباس الحراري وتفشي الأمراض الجلدية والتنفسية وغيرها. ومن هذه الزاوية، يمكن القول بأن ابن زهر كان بحق سابقا على عصره.

ومهما يكن من أمر، فقد عاد ابن النفيس[22]، أحد أعلام الطب في المشرق، لمعالجة مسألة تغير الهواء وحدوث الوباء. ويبدو في اعتقادنا أنه لم يطلع على ما كتبه ابن زهر في الموضوع. فلو قام بذلك، وأضاف شيئا الى مقالة "القول في الوباء وفي أصنافه"، لكان قد وضع لبنة فيما سيعرف بعد قرون، "بعلم الوبائيات". ولكنه اكتفى بالانطلاق من الخلاصات التي انتهى إليها "الشيخ الرئيس" ابن سينا. واتفق معه في كون "الوباء، فساد يعرض لجوهر الهواء"[23].

---

21 - نفس المصدر والصفحة.

22 - هو أبو الحسن علي بن النفيس. وقد عرفنا به في المبحث السابق.

23 - أنظر كتابه، الصيدلية المجربة المعروف بالموجز في الطب، راجعه وشرح مفرداته محسن عقيل، دار المحجة البيضاء، بيروت، 2002.، ص. 379.

ووضح، خلافا "لشيخه"، وكذلك خلافا للرازي، بأن هذا "الفساد" يحدث نتيجة أسباب فلكية سماها "سماوية" وأحرى "أرضية".

تتمثل الأسباب السماوية، في نظره، في تغير طبيعة المواسم. فقد يحدث أن تنصرم أيام فصل الصيف قليلة الحرارة. ثم يحل فصل الخريف. فتكثر الشهب والنيازك، فيتغير الهواء. ويكون هذا التغير إنذارا بحدوث وباء. وقد يحدث أيضا أن تتكدر أحوال الجو في أواخر فصل الصيف وخلال فصل الخريف. فتكثر الشهب والرجُم. فيكون هذا التغير إنذارا بدوره بحدوث وباء. وقد يحدث أن يتكرر هبوب رياح الجنوب في شهر كانون الأول وكانون الثاني (دجنبر ويناير). وتتكاثر العلامات الدالة على سقوط المطر، دون إن تحدث تساقطات، فيكون "مزاج الشتاء فاسدا". ويكون هذا "الفساد" مقدمة تسبق حدوث وباء. وقد يحدث أن يكون فصل الربيع قليل الأمطار باردا. تكدر هوائه رياح جنوبية تهب باستمرار. ثم يصفو الجو خلال أسبوع. وتشتد حرارة الشمس في النهار وتنخفض درجة الحرارة أثناء الليل، فإن ذلك يمثل مقدمة نحو حدوث وباء[24].

وتتمثل الأسباب الأرضية المفسدة للهواء، في تصاعد الأبخرة من مكان به ماء آسن أو في تصاعد الأبخرة من جثث آدمية وحيوانية متعفنة خلفتها حرب من الحروب، وتأخرت عمليات مواراتها أو إحراقها[25].

ويرى ابن النفيس، على غرار ابن سينا، أن ثمة علامات مختلفة، غالبا ما تنذر بحدوث حالة وباء. بعض هذه العلامات تكون في السماء وبعضها على وجه الأرض. من بينها: تكرر ظهور الشهب والرجُم والنيازك، وتكاثر الحشرات والضفادع، وهروب عينات من الطيور كاللقالق. و"هروب الفأرة من جحرها"[26].

---

[24] - نفس المصدر والصفحة.

[25] - نفس المصدر والصفحة.

[26] - نفس المصدر والصفحة.

2) في التعريف بوباء منتصف القرن الثامن الهجري

ظلت مقولة "الوباء ينتج عن فساد الهواء"، بفعل عوامل "سماوية" وأخرى "أرضية"، سارية المفعول في أوساط أطباء مشرق ومغرب دار الإسلام. فقد قال بها أطباء الأندلس الذين توفوا قبيل وباء منتصف الفرن الثامن الهجري. وكذلك أولائك الذين عاصروه. فهذا أبو عبد الله محمد بن يوسف بن خلصون[27]، أحد أطباء غرناطة، يوصي عامة الناس في معرض حديثه عن جفظ صحة القلب، بضرورة استنشاق الأزهار الطيبة، كالنرجس والورد والحبق، أو على الأقل استنشاق الهواء النقي السليم من العفن والنتوءة[28]. ويؤكد بضرورة القيام بذلك دوما، ولا سيما في زمان الحر، وفي البلاد الكثيرة المياه والزبول. فإن أكثر الوباء، في اعتقاده، يحدث من جراء تصاعد الأبخرة الفاسدة[29].

وسمى ابن خاتمة، طبيب ألمرية، وباء منتصف القرن الثامن الهجري الذي عاصره باسم "المرض". وهي الكلمة الواردة في عنوان مقالته عنه. وربط حدوثه "بتغير الهواء عن حاله الطبيعية"[30]. وقبل عرض المسألة بتفصيل، ارتأى إن يتطرق لدلالات مفهوم الوباء من وجهة نظر لغوية، ثم من وجهة نظر طبية. فأدرج، في الشق الأول، تعريف علماء اللغة لكلمة وباء. وخلص، نقلا عن

---

[27] - طبيب مغمور فيما يبدو. لم يرد ذكره في كتب التراجم الخاصة بالعلماء أو في تلك الخاصة بالأطباء.وضع مؤلفا في الطب يعرف "بكتاب الأغذية وحفظ الصحة". توجد نسخة مخطوطة منه بالخزانة الحسنية ضمن مجموع يحمل رقم 734.. يتضح من خلالها أنه توفي أواخر القرن السابع الهجري. تحدث عنه محمد العربي الخطابي في كتاب الطب والأطباء في الأندلس الإسلامية. وقد قامت الباحثة الفرنسية سوزان جبكَندي (Suzanne Gigandet) بتحقيقه ونشره سنة 1996 تحت عنوان:

Kitab al-Āġdiya (le livre des aliments), Damas, les Editions de l'Ifpo.

[28] - أنظر المقالة الثانية من كتابه، ص. 33

[29] - نفس المصدر والصفحة.

[30] - أنظر مقالة "تحصيل غرض القاصد في تفصيل المرض الوافد"، نص مخطوط سبقت الاحالة عليه، ورقة 5 وورقة 6 وورقة 7.

"بعض العلماء"، الى أن "الوباء هو عموم الأمراض. فسميت طاعونا لتشابهها في الهلاك"[31]. وانطلاقا من هذا الاعتبار اللغوي، فكل طاعون، في نظره، وباء. ولكن لا يمكن قول العكس[32]. ويضيف، بأنه من الممكن، من الوجهة المجازية، جعل كلمة "وباء" مرادفة لكلمة "موتان"، لأن أصل كلمة وباء في اللغة، الموت الذي يقع في الماشية[33]. أما من وجهة نظر طبية، فالوباء، "مرض عام للناس قتال غالبا عن سبب مشترك".

وبناء على ذلك، فالآفة التي اجتاحت ألمرية سنة 749 هجرية، والتي سئل ابن خاتمة في موضوعها، هي، في نظره، "مرض". والمرض يمثل حالة غير طبيعية لأنه مناقض للصحة التي هي الحالة الطبيعية للإنسان. وهذا "المرض عام" لكونه تفشى بين عدد كبير من الناس. خلافا للمرض الخاص الذي يصيب شخصا واحدا أو عددا محدودا من الأشخاص. أما القول بأن هذا المرض العام انتشر بين "الناس"، فالمراد منه 'أي القول، تفادي استعمال عبارة "الموتان"، لأنها تستعمل عند الحديث عن الموت حين يتفشى في قطعان الماشية وعموم الحيوانات[34]. والقول بان هذا المرض العام الذي انتشر بين الناس هو مرض "قتال غالبا"، فلتمييزه عن الأمراض الأخرى التي تصيب شخصا أو أشخاصا. ويتماثلوا بعدها للشفاء. والقول بأن هذا المرض العام الذي انتشر بين عموم الناس، هو مرض قتال في الأغلب، وظهر عن "سبب مشترك"، فمعناه أن هذا المرض الكائن اشترك في الإصابة به عدد كبير من الناس في موضع واحد، في حين أن أغلب الأمراض تكون لأسباب مختلفة. ومن ثم لا تعد وباء.

---

[31] - نفسه، ورقة 3.

[32] - نفس المصدر والورقة.

[33] - نفسه.

[34] - لا باس من الإشارة في هذا الصدد أن الرازي وبعده ابن حيان استعملا كلمة وباء مرادفة لكلمة موتان دون حصرها في الماشية. على اعتبار أن الوباء يفتك بعدد كبير من الناس كما يفعل المرض في الماشية.

والحصيلة، هي أن المرض الذي يتفشى بين عموم الناس ويودي بحياة عدد كبير منهم. ويظهر بسبب مشترك، هو في نظر ابن خاتمة وباء. وبما أن الوباء موضوع مقالته لم يحدث لسبب خاص بمدينة المرية، فقد ميز في الوباء بين نوعين. فذكر، بالعودة الى أبقراط وجالينوس، بأن النوع الأول، محلي يخص منطقة أو بلدة أو بلدا. وسماه "بالمرض البلدي". أما الثاني، "فقادم على الناس من بعيد مع الهواء"[35]، وهو "مرض وافد".

ويشير ابن خاتمة، بالمناسبة، الى أن الوباء يمكن أن يحدث من جراء هواء فاسد. كما يمكن أن يحدث من جراء تناول الناس "لطعام فاسد أو شراب فاسد"[36]. وبذلك قال بما قال به ابن زهر من قبل في كون الطعام الفاسد يمكن أن يكون سببا من أسباب حدوث وباء. وأضاف الى ما قال به ابن زهر سببا جديدا وهو تناول الشراب الفاسد. ويقصد غالبا الماء الملوث الذي يتسبب شربه في ظهور أمراض وبائية كما هو معروف اليوم.

ولم يختلف ابن الخطيب، طبيب غرناطة، كثيرا مع ما قال به ابن خاتمة. فقد سئل هو الأخر عن الوباء الذي عم البلاد[37]. فأجاب بشكل مقتضب، بأنه في "حقيقة أمره مرض حاد حار سمي المادة"[38]. يصيب الإنسان عن طريق الهواء. فيتسرب في العروق ويفسد الدم. أما حدوثه، فيعود لسبب "أقصى"[39] وآخر "أدنى"[40]. يتمثل الأول

---

[35] - ابن خاتمة ، تحصيل غرض القاصد، ورقة 4 وورقة 5.

[36] - نفسه، ورقة 5.

[37] - أنظر مقالته المسماة: "مقنعة السائل عن المرض الهائل"، تحقيق وترجمة الى الألمانية مارك جوزيف مولر

:(Marc Joseph Muller)

Sitzungsberichte derkönigl. bayer. Akademie der Wissenschaften.Philosophisch -philologische Classe. Sitzung vom 6. Juni 1863, pp. 1-34

[38] - نفسه، ص. 1.

[39]- نفسه، ص. 2.

[40] – نفس المصدر والصفحة.

"في أمور فلكية تؤثر في العالم". يقول بها المهتمون بالنجوم وعلوم الفلك. ويأخذها عنهم الأطباء كمسلمات. ويتمثل الثاني في "فساد الهواء".

وانطلاقا مما تقدم، يتضح بأن الآفة التي شهدتها الأندلس في منتصف القرن الهجري الثامن هي وباء. فكيف كانت أعراضه؟ وبما أنه من النوع الوافد، فأين ظهر، وكيف حل بالأندلس؟ ولكن قبل أن نجيب عن هذين السؤالين، نرتئي، تبعا لطبيعة الموضوع، تخصيص حيز للحديث عن دورة الأوبئة في الأندلس قبل حدوث وباء منتصف القرن الثامن الهجري.

ثانيا: دورة الوباء في الأندلس حتى سنة 749 هجرية.

تحدث ابن خاتمة مطولا عن فساد الهواء وكيفية ظهور الوباء. واتفق مع الأطباء المسلمين القدامى في القول بأن الإصابة تلحق الناس من جراء استنشاقهم لهواء متعفن يتسرب الى القلب الذي هو محرك البدن. وأثرى المسألة ببعض الإضافات، من قبيل أن الحيوانات تتأذى بدورها من جراء استنشاق الهواء الفاسد وكذلك النباتات وكل الكائنات الحية. واشترك مع ابن زهر في القول بأنه ليس من الضروري أن يحدث الوباء من جراء فساد الهواء. فقد يحدث بسبب تناول الناس لأطعمة فاسدة عند حدوث مجاعة كما أشرنا الى ذلك من قبل. وذكر في هذا السياق أن مثل هذه الحالة حدثت في ألمرية منذ نحو من تسع عشرة سنة من جراء مجاعة شديدة وغلاء في السعر. فاضطر الناس بسببها الى أكل حبوب متعفنة من القمح والشعير قديمة الاختزان. وإن معظم "من هلك في ذلك

الحادث كانوا من الضعفاء والمقلين لاختصاص السبب بهم والله أعلم"[41].

وبناء على ما تقدم، يمكن استخلاص ثلاث معطيات: أولها أن الوباء يمكن أن يحدث من جراء أي سبب من الأسباب التي قال بها ابن زهر، والتي استعرضناها من قبل. وقد تبناها ابن خاتمة. وذكر ابن زهر بالاسم حين نقل عنه أن الوباء قد يحدث من دون سبب معلوم. وقد يكون ذلك من غضب الله عز وجل[42]. ثانيها، ليس من الضروري أن يحصد الوباء كافة الناس والبهائم، أو معظمهم إذا حدث بموضع ما. فقد يحدث أن "يصطفي" الضعفاء المملقين دون سواهم. ثالثها أن ألمرية شهدت وباء من جراء حالة جفاف تسع عشرة سنة قبل حدوث وباء 749 هجرية.

ويفيد هذا المعطى الثالث بأن وباء منتصف القرن الثامن الهجري يمثل حلقة في سلسلة أوبئة شهدتها الأندلس. حدث بعضها منذ القدم. وسيحدث بعضها بعد سنة 749 هجرية كما تؤكد ذلك كتب الإخباريات التي تناولت أحداث القرن التاسع والقرون الموالية. ومن ثم، فإن الموضوع يقتضي في الحقيقة عرض كافة حلقات السلسلة لتحديد الفاصل الزمني بينها في محاولة لمعرفة مدى انتظام أو عدم انتظام تردد الأوبئة.

ويمثل الوباء المعروف "بطاعون جستنيان" (la peste de Justinien) أول حلقة في السلسلة. حدثت قبله أوبئة، منذ بدء الكون، لم يتمكن الأطباء والباحثون من تحديد طبيعتها. بينما تعرفوا على الجرثومة التي جعلتهم ينعتون وباء جستنيان بالطاعون[43]. ظهر

---

41 - أنظر، مقالته تحصيل غرض القاصد..، ورقة 13.

42 - نفسه، ورقة 14.

43 - تحدث عن طبيعة هذا الوباء وعن المجال الجغرافي الذي انتشر به، باحثون أطباء ومؤرخون. نذكر من بينهم على سبيل المثال لا الحصر:

Anne-Marie Flambard Héricher *et* Yannick Marec, Médecine et société de l'Antiquité à nos jours, Publications de l’Université. Rouen -Havre, 2005.

حوالي سنة 83 قبل الهجرة / 541 ميلادية. وظل ينتشر في معظم مناطق العالم القديم حتى سنة 148 هجرية / 767 ميلادية. وشمل بطبيعة الحال، شبه جزيرة ايبيريا.

بينما يمثل وباء منتصف القرن الهجري الثامن /منتصف القرن الرابع عشر للميلاد، الذي نحن بصدد الحديث عنه في هذا المبحث، حلقة ثانية. وقد حدثت كما هو معلوم بين هذين الوبائين "الكونيين"، أوبئة اخرى كثيرة. بعضها انتشر في مناطق غرب البحر المتوسط. بينما انتشر معظمها في المغرب والأندلس.

ومن المفيد التنبيه في هذا الصدد، بأن معظم الأوبئة التي تفشت في العالم القديم بعد وباء جستنيان، حدثت على أثر المجاعات. وبما أن مناطق غرب أوربا شهدت نهضة زراعية بين القرنين الحادي عشر والثالث عشر للميلاد، فقد تراجعت فيها المجاعات الكبرى بشكل ملحوظ حتى مطلع القرن الرابع عشر باستثناء مجاعتي 1030-1033 و1315-1317.

وقد تفشت بها المجاعة الكبرى الأولى، عقودا قليلة بعد انطلاق النهضة المشار اليها. وحدثت على اثر أمطار غزيرة أتلفت مزروعات موسم 1030. وحالت دون مواصلة الاستثمار خلال السنتين المواليتين[44]. فمات خلق كثير من جراء الجوع. وأكل الناس بعضهم بعضا بعد أن عدمت الأقوات. فتفشى على اثر ذلك الوباء.

وعلى غرار هذه المجاعة، حدثت المجاعة الكبرى الثانية بسب أمطار غزيرة. بدأت في التساقط بصفة متقطعة منذ مطلع سنة 1314. ثم أخذت في التساقط بشكل مسترسل بعد ربيع 1315 حتى خريف 1316. فغمرت المياه الاستغلاليات وحالت دون

44- تحدث عن هذه المجاعة الإخباري راوول ݣلابير (Raoul Glaber) في "تواريخه":
Chronique, livre IV, chap. IV, Trad. Française François Guizot, in Collection des mémoires relatifs à l'Histoire de France, Paris, J-L-J. Brière Libraire, 1824, tome. 6, pp. 306-309.

استثمارها[45]. فساد الجوع بين الناس. وعم معظم مناطق أوربا. واستمر حتى سنة 1317. وفي بعض الجهات، استمر حتى حدود سنة 1322. وتفشى الوباء. ومات خلق كثير[46]. فكانت تلك الوفيات إيذانا ببداية مرحلة التراجع الديموغرافي حتى سنة 1348 للميلاد التي ستحدث فيها النكبة الكبرى.

ولكن لا مناص من التنبيه، بأن النهضة الزراعية، التي شابت انطلاقتها مجاعة 1030، والتي أشرت على بداية تراجعها مجاعة 1315، لم تمنع من حدوث بعض المجاعات التي ترتبت عنها أوبئة محدودة نسبيا هنا وهناك. كما لم تمنع من تفشي أمراض عامة. أخذت شكل أوبئة أحيانا. وتمثلت في الجذام والقروح الجلدية التي استأثرت باهتمام الأطباء آنذاك[47].

وعلى العكس من ذلك، كانت المجاعات تحدث في مشرق ومغرب دار الإسلام، بما في ذلك الأندلس، من جراء الجفاف. وكانت تمثل أهم الأسباب المفضية لتفشي الأوبئة.

---

45 - استعرض هذه الأحداث جيل لو مويزي (Gilles Le Muisit) أحد المعاصرين لهل. وقد توفي سنة 1353. وتناولها في مؤلفه:

Chronique et annales, publié par Henri Le Maitre, Paris, Librairie Renouard, 1906.

كما تناولها بالبحث عدد كبير من الباحثين من بينهم:

- Ian Kershaw, "The great famine and agrarian crisis in England 1315–1322", Past and Present, vol. 59, no 1, mai 1973, pp.. 3–50.
- Pierre Alexandre, Le climat en Europe au Moyen Age. Contribution à l'histoire des variations climatiques de 1000 à 1425, d'après les sources narratives de l'Europe occidentale, Paris, Editions de l'EHESS, 1987.

46 - يذكر بعض الباحثين أن نسبة الوفيات التي ترتبت عن تلك المجاعة وعن الوباء الذي تلاها تراوحت بين 5 و10 بالمائة. أنظر:

Guy Lanoue "La nature comme symbolle et sujet du Romantisme et la grande famine de 1315-20", pdf, http.//www.mapageweb.umontreal.ca

47 - يؤكد بعض الأطباء الباحثين أن الأمراض الجلدية، من أورام وقروح وجمرة ونار فارسية، كانت تحظى باهتمام أطباء فرنسا في القرن الثالث عشر لأنها كانت أكثر الأمراض العامة انتشارا. أنظر في هذا الشأن:

Patrice Bourrée et Sophie Castera "malades, maladies et médecins dans la France du XIIIè siècle",Communication présentée à la séance du 28 juin 1986 de la Société française d'histoire de la médecine.

وبغض النظر عن طبيعة الأوبئة، وعن الأسباب المفضية إليها، فإن تعقبها على المدى الطويل، في المناطق المسيحية كما في مناطق دار الاسلام، يقتضي الانطلاق من طاعون جستنيان والتوقف عند "الطاعون الأسود". ثم الانطلاق منه لتعقب الحالات التي حدثت بعد 1348 ميلادية حتى القرن التاسع عشر للميلاد الذي انتشر فيه وباء عم مختلف مناطق العالم تقريبا. يمكن اعتباره وباء "كونيا" ثالثا.

ومن الواضح، أن عملية التعقب تتطلب بذل مجهود جبار، بالعودة الى مختلف المصنفات المخطوطة والمطبوعة. وتقتضي أن تكون موضوع بحث مستقل، حتى وان تم التعقب في مجال جغرافي ضيق، كالأندلس. وقد تجشم عناء هذا المجهود، الطبيب الباحث الاسباني دون خواكين دي بيلالبا (Don Joaquin De Villalba) الذي رصد في بحث مستفيض يتألف من جزئين[48]، حالات الأوبئة وجملة من الأمراض العامة تفشت في شبه جزيرة ايبيريا منذ عهد القرطاجيين حتى سنة 1801. ورغم الجهد الذي بذله، فقد فاته تقييد الأوبئة التي حدثت في المجال الذي كان خاضعا للمسلمين بشبه جزيرة ايبيريا. واكتفى في موضوعها ببضع إشارات.

وفي جميع الأحوال، فان مثل هذه "المغامرة" لا تخلو من مزالق لأن النصوص التي يمكن اعتمادها لتعقب الأوبئة في شبه جزيرة ايبيريا أو في الأندلس، لا تمثل سلسلة متصلة. كما أن واضعيها يتحدثون عن الأوبئة وعن الطواعين دون تمييز. ويتحدث بعضهم عن حدوث قحط. ولا يذكر ما اذا كانت قد ترتبت عنه مجاعة أم لا؟ ويتحدث بعضهم الآخر عن حدوث مجاعة. ولا يذكر ما اذا كان قد ترتب عنها وباء أم لا؟. ويتحدث مؤلفو تلك النصوص أحيانا عن حدوث وباء دون تحديد مجال انتشاره بدقة. كما انه من الصعب

---

[48] - Epidemiología Española ó historia cronológica de las pestes contagiosepidemias y epizootias que han acaecidoen españa desde la venida de los cartagineses asta el año 1801, Madrid, Imprente de Don Mateo Repulles, 1802, 2 volŭmenes..

التمييز في ما تواتروه من معلومات، بين الوباء المحلي، الذي لم يتعد حدود مصر من الأمصار، وذلك الذي تفشى في رقعة ترابية أوسع. ولجميع هذه الاعتبارات، سنكتفي في هذه الفقرة بجرد سريع لأهم المجاعات - الأوبئة التي شهدتها الأندلس خلال القرنين السابقين على حدوث وباء منتصف القرن الهجري الثامن. وسنشير أيضا لتلك التي حدثت في المغرب، ولتلك التي حدثت في شبه جزيرة ايبيريا بحكم انتماء الأندلس للغرب الإسلامي وللمجال الأوربي.

ونبدأ الجرد بسنة 571 هجرية. فقد حدث في مطلع شهر ذي القعدة من تلك السنة، "وباء وطاعون [بمدينة مراكش] لم يعهد مثله من قبل"[49]. دام حوالي سنة وراح ضحيته عدد كبير من أهالي المدينة وأحوازها حسب شهادة ابن عذاري وابن أبي زرع. يحتمل أن يكون قد عم سائر أنحاء المغرب رغم أنهما لم يذكرا ذلك. بدليل أن الشيخ ابا حفص الهنتاتي توفي مصابا بالوباء وهو في طريقه الى مراكش قادما من قرطبة. وبدليل أن مسلمي مدينة كونكة الأندلسية التمسوا، خلال السنة الموالية لحدوث الوباء، النجدة من أمير المؤمنين أبي يعقوب، لرد زحف المسيحيين على مدينتهم، فلم يستطع استنفار "الناس" من جراء ما لحقهم من "ضعف ومرض وطاعون". ولا يعقل أن يكون المعنيون "بالناس" هم سكان مراكش وأحوازها فقط. ومن المرجح أن يكون هذا "الوباء والطاعون" قد شمل الأندلس كذلك، لأن الأوضاع السائدة فيها عند حدوث هذا الوباء، وخلال السنوات القليلة السابقة، كانت تساعد على تفشيه بها.

---

49 - ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب، النسخة التي حققها بشار عواد نعروف ومحمود بشار عواد، وقد سبق ا ناحلنا عليها في المبحث السابق، المجلد الثالث، ص. 237. وابن أبي زرع، الأنيس المطرب بروض القرطاس، النسخة التي سبقت الإحالة عليها في المبحث السابق، ص. 267.

فقد حدث فيها جفاف سنة 565 هجرية[50]. ثم أعقبت ذلك الجفاف "زلازل عظيمة". تلتها هزات ارتدادية دامت عدة أيام[51]. وقد تهدمت على اثر تلك الزلازل دور كثيرة وصوامع بقرطبة وغرناطة واشبيلية وفق شهادة ابن صاحب الصلاة التي أكدها ابن عذاري بدوره[52]. ولكنهما لم يشيرا معا الى الوفيات التي ترتبت عنها. كما لم يفصحا عما اذا كان قد أعقبها وباء أم لا؟. وان كان ابن صاحب الصلاة قد ذكر أن هواء مدينة مراكش تكدر خلال السنة السابقة على حدوث الزلازل بالأندلس. "فمرض أكثر السادات وكثير من الناس"[53]. وتزامنت الزلازل مع ضائقة كان يعيشها أهل بطليوس من جراء قطع المسيحيين لطرق الإمداد التي تصلها. "فعدمت الأقوات بالمدينة"[54] بين مطلع شهر رجب ومنتصف شهر شعبان. فخرج مسلمو اشبيلية إليها في أواخر شعبان، تحت إمرة بعض القادة الموحدين، ومعهم 5000 دابة محملة بالحبوب والأطعمة. فهزموا على مشارف بطليوس. ونهب المسيحيون تلك الحمولة[55]. وشجعهم هذا الانتصار على مواصلة الزحف على المدن.

ومن المفيد التذكير بان المسيحيين كانوا قد شرعوا في الزحف على المدن قبل ذلك بمدة. وتحالف معهم بعض الزعماء المسلمين الرافضين لسلطة الموحدين كابن مردنيش وابن همشك. فكانوا يحاصرون المدن ويستبيحون الضياع والبساتين. كما يذكر ابن صاحب الصلاة وابن عذاري[56]. وكان من الطبيعي أن يتصدى

---

[50] - ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص. 311.

[51] - نفسه ونفس الصفحة.

[52] - ابن عذاري، البيان المغرب، المجلد الثالث، ص. 209.

[53] - أنظر كتاب المن بالإمامة، ص. 309.

[54] - نفس المصدر والصفحة.. وكذلك ابن عذاري، البيان المغرب، المجلد الثالث، ص. 209..

[55] - نفس المصدر والصفحة.

[56] - أنظر كتاب المن بالإمامة لأبي مروان عبد الملك بن محمد المعروف بابن صاحب الصلاة (توفي سنة 594 ه.)، تحقيق عبد الهادي التازي، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1987، ص. 66 وص. 68 وص. 75 وص. 130.. وابن عذاري، البيان المغرب، المجلد الثالث، ص. 220.

الموحدون للمسيحيين وللمناوئين من المسلمين. ونجحوا نسبيا في ذلك. وحرصوا على توطيد وجودهم في المدن والحصون المسترجعة.

وفي جميع الأحوال أدى الحصار المضروب على المدن والحروب المتواصلة بين الموحدين وأعدائهم الى تعثر الأنشطة الاقتصادية وتردي الأوضاع الاجتماعية. ويكفي أن نذكر في هذا المقام بما قاله ابن صاحب الصلاة عن أعيان قرطبة الذين خرجوا يوم الأحد 12 شوال 557 هجرية لاستقبال ابي يعقوب يوسف وأبي سعيد عثمان ابني الخليفة عبد المؤمن. "فقد ظهر علي هيأتهم وصورهم البؤس"[57]. وإذا كانت هذه هيأة الأعيان، فكيف كانت هيأة العامة؟.

ويبدو أن الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية ظلت على حالها خلال السنوات اللاحقة. اذ يستفاد مما أورده ابن صاحب الصلاة أن قوات موحدية وأندلسية خاضت وقعة قونكة (Cuenca) في مطلع ذي الحجة 567 هجرية بمؤونة قليلة من العلف والطعام، حتى أن عددا من المحاربين ومن الدواب، ماتوا جوعا قبل إنهاء مهمة إبعاد النصارى الذين كانوا رابضين بضاحية المدينة. وانسحب هؤلاء لحسن الحظ دون إن يقع اشتباك فعلي بين الطرفين[58]. ويفيدنا ابن صاحب الصلاة وابن عذاري أن "العساكر الموحدين" المرابطين في مرسية أخذوا يلاقون صعوبات في تلبية حاجياتهم من جراء "ضيق المدينة بهم" وارتفاع الأسعار في مطلع محرم 568 هجرية. فعبروا عن رغبتهم في العودة الى المغرب[59].

وارتفعت الأسعار مجددا عشر سنوات بعد ذلك (سنة 578 ه.)[60] تبعا لاستمرار التعبئة وعمليات التصدي لزحف المسيحيين في البر

---

[57] - أنظر كتاب المن بالإمامة، ص. 140.

[58] - أنظر كتاب المن بالإمامة، ص. 116 وما يليها.

[59] - المن بالإمامة، ص. 424 والبيان المغرب، المجلد الثالث، ص. 225.

[60] - نفسه، ص. 254.

والبحر. ومما لا شك فيه، أن ارتفاع الأسعار يؤشر على التراجع المتواصل للموارد. ويتضح أن التراجع تواصل فعلا في الأندلس وفي المغرب أيضا حتى معركة العقاب. وربما ظل كذلك بعدها. وترتبت عن هذا التراجع مجاعات متتالية. كان بعضها يفضي الى حدوث أمراض عامة تتحول الى أوبئة.

ولا بأس هنا من استحضار الصورة القاتمة التي أوردها ابن عذاري عن المجاعة التي حدثت بمراكش على اثر الحصار الذي ضربه عليها عرب الخلط سنة 632 هجرية[61]. فقد عدمت الأقوات في الحاضرة وفي الضواحي. فأقبل الناس على سد الرمق بفيتور الزيتون، والنارنج الحامض، و"خبز" مصنوع من نبات يشبه القصب. وهو نبات سام[62]. فكان البعض يلقى حتفه من شدة الجوع، والبعض من جراء الأمراض والتسممات التي تسببها المواد الناتئة والدواب النافقة كما قال بذلك ابن زهر وابن خاتمة.

ومهما يكن من أمر، فقد ذكر ابن عذاري قبل وبعد الحديث عن مجاعة 632 هجرية بمراكش، حدوث مجاعات بالأندلس أو ببعض مدنها. وأكد حدوثها ابن أبي زرع بدوره. وتحدثا أيضا عن حدوث بعض الأوبئة. كما حدث مثلا سنة 610 هجرية، التي"كان فيها وباء عظيم بالمغرب والأندلس"[63]. وأكد خواكين دي بيلالبا حدوث هذا الوباء في الجرد الذي أنجزه. حين ذكر بأن وباء محدودا نسبيا تفشى في معظم الممالك المسيحية بشبه جزيرة ايبيريا بسبب فساد الهواء من جراء تعفن الجثث التي خلفتها معركة العقاب[64].

---

[61] - أنظر المجلد الثالث، ص. 452 من كتاب البيان المغرب.

[62] - نفس المصدر والصفحة.

[63] - ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص. 272.

[64] - Don Joaquin De Villalba,Epidemiolog*í*a Espa*ñ*ola…, Op.Cit., tomo1, pp. 53-54.

وفي سنة 616 هجرية "كان المحل العظيم والمجاعة" في المغرب[65]. اشتكى من وطأة هذه الكارثة الصغير والكبير. ظهرت بوادرها في السنة السابقة. واستمرت حتى سنة 617 لتشمل الأندلس بدورها[66]. وفي سنة 624 "اشتد الغلاء وحدثت المجاعة في المغرب والأندلس"[67]. وفي سنة 630 هجرية، "خلت بلاد المغرب. وكثرت فيها المجاعة والوباء"[68]. ويبدو أن مجاعة تلك السنة شملت أيضا الأندلس من جراء انحباس المطر حسب إفادات ابن الخطيب الذي يذكر أن المأمون الموحدي أدى صلاة عيد 631 هجرية بغرناطة. وطلب المصلون من الله الغيث. فنزل المطر في ذلك اليوم. واستبشر الناس[69]. ثم حدثت مجاعة عامة في الأندلس سنة 635 هجرية[70]. وخلال السنة ذاتها "اشتد الغلاء بالعدوة. وحدث الوباء. فأكل الناس بعضهم بعضا. وكان يدفن في المقبرة الواحدة مائة شخص"[71]. وفي جمادى الأولى سنة 645 هجرية ضرب المسيحيون حصارا قويا على اشبيلية لمدة عام وخمسة أشهر. عمت خلالها المجاعة بين أهل المدينة. "فمات من الجوع خلق كثير. وعدمت الأطعمة من القمح والشعير. وأكل الناس الجلود"[72]. وفي سنة 663 هجرية، "كان بالأندلس غلاء مفرط"[73]. تجلى في مالقة بصورة أوضح. وفي سنة 679 هجرية، "اجتاح الجراد بلاد المغرب. وأكل جميع زروعها"[74]. فأوقع الناس في المجاعة. وفي سنة 693 هجرية،

---

[65] - ابن عذاري، البيان المغرب، المجلد الثالث، ص.ص. 381-382.
[66] - نفسه، ص. 382.
[67] - ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص. 274.
[68] - ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص. 276.
[69] - أنظر أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام وما يتعلق بذلك من كلام، تحقيق سيد كسوي حسن، دار الكتب العلمية، بيروت 19، الجزء الثاني، ص. 248.
[70] – ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص. 277.
[71] – نفسه، ونفس الصفحة..
[72] -ابن عذاري، البيان المغرب، ص. 514.
[73] - ابن عذاري، البيان المغرب، المجلد الثالث، ص. 573.
[74] -ابن أبي زرع، الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص. 415.

كانت بالمغرب "مجاعة شديدة ووباء عظيم. فكان الأحياء يحملون من الموتى أربعة وثلاثة واثنان على نعش واحد"[75]. وعم هذا الوباء افريقية ومصر أيضا[76]. وفي سنة 701 هجرية، يحتمل أن تكون قد حدثت مجاعة بالأندلس، لأن ميشال مولا (Michel Mollat) أورد نقلاعن"اخبارية فردناند الرابع"، وهو يتحدث عن فقراء مملكة قشتالة، أن شبه جزيرة ايبيريا شهدت خلال هذه السنة (1302 م.) "مجاعة شديدة" أودت بحياة "ربع" عدد سكان مملكة قشتالة. وكانت الجثث منتشرة في الساحات والطرقات[77]. ولم يذكر ما اذا كان قد أعقبها وباء أم لا؟. ولكن ليس من المستبعد أن يكون الوباء قد تفشى في بعض مناطق المملكة بالنظر للعدد الهائل من الوفيات.

وفي سنة 710 ه./ 1311 م. "حدثت مجاعة شديدة باشبيلية. تلاها وباء" حسب إفادات أنطونيو بليستيروس ايي بريتا (Antonio Ballesteros y Beretta) في سياق حديثه عن اقتصاد مملكة قشتالة وليون في نهاية العصر الوسيط[78]. لم يوضح ما اذا كان الوباء قد عم مناطق اخرى من شبه جزيرة ايبيريا. وفي بحر ربيع الثاني من سنة 723 هجرية حدث "قحط شديد بالمغرب". تلته "مجاعة" استمرت حتى جمادى الأولى 725 هجرية[79]. ومن المحتمل أن تكون هذه المجاعة قد همت الأندلس وأعقبتها حالة وباء محدودة، لأن خواكين دي بيلالبا ذكر في جرده، أن قوات أرغونية كانت تحاصر إحدى البلدات جنوب جزيرة سردينيا سنة 1323 ميلادية، تأثرت بحرارة مفرطة هناك. أعقبها وباء، ناتج عن فساد

---

75 - نفسه، ص. 384. وص. 413.

76 - نفسه، ص. 409. وص. 413.

77 – Michel Mollat, Les pauvres au Moyen Age, Paris, Hachette, 1978,p. 196.

78 - أنظر الجزء الثالث، ص. 366 من كتابه:

Historia de Espana y su influencia en la historia universal, Barcelona, Casa Editorial P. Salvat, 1922

79 - ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص. 401.

الهواء، أودى بحياة نصف عدد محاربي الحملة[80]. وفي سنة 731 هجرية، حدث "جفاف" بالأندلس ترتب عنه وباء ألمرية الذي أشار اليه ابن خاتمة. ويبدو أن الأمر يتعلق بمجاعة عمت معظم أقاليم شبه جزيرة ايبيريا في أوقات متفاوتة نسبيا، لأن خواكين دي بيلالبا، تحدث في جرده، عن مجاعة شديدة حدثت بكومطية قطلونيا سنة 1333ميلادية/ 733 هجرية. تلاها وباء أودى في بضعة أيام بما ينيف عن عشرة آلاف شخص[81].

وفي ضوء هذا الجرد السريع، نستطيع إبداء الملاحظات التالية:

أولا: لم تشمل عملية التعقب التي قمنا بها سوى الفترة الممتدة بين سنتي 571 و731 هجرية. كما لم نعتمد فيها سوى على ثلاث نماذج من كتب التاريخ العام، ورغم ذلك، يتضح أن المجاعات التي شهدتها الأندلس خلال ذلك الحيز الزمني كانت كثيرة. بعض تلك المجاعات ترتبت عنها أوبئة ذكرها ابن صاحب الصلاة وابن عذاري وابن أبي زرع بالاسم، وبعضها لم يذكروا ما اذا كانت قد أعقبتها أوبئة أم لا.

ثانيا: يمكن القول بأن تلك المجاعات كانت تتردد في فترات متقاربة وبشكل غير منتظم. رغم أن احد الباحثين ذهب الى القول بأن الفاصل الزمني بين كل موجة وأخرى تراوح بين عشر واثنى عشرة سنة[82]. ويبدو هذا االقول مقبولا بالعودة الى ما ذكره ابن أبي زرع بنبرة تنم عن نوع من الاستغراب وهو يستعرض أحداث سنة 657 هجرية في المغرب. حيث قال: "وفيها كان الرخاء العظيم في المغرب. فلم يزل كذلك مدة خمس عشرة سنة[83]. ونعتقد أن الأمر

---

[80] - Don Joaquin De Villalba,Epidemiología Española…, Op.Cit., tomo1, p. 67.

[81] - Ibid., p. 69.

[82] - Antonio Arjona Castro,"Las epidemias de peste bubónica en Andalucia en el siglo XIV", Boletin de la Real Academia de Córdoba, de Ciencias, Bellas Letras y Nobles Artes, no 108, Junio 1985, p. 57.

[83] - أنظر كتابه،الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية، دون ذكر اسم المحقق، دار المنصور للطباعة والنشر، الربط، 1972، ص. 89.

كان سيان في المغرب كما في الأندلس نظرا لكون فترات الرخاء وفترات التراجع والشدة، كانت تتعاقب فيهما في نفس الوقت تقريبا. ونظرا لكون الأوضاع السياسية والعسكرية فيهما كانت متشابهة. رغم أن الأندلس كانت تحت الضغط العسكري المسيحي باستمرار.

ثالثا: يبدو أن معظم حالات الأوبئة أعقبت موجات المجاعة التي كانت تحدث من جراء الجفاف كما ذكرنا في مناسبة سابقة. وبالعودة الى أسباب حدوث الأوبئة التي قال بها ابن زهر ونقلها عنه ابن خاتمة، يمكن القول بأن السبب الطبيعي كان وراء حدوث معظم حالات الأوبئة التي ورد ذكرها في الجرد. ولا نعني بالسبب الطبيعي تغير الفصول في ارتباطه بالاختلالات الفلكية، وإنما نعني به اضطراب المناخ. بمعنى أن الأشهر المطيرة كانت تتعاقب مع أشهر السنة الأخرى، ولكنها كانت تأتي في بعض السنوات غير محملة بالأمطار. فيتعذر على الفلاحين والمزارعين القيام بالحرث ومباشرة العمل الزراعي وفق الجدول المتعارف عليه في المواسم العادية. ولذلك يضطرون لاستهلاك كميات الحبوب التي وفروها من الموسم الزراعي المنصرم. ويشرعون في استهلاك كمية من الحبوب التي احتفظوا بها كبذور (الزريعة) لتجديد الدورة الزراعية. وقد يبيعون نصيبا منها نظرا لاشتداد الطلب على الحبوب في الأسواق وارتفاع أسعارها. وهكذا تتراجع أسابيع بعد أسابيع الكميات الضرورية لاشباع الحاجيات. فتحدث المجاعة التي تشتد نظرا لضعف امكانيات التخزين من قبل المنتجين المباشرين ومن قبل القائمين بالأمر، ونظرا كذلك لصعوبة الاستيراد، اذا كان الجفاف قد شمل الجهات (المحلية أو الجهوية) التي يمكن التزود منها. وقد تستمر المجاعة أكثر من عام لأن المجتمع استهلك ما تم انتهاجه خلال الموسم السابق على حدوث الجفاف، بما في ذلك البذور كما ذكرنا. فيغدو من الصعب مواصلة العمل الزراعي خلال الموسم الموالي لسنة حدوث الجفاف. فتستمر المجاعة ربما لأكثر من سنة. وحين تعدم الأقوات

كلية كما قال بذلك ابن عذاري وابن أبي زرع، يقبل العامة على تناول كل ما يمكن أن يسد رمقهم بما في ذلك الحبوب المعفنة والنباتات التي يحتوي بعضها على مواد سامة، والدواب والدواجن والطيور النافقة وغيرها. فتحدث الوفيات من جراء الجوع. ويتفشى الوباء بسب كثرة الوفيات المترتبة عن الجوع وعن تناول المواد النتئة.

والراجح أن جميع الأسباب المفضية لحدوث الأوبئة كانت "تتعاضد"، على حد تعبير ابن الخطيب. فإلى جانب الاضطرابات المناخية المسببة لفساد الهواء، كانت الأبخرة الفاسدة تتصاعد من جثامين الأفراد الذين توفوا جوعا، ومن جثامين الذين توفوا تسمما. كما كانت تتصاعد من الحيوانات والدواب النافقة. وكانت الأبخرة الفاسدة تتصاعد، قبل حدوث الأوبئة وبعدها، من جثامين الأفراد الذين كانوا يلقون حتفهم في الحروب التي كانت كثيرة. كما كانت تتصاعد من البرك الراكدة، ومن المياه العادمة، ومن الأزبال المكدسة في الحواضر. ولا يجب أن يغرب عن بالنا أن هذه السباب كانت تفعل فعلها في مجتمع كان أكثر أفراده "على استعداد" لتلقي الإصابة بالأمراض التي تأخذ طابعا جماعيا ومجتمعيا بسرعة وفي مجال واسع.

وبناء على ما تقدم، يمكن فهم دورة الأوبئة التي كانت تحدث في الأندلس. ونستطيع أن نقول بأن وباء منتصف القرن الثامن الهجري كان محتمل الوقوع لأن الأسباب التي أدت الى حدوث الأوبئة التي سبقته كانت دائما قائمة. وحتى وان سلمنا بأنه لم يظهر في الأندلس بل "وفد اليها" على حد تعبير ابن خاتمة، فقد كان المجتمع الأندلسي "مهيئا" لتلقي الإصابة.

ويبدو ان "وفادة الوباء" لم تكن في الحقيقة أمرا جديدا. فكثيرا ما كانت الأوبئة تعم المغرب والأندلس، أو تعم جميع مناطق غرب

البحر المتوسط في أوقات متقاربة نظرا لتشابه المناخ وسرعة تحرك الهواء.

ونعتقد أن وباء منتصف القرن الثامن الهجري حدث باعتباره حلقة من بين حلقات الأوبئة كما أشرنا الى ذلك. ولكنه اكتسى أهمية أكثر من الأوبئة السابقة لأنه لم يقتصر هذه المرة على الأندلس وحدها أو على الأندلس والمغرب. كما لم يقتصر على مناطق غرب البحر المتوسط. وإنما شمل مجالا جغرافيا شاسعا. ولذلك لم يعد حلقة أندلسية صرفة. بل غدا حلقة كونية. ولذلك نعود هنا لنكرر بأن الأوبئة التي حدثت في الأندلس تمثل حلقات ضمن سلسلة طويلة. ومثلها الأوبئة التي حدثت في مصر تمثل حلقات ضمن سلسلة طويلة. وتلتقي الأندلس مع مصر ومع المغرب ومع باقي كيانات العالم القديم في كونها تشترك في "طاعون جستنيان" الذي يعتبر حلقة كونية أولى. كما تشترك في "الطاعون الأسود" الذي يعتبر الحلقة الكونية الثانية. وتغدو الأوبئة من هذا المنظور شبيهة بالحروب. فهي تمثل حلقات بالنسبة لكل كيان سياسي. وتشترك جميع كيانات العالم في كون الحربين العالميتين الأولى والثانية تمثلان بالنسبة لها جميعا حلقتين كونيتين في سلسلة الحروب الطويلة التي اندلعت منذ بدء الخليقة.

فماذا يمكن أن يقال عن أعراض هذا الوباء الكوني. وكيف انتشر في الأندلس؟

ثالثا: أعراض وباء منتصف القرن الثامن الهجري وطرق انتقاله بين الناس

لم يقتصر وباء منتصف القرن الثامن الهجري على الأندلس، بل انتشر كما ذكرنا في مناطق شاسعة من العالم القديم. وأودى بالملايين من عامة الناس وخاصتهم. ولذلك اهتم به الأطباء والمؤرخون

والرحالة. منهم من تحدث عنه في صفحة أو صفحات. ومنهم من خصه بمقالة مستقلة. وقد باتت أعراضه معروفة اليوم. خلافا للأوبئة الأخرى السابقة التي لم تجد من يكتب عنها باسهاب باستثناء نماذج قليلة منها نتوفر اليوم على معلومات مقتضبة حول طبيعتها وحول أعداد ضحاياها.

ويتضح من خلال مقالتي ابن خاتمة وابن الخطيب، أن وباء منتصف القرن الثامن الهجري كان عبارة عن "حمى خبيثة"[84] او "حمى وبائية"[85]. وهذه الحمى"هي حرارة غريبة (...) تتصل بالقلب ثم تنتشر منه دفعة في سائر البدن"[86]. وقد نشأت عن فساد الهواء. وبما أن عامة الناس كانوا يستنشقون ذلك الهواء، فإن المستعدين منهم للإصابة، كان يؤذي قلوبهم. فيتغير مزاجها. وفي اليوم الموالي، يصيبهم اضطراب عام وتشنج وصداع في الرأس وغثيان وقيء وعطش وثقل في الصدر وضيق في التنفس ونفث دم وسواد في اللسان وتورم في الحلق واختناق في البلعوم. فلا يستطيعون بلع الطعام[87]. وقد تتطور هذه الأعراض، فتبدو على أبدانهم "عقد وطواعين تحت الإبطين أو في الأربيتين أو خلف الأذنين"[88]. وقد تنتشر قروح سوداء في مواضع من أجسامهم. وخاصة في الظهر والعنق والأطراف[89].

وفي ضوء ما قيل عن هذه الأعراض، وخاصة ما تعلق منها بما سماه ابن خاتمة "بالعقد والطواعين" التي تظهر على أجساد المصابين. وهي التي سماها ابن الخطيب "بالخراج من جنس

---

[84] - "تحصيل غرض القاصد...- مقالة مخطوطة سبقت الاحالة عليها، ورقة 5.

[85] - ابن الخطيب،"المقالة المسماة بمقنعة السائل..."، ص. 2.

[86] - ابن خاتمة، "تحصيل..."، ورقة 6.

[87] - نفسه، ورقة 5.

[88] - نفسه. وابن الخطيب، "مقالة..."، ص. 2

[89] - ابن خاتمة، "تحصيل..."، ورقة 6. وابن الخطيب، "المقالة المسماة بمقنعة السائل..."، ص. 3.

الطواعين"، فإن الأمر يتعلق بما يسميه الباحثون المحدثون والمعاصرون "بوباء- طاعون" (une épidémie de peste).

وقد سبق لأطباء الإسلام القدامى أن تحدثوا عن طبيعة هذه "العقد" أو "الخراج" وعن خطورتها. فذكر الرازي في معرض حديثه عن الدماميل والبثور والدبيلات الظاهرة والباطنة، أن "الطاعون ورم يحدث في اللحم الرخو. منه ما يحدث في أصل الأذن وهو من فضول الدماغ. ولذلك فهو بارد ساكن. ومنه ما يحدث في الإبط. وهو نوع خبيث حاد لأنه من فضول القلب (...) يقتل في خلال أربعة أو خمسة أيام"[90]. وكان ابن سينا أكثر دقة. فربط الطاعون بالوباء من خلال قوله بأن "الطواعين تكثر في الوباء وفي البلاد الوبئية"[91]. وعرف "الطاعون" على غرار الرازي، بكونه "ورم حار قاتل. لأن جوهر مادته يتحول الى سم يفسد العضو ويغير لون العضو الذي يليه. وقد يرشح دما أو صديدا ويؤذي القلب عن طريق الشرايين"[92]. وإن تأثير مادة الورم في القلب، هي التي تحدث القيئ والغثيان والاختناق. وحين تشتد أعراضه، يفتك بالمصاب[93].

ولا بأس من الإشارة بأن ابن سينا ميز في "الطاعون" بين ثلاثة أنواع: نوع أحمر وآخر أصفر وثالث أسود. "وهو أشدها فتكا لا يفلت منه أحد"[94] اذا أصيب به.

ويبدو أن هذا النوع هو الذي سبب تلك الأعراض التي تحدث عنها ابن خاتمة وابن الخطيب رغم أنهما لم يستعملا مصطلح "طاعون" في عنواني مقالتيهما. كما لم يصفا الوباء بأي لون. فقد استعمل الأول عبارة "المرض الوافد". واستعمل الثاني عبارة "المرض الهائل". ولم يذكر ابن خاتمة كلمة "طاعون" الا في الورقة

---

90 - أنظر كتاب الحاوي في الطب، المجلد الثالث، ص. 1891. والمجلد السادس،ص 2516.

91 - أنظر كتاب القانون في الطب، الجزء الثالث، ص. 165.

92 - نفسه، ص. 164.

93 - نفس المصدر والجزء والصفحة.

94 - نفسه، ص. 165.

14 من مقالته حين شرع في الحديث عن "السبب الخاص" الذي أدى الى حدوث الوباء. كما لم يورد ابن الخطيب كلمة "طاعون" الا في آخر فقرة من الصفحة السابعة من مقالته، حين ذكر، وهو يتحدث عن انتقال العدوى بين الناس، أن آلافا من الأسرى المسلمين القابعين في قبضة المسيحيين بسجن اشبيلية، "لم يصبهم الطاعون. وقد كاد يستاصل المدينة"[95]. لذلك حرصنا منذ مقدمة هذا البحث على استعمال عبارة "وباء منتصف القرن الثامن الهجري" خلافا للباحثين المحدثين والمعاصرين، وخاصة منهم الاسبانيين، الذين يستعملون كثيرا عبارة "الطاعون الأسود" في أبحاثهم.

وعلى هامش إشارتنا لمسألة العدوى، يجدر الذكر، أن الوباء الذين نحن بصدد الحديث عنه أودى بحياة كثير من الناس ليس فقط بالنظر لقوة فتكه، ولكن أيضا بالنظر لانتشاره في رقعة ترابية شاسعة. وقد ذكر ابن خاتمة العدوى بالاسم وخصها بحيز مستقل "كمسالة رابعة"[96] في مقالته بعد "مسألة حقيقة الوباء" و"مسألة أسباب الوباء العامة والخاصة" و"مسالة إصابة قوم بالوباء دون قوم". وأقر في مستهل حديثه عنها، أن"العادة والتجربة" أبانتا بأن الوباء معد للغاية. فإذا أصيب أحدهم، ينتقل الداء الى الذين يعيشون في محيطه، عن طريق ما سماه "بالملابسة".أي المعايشة والاحتكاك اليومي.

ووضح بأن عملية الانتقال تتم عبر ثلاث طرق هي:

أولا: الأبخرة الفاسدة المنبعثة مع أنفاس المريض عند استحكام الداء. وخاصة عندما يلفظ أنفاسه الأخيرة. فإنها تلحق الأذى بمن يعيشون في محيطه. حيث يستنشقونها. ويكون تأثيرها على السليم "على قدر كمال استعداده. وسرعة انفعاله". أي تبعا لقوة مناعته كما يقال اليوم. ولم يفت ابن خاتمة أن ينبه في هذا المقام، بأن قوة المناعة قد لا تحمي الشخص من الإصابة مع دوام مساكنة المريض.

---

95 - أنظر مقالته، ص. 7.

96 - أنظر مقالته "تحصيل غرض القاصد..."، الأوراق 26 و27 و28.

ثانيا: الأبخرة الفاسدة المنبعثة من بدن المريض. وإن كان مفعولها اقل من مفعول الأنفاس.

ثالثا: استعمال ألبسة وفراش المريض. فيكون للباس تأثير على صحة السليم اذا ارتداه مباشرة على بدنه. ويكون للفراش تأثير إذا داوم السليم على استعماله واستنشاق ما ينبعث منه.

وأكد ابن خاتمة صحة ما ذهب إليه في كون عدد كبير من باعة سوق "الخلق" بمدينة المرية لقوا حتفهم في خلال شهر لأنهم كانوا يبيعون ألبسة وأفرشة من ماتوا بفعل الوباء. كما أن أهل بعض البلاد الذين منعوا الوافدين من بلد به الوباء من دخول بلادهم، ظلوا بمنأى عن هذه الآفة لمدة طويلة. خلافا لبعض أهالي الحصون الواقعة بمحاذاة ألمرية. فقد سمحوا بدخول وافدين إليها كانوا مصابين وماتوا بين أظهرهم. فانتشر بينهم الوباء.

وأنهى ابن خاتمة حديثه عن مسألة العدوى بالقول بأن التجربة أبانت بأن الأفراد الذين يعايشون المصاب حتى وفاته، لا تنتقل إليهم العدوى فقط. وإنما ينتقل إليهم الداء بنفس المواصفات الفيزيولوجية التي كانت بادية على المصاب. فإذا نفث قبل وفاته دما، ينفثون دما. واذا ظهر على جسده ورم في مكان معين، يظهر عليهم الورم ذاته وفي نفس المكان أيضا. فكأن الداء يستنسخ بين أفراد الأسرة إذا أصيب أحدهم. حتى أنه اذا كتبت له النجاة، نجوا جميعا. وإذا هلك، يشتركون معه في المصير[97].

وأثار المؤرخ- الشاعر الشامي، ابن الوردي[98]، الذي أودى الوباء بحياته، مسألة العدوى في جملة وجيزة من رسالته عن هذا الوباء،

---

97 - نفسه، ورقة 28.

98 - هو أبو حفص عمر بن مظفر بن عمر، المعروف بابن الوردي، من أهل الشام. (توفي يوم 17 ذي الحجة سنة 749 ه). كانت له دراية بعلوم الدين، وإلمامة بعلم التاريخ ونظم الشعر. له عدة مؤلفات من بينها كتاب في التاريخ، يعرف "بتاريخ ابن ورد". صدرت نسخة منه عن دار الكتب العلمية ببيروت سنة 1996 في جزئين وديوان في الشعر. حققه عبد الحميد هنداوي. وصدر عن دار الآفاق العربية بالقاهرة سنة 2006.

ذكر فيها أن العليل إذا "بصق دما" ينتقل الداء الى "الباقين من الأحداث". فيلقون حتفهم بعد ليلتين أو ثلاث[99].

وتوقف ابن الخطيب بدوره مطولا عند مسألة العدوى. فذكر، استنادا الى "التجربة والاستقراء والحس والمشاهدة والأخبار المتواترة"، أن الإصابة تنتقل من المريض الى السليم عن طريق المعايشة والمساكنة[100]. وعن طريق استعمال آنية المريض وثوبه. كما قال بذلك ابن خاتمة. بل أكد على شدة العدوى بالقول بأن شيئا بسيطا "كالقرط"، إذا أخذته امرأة سليمة من مصابة ووضعته في أذنها، يلحقها الداء. ويبيد بعدها سائر أفراد الأسرة[101].

ومن المفيد الإشارة الى أن بعض الأطباء المسيحيين المعاصرين للوباء لاحظوا على المصابين، في بعض مدن أوربا، مجمل الأعراض التي تحدث عنها ابن خاتمة وابن الخطيب. ومن بين أولائك الأطباء، ڭيدو دو كولياكو ((Guido de Cauliaco الذي عاين عددا من الحالات في بلدة أڤنيون (Avignon) الفرنسية. ولكنه لم يتحدث عن تلك الأعراض بقدر من التفصيل[102] كما فعل ابن خاتمة.

وأكد الباحثون الغربيون المعاصرون، من مؤرخين وأطباء، ما قال به أطباء العصر الوسيط عن أعراض الداء. وربطوا تلك الأعراض بالطاعون الذي يمكن إن يأخذ شكلا دمليا أو شكلا رئويا.

---

99 - أنظر "رسالة النبأ عن الوبا" ضمن ديوانه الشعري، ص. 89.

100 - ابن الخطيب، "مقالة..."، ص. 7.

101 - ابن الحطيب، "مقالة..."، ص. 7 وص. 9 وص. 11.

102 - طبيب وجراح فرنسي. يسميه الفرنسيون ڭي دو شولياك (Guy de Chauliac). توفي في يوليوز 1368. عمل لحساب عدد من البابوات حين كان مقر البابوية ببلدة أڤنيون الفرنسية. وضع بمؤلفا في الطب انتشر في مختلف أنحاء أوربا. اعتمد فيه كثيرا على مؤلف أبي القاسم الزهراوي. انظر نسخة منه صدرت سنة 1890 تحت عنوان:
La grande chirurgie, Edition Edouard Nicaise, Paris, Alcan, 1890.

أما فيما يتعلق بمسألتي انتقال "الطاعون" من العليل الى السليم، ودور العدوى في سرعة انتشاره، فقد تبنى بعضهم وجهة نظر مختلفة.

فقد نفت الباحثة والمؤرخة فردريك أودوان- روزو (Frédérique Audoin-Rouzeau) مسالة العدوى المباشرة بين الأشخاص. ودافعت عن فكرة مفادها أن البراغيث والقمل العالق بالملابس، هي التي قامت بدور الناقل للداء بين الناس عن طريق الوخز. وليس البراغيث المحمولة على ظهور الجرذان كما ظل يقول بذلك عدد من الباحثين[103]. واستندت في ذلك الى أمرين. أولهما الخلاصات التي انتهى اليها بعض علماء البيولوجيا، أمثال جورج بلان (Georges Blanc) ومارسيل بالتزار(Marcel Baltazard) اللذان قاما بتحريات حول بعض حالات الوباء. وأثبتا دور البراغيث والقمل في نشر البكتيريا. وثانيهما حقيقة عدم وجود الفئران السوداء في مناطق البحر المتوسط حين تفشى "طاعون جستنيان". وأن هذه الكائنات لم تنتشر في أوربا الا بعد مطلع القرن الثاني عشر للميلاد.

ومال الطبيب جون- نويل بيرابن (Jean-Noël Biraben) الى تأييد ما قالت به أودوان روزو بخصوص الفئران. وذكر في هذا

---

[103] - أنظر الفصول الثاني والثالث والرابع والخامس والسادس من كتابها:
Les chemins de la peste, le rat, la puce et l'homme, Rennes, Presses Universitaires de Rennes, 2003.
لا بأس من الإشارة في هذا الصدد الى أن مجموعة باحثين من جامعة أوسلو قاموا بعدة تحريات وبمعالجة معلوماتية للمعطيات المتعلقة "بالطعون". وخلصوا الى أن البراغيث والقمل كان لها دور حاسم في انتشاره بأوربا. ودحضوا على غرار فردريك أودوان"روزو الفكرة القائلة بدور الجردان. وقد نشروا خلاصات تحرياتهم في بحر شهر فبراير 108 في مقال مطول تحت عنوان:
Human ectoparasites and the spread of plague in Europe during the Second Pandemic
ويمكن الإطلاع عليه على الموقع: http.//www.pnas.org

الشأن، بأن المؤلفات التي تحدثت عن وباء 1348 في العالمين الإسلامي والمسيحي، لا تتضمن إشارات الى الفئران[104].

ونؤكد من جهتنا، بأن علماء الطب الإسلامي الذين خصوا الوباء بحيز، أو أولائك الذين تناولوه بإسهاب، لم يشيروا من قريب أو من بعيد الى هذه الكائنات. باستثناء ابن النفيس الذي ذكرها في معرض حديثه عن المؤشرات "الأرضية" الدالة على قرب ظهور الوباء. فتحدث عن تكاثر الحشرات والضفادع. وتحدث عن هروب اللقلاق، وعن"هروب الفأرة من جحرها"[105]. ونعتقد أنه لو كان "للفأرة" دور في انتشار الوباء بين الناس، لما جعلها "تهرب قبل حدوث الوباء". وهو العالم والطبيب المتمكن.

وعلى كل، فقد بدا بيرابن وكأنه ينفي دور الفئران رغم أنه لم يحسم الأمر بشكل قاطع. خلافا لمسألة العدوى، التي نفى أن يكون لها دور في انتقال الداء من العليل الى السليم[106]. ورأى أن هذا الدور لا يكون حاسما، في جميع حالات الطاعون، الا في وسط مناخي رطب، وفي درجة حرارة منخفضة.لأن الجرثومة المسببة له تعيش طويلا تحت الأرض، أو فوق التربة حين تكون درجة الحرارة منخفضة جدا. ويمكن أن يكون دورها حاسما كذلك، ولو نسبيا، في وسط مناخي معتدل خلال فصل الشتاء، حيث ترتفع نسبة الرطوبة وتنحفض درجة الحرارة[107]. وفي هاتين الحالتين، ينتقل الداء من العليل الى السليم عند السعال وليس من خلال الأنفاس كما قال بذلك ابن خاتمة. فإن السعال يسمح بانبعاث جراثيم من العليل، يستنشقها

---

[104] - أنظر مداخلته:

L'épidémiologie de la peste en question" in démographie et santé, actes du XIVe colloque national de démographie historique organisé à Bordeaux en 2007 per l'association CUDEP, Paris, Editions de la CUDEP, 2010, pp.375-382.

[105] -أنظر كتابه، الصيدلية المجربة المعروف بالموجز في الطب، مصدر سبقت الإحالة عليه، ص. 379.

[106] - المداخلة المشار اليها، ص. 375.

[107] - نفس المداخلة ونفس الصفحة.

الشخص السليم الذي يعيش في محيطه. فيلحقه الأذى في خلال يوم أو يومين. ويكون ما ذهب اليه بيرابن أقرب الى ما قال به ابن الوردي عن دور "البصق" في انتقال العدوى بين أفراد الأسرة.

واكدت فردريك أودوان- روزو وجون – نويل بيرابن ما قال به ابن خاتمة في موضوع انتقال العدوى عن طريق الثياب والفراش. فأوضحا بأن التجارب التي قام بها الطبيب بول لويس- سيمون (Paul-Louis Simond)، ابانت فعلا بأن ملابس الشخص الذي توفي من جراء الطاعون تسمح بانتقال العدوى الى السليم اذا ارتداها. وكذلك الملابس التي تغطي جسد شخص يحتضر من جراء الاصابة[108]. وتؤكد هذه الخلاصة ما ذكره ابن خاتمة عن وفاة باعة ملابس الموتى بسوق ألمرية.

ومهما يكن من أمر، فإن وباء منتصف القرن الثامن الهجري الذي كان له كل هذا التأثير على صحة الناس، كان مجرد "مرض وافد" على الأندلس وعلى شبه جزيرة ايبيريا. ورغم ذلك فتك بالآلاف من سكان المدن التي وجد فيها استعدادا للإبادة كما سنبين ذلك في فقرة لاحقة. فأين ظهر؟ وكيف وصل الى الأندلس؟ وما هي حصيلته الديموغرافية؟

رابعا: الانتشار المجالي للوباء وحصيلته الديموغرافية

يفيدنا ابن خاتمة، انطلاقا من المعلومات التي أمده بها بعض "الثقاة الواردين الى ألمرية من سمرقد"، أن الوباء ظهر في بلاد الصين سنة 734 هجرية. وهي "أول المعمور من الأرض في جهة الشرق"[109]. ومنها سلك طريقا بريا الى العراق وفلسطين وبلاد الشام ومصر. ثم سلك طريقا بحريا من مستوطنة كافا (Caffa)،

---

108 - أنظر الفصل.. من كتابها، ص.... ومداخلة بيرابن، ص. 379.

109 - أنظر مقالته "تحصيل غرض القاصد..."، الورقة 16.

االجنوية على ساحل البحر الأسود، الى القسطنطينية التي حل بها في يوليوز 1347. ومنها اجتاح جزر اليونان وجزيرة قبرص وكريت وصقلية وسردينيا. وجزيرتي مينورقة وميوركا. وانتقل الى مدن ايطاليا والى مدن فرنسا عبر ميناء مرسيليا الذي "أرسى به" في فاتح نونبر 1347 ميلادية.

وانتشر الوباء بمدن جنوب فرنسا بين شهري يناير ويونيو 1348. ثم انتقل من"أرض فرنسة آخذا على ريف الأندلس"[110]. فتفشى في معظم الحواضر الساحلية بشبه جزيرة ايبيريا التي كانت تتألف آنذاك من مجموعة ممالك من بينها: مملكة ناڤارا ومملكة قشتالة وليون ومملكة أرغون ومملكة البرتغال ومملكة غرناطة.

ويتضح من خلال هذه الإشارات أن الوباء سلك الطرق البحرية التي كانت تمخر عباب مياهها المراكب التجارية. كما سلك أهم الطرق البرية التي كان يعبرها الحجاج. ويتضح هذا الأمر بصفة خاصة في انتقال الوباء من فرنسا نحو شبه جزيرة ايبيريا كما سنرى بعد حين.

ويقتضي الموضوع في الحقيقة، تتبع رحلة الوباء من فرنسا نحو ممالك شبه جزيرة ايبيريا. وكذلك رحلته بين حواضر وقرى تلك الممالك. ولكن مثل هذه العملية صعبة نظرا لعدم توفر معطيات دقيقة حول أولى الوفيات التي ترتبت عنه هنا وهناك. ونظرا لكونه كان يتفشى بين الحواضر في اوقات متقاربة نسبيا. ورغم

هذا العائق، حاول أنطونيو أوبييطو أرتيتا (Antonio) Ubieto Arteta رصد كرونولوجية انتشاره[111]. وسنكتفي من جانبنا بالحديث عن مسيرته بين ابرز المحطات الايبيرية. وسنسعى بموازاة ذلك، تقديم الحصيلة التي توصل اليها بعض الباحثين حول

---

110 - نفس المقالة، ورقة ....

111 - أنظر مقاله:

"Cronologia del desarrollo de la peste negra en la Peninsula Iberica", Cuadernos de Historia, 1975 ; pp. 245-258.

الخسائر البشرية التي ترتبت عنه في بعض مدن المجال المسيحي. بالإضافة الى حصيلة الوفيات التي ترتبت عنه في بعض مدن المجال الإسلامي. ونروم من وراء ذلك مساعدة القارئ على تكوين فكرة عامة حول حجم تلك الخسائر في شبه جزيرة ايبيريا بشكل عام.

انتقل الوباء من فرنسا الى مملكة ناڤارا (Navarra) في أواخر فصل ربيع سنة 1348 ميلادية عبر الطريق الذي يسلكه الحجاج الى كنيسة القديس شنت ياقب (Santiago de Compostela). وسار بمحاذاة ساحل غيبوثكوى (Guipuzcoa) وبيسكاي (Biscaye)[112]. وحط الرحال بربوع المملكة. وحين وصلها، وجد سكانها منهكين من جراء المجاعة التي انتشرت بينهم منذ الأشهر الأولى من السنة السابقة.

ويفيدنا موريس بيرث (Maurice Berthe)، الذي تناول جوانب من الموضوع، بأن مجاعة تلك السنة (1347) كانت أشد المجاعات التي شهدتها المملكة خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر[113]. أودت بحياة عدد كبير من السكان. وكمثال على ذلك، فقد أفنت قرابة 229 أسرة من بين 1800 أسرة كانت تستوطن القرى الواقعة بظهير بنبلونة وأعمالها[114].

وحين حل "الطاعون" بالمملكة، وجد مجتمعها على استعداد لتقديم مزيد من القرابين. ففتك بقرابة 50 بالمائة منهم حسب تقديرات موريس بيرث. الذي يفيدنا بأن عدد سكان المملكة كان يبلغ حوالي

---

[112] ـ أنظر مقالة الباحث الباسكي انطون اركوريكا (Anton Erkoreka) المختص في تاريخ الطب:

"Epidémies en pays basque. De la peste noire à la grippe espagnole", Histoire des sciences médicales, no 42, 2008, p.p. 113-122.

[113] ـ انظر مقاله:

"Famines et épidémies dans le monde paysan de Navarre aux XIVe et XVe siècles", Comptes rendus des séances de l'Académie des inscriptions et Belles Lettres, no 172, Année 1982, p.p..314-299 .

[114]- نفسه، ص. 306.

250 000 نسمة قبيل سنة 1348. ولذلك استعمل عبارة "المذبحة" (l'hécatombe)[115] لتقييم حجم الكارثة. احتذاء بـگي بوا (Guy Bois) الذي سبق له أن نعت منطقة نورمانديا الشرقية "بهروشيما" بسبب الخسائر البشرية التي شهدتها خلال الحقبة ذاتها من جراء نفس الكوارث[116]. ويرى أنطون اركوريكا (Anton Erkoreka) بدوره أن نسبة الوفيات التي اقترحها موريس بيرث صائبة[117]. واعتمد للقول بذلك على عدد الوفيات في أوساط رجال الدين الذين كانوا يعملون لحساب كاتدرائية بنبلونة زمن حدوث الوباء. فقد توفي تسعة عشر رجلا منهم. وكان عددهم 43 رجلا قبل حدوث الوباء[118].

ورغم أن حدة الوباء خفت نسبيا بالمملكة، فلم يبرحها حتى منتصف القرن الخامس عشر. فكان يتراجع ليظهر مجددا على شكل موجات. كما حدث مثلا بين سنتي 1361-1362 وبين سنتي1373-1374 وبين سني 1382-1383 وبين سنتي 1400-1402 وبين سنتي 1411-1413 وبين سنتي 1451-1452[119].

وكان الوباء ينتشر خلال الفترة ذاتها بمدن الساحل الجنوبي. فظهر بألمرية في أول شهر ربيع الأول من عام 749 هجرية / أول شهر يونيو 1348. وكانت أولى مدن المجال الاسلامي بشبه جزيرة ايبيريا التي "أسرع" اليها الوباء، لاعتبارات جغرافية و"بيومناخية"

---

[115] - Famines et épidémies dans les campagnes navarraises à la fin du Moyen Age, Paris, Sfied, 1984, tome II, p. 326.

[116] - Crise du féodalisme, Paris, Presses de la Fondation Nationale des sciences politique, 1976, p.. 299. ……

[117] - Anton Erkoreka, "Epidémies en pays basque. De la peste noire à la grippe espagnole", Histoire des sciences médicales, no 42, 2008, p.p. 113-122.

[118] - Ibid., p. 115.

[119]- Maurice Berthe, art. cité, p. 306.

شرحها ابن الخطيب[120]. وقد تفشى في ربض يقع شمال شرق المدينة. يتألف معظم سكانه من "المساكين والضعفاء" حسب ابن خاتمة[121]. ثم انتقل الى الربض المجاور. ومنه انتشر في باقي أرباض المدينة.

واخذ في حصد الأرواح منذ ظهوره في أول شهر ربيع الأول من عام 749 هجرية / أول شهر يونيو 1348 حتى منتصف شهر ذي القعدة/ أوائل فبراير 1349. حيث تراجعت حدته نسبيا. واستمر على هذه الوتيرة حتى آخر شهر جمادى الآخرة/ آخر شهر شتنبر[122].

وقد بلغ عدد الوفيات في ألمرية حسب ابن خاتمة "نحو سبعين" فردا في اليوم خلال المدة التي انتشر فيها الوباء بالمدينة[123]. و"هلك ببلنسية يوم العنصرة 1500 نسمة". وتوفي في قرطبة حوالي 500 نسمة[124].

وبدأ الوباء يظهر في حواضر وقرى مملكة قشتالة. في الأسابيع الأخيرة من

سنة 1348 ميلادية / أواخر سنة 749 هجرية. وانتقل إليها من شنت ياقب عبر مسلكين وفق إفادات أنطونيو أوبييطو ارتيتا[124].

ويجمع الباحثون المعاصرون الذين تحدثوا عن خسائره البشرية في هذه المملكة أنه فتك بعدد كبير من سكانها[125]. ولكنهم عجزوا

---

120 - أنظر مقالته، "مقنعة السائل..."، ص. 28. وص. 31.

121 - أنظر مقالته التي سبق أن أحلنا عليها، ورقة 15.

122 - نفسه، ورقة 14 وورقة 15.

123 - نفسه، ورقة 15.

124 - نفس المصدر ونفس الورقة.

124 - أنظر مقاله الذي سبق ا ناحلنا عليه، ص. 60.

125 - أنظر في هذا الشأن الأبحاث التالية:

- Nicolás Cabrillana, "La crisis de siglo XIV en Castilla . La peste negra en el obispado de Palencia", Hispana no 109, 1968, p.p. 245-246.
- Juan Torres Fontes, Tres epidemias de peste en Murcia en el siglo XIV, in De historia medica murciana, Murcia, Academia Alfonso X el Sablo, 1981, tomo dos, las epidemias, p.p. 123-161.

عن تقديم حصيلة ضحاياه في المملكة ككل أو في مراكزها الحضرية الكبرى كطليطلة وبلنسية ومرسية على سبيل المثال. لأن الوثائق القشتالية لا تتضمن معطيات رقمية تساعد على ذلك. خلافا للوثائق الناڤارية. ومن بين تلك الوثائق، التقارير الصادرة عن المجلس (Concejo) المكلف بتدبير الشأن المحلي في مدينة مرسية التي نشر خوان طوريس فونتيس (Juan Torres Fontes) نماذج منها ضمن ملاحق بحثه حول "الطاعون" الذي حل بها[126]. فقد اقتصر واضعوها على ترديد عبارة: "هذه الأراضي أضحت غير مأهولة"[127].

ويبدو أن اهتمام المكلفين بتدبير الشأن المحلي بمرسية، وربما بغيرها من حواضر قشتالة، انصب على المشاكل التي ترتبت عن الوباء كمشكل انخفاض مداخيل الجبايات وارتفاع أسعار اليد العاملة. ولذلك لم يقوموا بإحصاء الوفيات[128]. ونظرا لهذا القصور، اجتهد نيكولا كابريلانا (Nicolás Cabrillana)، واقترح رقما بخصوص خسائر مقاطعة بلنثيا (Palencia). فذكر أنها كانت موطنا ل 420 "كومينوطة" عند مطلع القرن الرابع عشر. فحل بها الوباء. وعندما خفت حدته نسبيا سنة 1353، كان قد فتك ب 82 تجمعا. لم تبق سوى رسومها. بينما اكتفى جون-بيير مولينا بانطباعات حول خسائر القرى التابعة لمدينة طليطلة. فذكر أن الوباء

- Jean –Pierre Molénat, Campgnes et monts de Tolède du XIIe au XVe siècle, Madrid, Casa de Velazquez, 1997.

[126] - أنظر البحث الذي أحلنا عليه في الهامش السابق.

[127] - أنظر نماذج من تلك الوثائق في ملحق مقال طوريس فونتيس الذي أحلنا عليه، ص.ص. 144-147.

[128] - وهذا ما أشار اليه رجل الدين الفرنسسكاني ساتورنينو رويز دو لوازاكا (Saturnino Ruiz de Loizaga) في مقدمة حديثه عن الوفيات الناتجة عن "الطاعون« في بلنثيا وبلد الوليد وزمورا ضمن كتابه:

La peste en los reinos peninsulares segun documentacion del archivo vaticano (1348-1460), Bilbao, Editor Museo vasco de historia de la medicina y de de la ciencia, 2009, p. 46.

لم يستثنيها وفتك بأهاليها. رغم أنه "كشر عن أنيابه في الحواضر". فقد زار تلك القرى في أواخر شهر فبراير 1349. ولم ينصرم الشهر الموالي حتى فتك بسكان دور "ضيعة أهين" (l'aldea d'ahin) وتركها خالية تماما[129].

وفي شهر محرم أو صفر من سنة 750 هجرية /.مارس-أبريل 1349، أخذ الوباء ينتشر بمدينة مالقة. ولكن إخباريي العصر لم يقدموا أخبارا عنه. ولحسن الحظ أورد كل من ابن الخطيب والنباهي المالقي معلومات عنه بالغة القيمة. جاءت في معرض ترجمتهما لبعض العلماء والأعيان والقضاة[130].

فقد تحدث ابن الخطيب عن حدوث الوباء بمالقة. وسماه "الطاعون الغريب"[131]و"وقيعة الطاعون"[132] و"الطاعون الأعظم"[133]. وجاءت هذه التسميات عند ذكره لوفاة بعض الأعلام كأبي جعفر أحمد بن محمد، المعروف بابن برطال، الذي تولى قضاء مالقة ثم قضاء غرناطة،[134]، وأبي القاسم محمد بن عبد الله بن فرتون الأنصاري الذي خدم سلطان غرناطة[135].

ويبدو أن الوباء فتك بعدد كبير من أهالي مالقة حسبما يتضح من حديث ابن الخطيب عن وفاة ابن برطال. حيث يذكر أنه توفي في منتصف ليلة الجمعة خامس صفر عام 750 هجرية "أيام الطاعون الغريب". وخرجت جنازته في اليوم الموالي "في ركب من الأموات"

---

[129] - Campagnes et monts…, p. 290.

[130] - أنظر كتاب الإحاطة في أخبار غرناطة لابن الحطيب، تحقيق يوسف علي طويل، دار الكتب العلمية، بيروت، 2003، أربع مجلدات. وكتاب تاريخ قضاة الأندلس، أو المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا لأبي الحسن علي بن عبد الله النباهي المالقي (توفي سنة 792 ه.)، تحقيق لجنة إحياء التراث العربي في دار الآفاق الجديدة، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، 1983.

[131] - أنظر المجلد الأول من كتاب الإحاطة، ص. 62.

[132] - الإحاطة، المجلد الثاني، ص. 172.

[133] - الإحاطة، المجلد الثالث، ص. 55.

[134] - نفسه، المجلد الأول، ص. 62.

[135] - نفسه، المجلد الثالث، ص. 172.

فاق عددهم 1200. واستمر الحال على نفس المنوال مدة من الزمن[136].

وتحدث النباهي المالقي بدوره عن الوباء بمالقة. واستعمل في حديثه عبارتي "الوباء" و"الطاعون" دون تمييز على غرار الإخباريين. ولكنه أورد معلومات قيمة زاوج فيها بين "المقاربة الكيفية والمقاربة الكمية". فذكر بأن الكارثة كانت عامة و"عظيمة". ترتبت عنها خسائر بشرية كبيرة.

وعبر عن هاتين الحقيقتين بالكلمات قي معرض ترجمته للقاضي أبي عبد الله محمد بن احمد الطنجالي. فقال: "إن بلد مالقة نجمت به بواكي الوباء الأعظم (...) في صدر عام 750 هجرية"[137]. ثم عاد في نفس المقام ليذكر: "وحمى وطيس الطاعون الأعظم"[138] خلال ذلك العام. ويبدو أن أمر هذه الكرثة عظم على النباهي فحسب ظهورها آنذاك "من علامات نبوة الرسول صلى الله عليه وسلم". واستحضر حديثا روي عنه عليه الصلاة والسلام في الموضوع[139].

ثم عبرعن الحقيقتين بالأرقام في معرض ترجمته للقاضي أبي جعفر أحمد بن برطال السالف الذكر. فذكر أن أبا جعفر هذا "توفي بمالقة أيام الطاعون الكبير في منتصف ليلة الجمعة خامس صفر من عام 750 هجرية"[140]. ووري الثرى في اليوم الموالي. و"صحب جنازته ركب من الأموات". "وكان عددهم يزيد على الألف"[141]. بينما جعل ابن الخطيب العدد 1200 كما ذكرنا سابقا. وكان الركب يتألف، حسب النباهي، من عامة الناس وضمنهم ثلة من العلماء.

---

136 - نفس المصدر ، المجلد الأول، ص. 62..
137 - تاريخ قضاة الأندلس، أو المرقبة العليا،، ص. 155.
138 - نفس المصدر والصفحة.
139 - نفس المصدر والصفحة.
140 - نفس المصدر، ص. 148.
141 - نفس المصدر والصفحة.

ويفيدنا النباهي على غرار ابن الخطيب، بأن المدينة كانت تشيع كل يوم "ركبا" مؤلفا من "ألف"[142] ضحية. وهكذا لم تمض بضعة أشهر حتى "خلت الدور وعمرت القبور. وخرج أكثر الفقهاء والفضلاء والزعماء"[143]. فشهدت مالقة بحق "ملحمة وبائية"[144]. عجز النباهي عن الحديث عن "غرائبها". وقد كان محقا فيما ذهب اليه. إذ بعد قرون طويلة عاد الباحثون الأوربيون المعاصرون الى وثائق العصر. فأقروا فعلا بحدوث "ملاحم" في حواضر أوربا. واستعمل أحدهم عبارة "المجزرة". بينما استعمل آخر عبارة "هيروشيما" كما ذكرنا فيما مضى.

والجدير بالذكر أن "الملحمة" التي تحدث عنها النباهي، لم تأت أية إشارة اليها في مقالة حول الوباء وضعها فقيه من مالقة سنة 844 هجرية[145]. ويتعلق الأمر برسالة، على لسان أهل مالقة، بعث بها عمر المالقي في ربيع الثاني من السنة المذكورة للسلطان محمد التاسع، الملقب بالغالب بأمر الله، يلتمس منه زيارة مالقة لتفادي الوباء الذي "ظهر" آنذاك في غرناطة. ويثير هذا الأمر التساؤل حول سبب غياب أدنى إشارة لموجة الوباء الأولى التي اجتاحت مالقة سنة 750 هجرية. ويبدو أن مؤلف الرسالة، الذي لا نعلم شيئا عنه، ولد بعدها بعقود. وربما لهذا السبب لم يشر اليها.

ومهما يكن من أمر، فإن النباهي الذي أورد معلومات قيمة عن "ملحمة" مالقة، لم يفته أن يشير الى حدوث الوباء في جبل الفتح (جبل طارق) خلال نفس السنة (750 ه.)[146]. فكان على أهلها أن

---

[142] - نفسه، ص. 156.

[143] - نفس المصدر والصفحة.

[144] - نفسه، ص. 156.

[145]- **تعرف** الرسالة بمقالة الوباء. أوردها المقري في كتاب أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض، دون ذكر اسم المحقق، منشورات اللجنة المشتركة المغربية الإماراتية لنشر التراث الإسلامي، مطبعة فضالة، المحمدية، 1978، الجزء الأول، ص.ص. 125-132.

[146] - أنظر تاريخ علماء الأندلس أو المرقبة العليا، ص. 156.

يقدموا له أرواحهم وهم يئنون تحت وطأة الحصار الذي كان يضربه عليهم مسيحيو قشتالة بقيادة ملكهم الفنش بن هرانده بن شانجه (ألفونسو الحادي عشر). وكان من الممكن أن "تتعاضد" المجاعة الناتجة عن الحصار مع الوباء، فيفنيان أهل الجبل عن آخرهم، لولا لطف الله. فقد هلك الملك القشتالي من جراء الوباء[147]. فرفع القشتاليون الحصار. وبقي الوباء "ضيفا" على أهاليها. ولا نعلم شيئا عن عدد القرابين التي قدموها له قبل رحيله.

ورغم قلة المعلومات التي يتضمنها كتابا "الإحاطة" و"المرقبة العليا"حول الوباء بمالقة، لم يفت مؤلفيهما الإشارة الى حدوث الوباء في بعض المراكز الصغرى التابعة لمملكة غرناطة مثل بلش ولورقة ورندة ولوشة ووادي آش وحصن قمارش. وجاءت تلك الإشارات عند ذكرهما لوفيات أعلام قدر لهم أن يلقوا حتفهم من جراء ظهور الوباء بهذه المراكز.

ومن الملفت للانتباه أن غرناطة حاضرة مملكة بني نصر تمثل لغزا مجيرا. فابن الخطيب لم يوضح في مقالته ما اذا كان الوباء قد حدث بها أم لا؟ كما فعل ابن خاتمة بالنسبة لألمرية. وربما يفيد صمته بعدم حدوثه بها لبعدها عن الساحل ولكونها تقع في منطقة متضرسة لم يصل إليها "المرض الوافد"[148]. وقد يعزز هذا الاحتمال تأكيد ابن تغري بردي بأن "الموت عم جزيرة الأندلس بكاملها الا جزيرة غرناطة، فإنهم نجوا ومات من عداهم"[149]. ولكن ابن الخطيب يقرن في كتاب "الإحاطة" وفاة علمين اثنين من أعلام

---

[147] - نفس المصدر والصفحة

[148] - لا بأس من الإشارة في هذا المقام الى أن بعض المراكز الواقعة في مناطق متصرسة مثل البيآرن (leBéarn) الواقع شمال غرب جبال البرانس ظل بمنأى عن الوباء. أنظر كتاب: Les pauvres au Moyen Age الذي سبقت الإحالة عليه، ص. 235.

[149] - أبو المحاسن يوسف بن تغري بردي الأتابكي (توفي سنة)، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، دون ذكر اسم المحقق، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة 1949، الجزء العاشر، ص. 199.

غرناطة بالوباء. فهل مات كل واحد منهما ميتة طبيعية واقترنت وفاتهما بتفشي الوباء؟ أم أنهما توفيا فعلا من جراء الإصابة بالوباء؟

يبدو أن بعض الباحثين العرب المعاصرين، ومن بينهم أحمد ثاني الدوسري ومحمد سيف الإسلام بوفلاقة، طرحوا السؤال الأخير ضمنا. وأجابوا عنه بالإيجاب. ولذلك تحدثوا عن حدوث "الطاعون" بغرناطة كما حدث بمالقة[150].

وعلى كل، فقد ذكر ابن الخطيب أن "أبا القاسم محمد بن محمد بن الحكيم اللخمي، كاتب الدار السلطانية وقاضي حاضرتها (...) توفي رحمه الله بغرناطة في السابع عشر من شهر ربيع الآخر عام 750 هجرية في وقيعة الطاعون. ودفن بباب البيرة"[151]. ثم ذكر أن أبا بكر عبد الرحمن بن عبد الملك الينشتي، "أحد المعروفين بالنبل والدهاء". "توفي في الطاعون عام 750 هجرية بغرناطة"[152].

وذهب الباحثان المذكوران أيضا، الى ربط وفاة شيخ ابن الخطيب أبي الحسن علي بن محمد بن الجياب "بالطاعون" مع أن ابن الخطيب، الذي خصه بترجمة وافية في كتابي "الإحاطة" و"الكتيبة الكامنة"، ذكر أن وفاته كانت "ليلة يوم الأربعاء الثالث والعشرين من شوال عام تسعة وأربعين وسبعمائة. ودفن بباب البيرة"[153]. ولم يشر الى سبب وفاته.

وفي ضوء ما تقدم، نعتقد أن الوباء لم يتفش في غرناطة كما تفشى في مالقة وألمرية. وأن الوفيات التي حدثت في حاضرة بني نصر تكون قد حصلت نتيجة بؤرة وباء صغيرة ظهرت بالمدينة.

---

150 ـ أنظر الدراسة التي أنجزها الباحث الأول تحت عنوان: الحياة الاجتماعية في غرناطة في عصر دولة بني الأحمر، المجمع الثقافي، أبو ظبي الإمارات العربية المتحدة، 2004.
والدراسة التي أنجزها الباحث الثاني تحت عنوان: التاريخي والأدبي في كتاب الإحاطة لابن الخطيب، دار الأمان ودار الكتب العلمية، الرباط-بيروت، 2014.

151 ـ كتاب الإحاطة، المجلد الثاني، ص. 174.

152 ـ نفسه، المجلد الثالث، ص. 405.

153 ـ الإحاطة، المجلد الرابع، ص. 123 والكتيبة الكامنة في من لقيناه من شعراء المائة الثامنة، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، 1983، ص.ص. 182-193.

حاولنا في هذا المبحث تسليط الضوء على وباء خطير ظهر في منتصف القرن الثامن الهجري / منتصف القرن الرابع عشر للميلاد. واشتهر في أوساط بعض الباحثين المحدثين والمعاصرين "بالطاعون الأسود". وقد انتشر في معظم أنحاء العالم القديم وأودى بحياة عدد كبير من الناس. وشمل الأندلس التي اخترناها حيزا للبحث.

فعرفنا به وتوقفنا عند أسبابه القريبة والبعيدة انطلاقا من المعلومات التي أمدتنا بها النصوص التي تناولته. وتحدثنا عن موقعه ضمن دورة الأوبئة. وتطرقنا لأعراضه ولكرونولوجية انتشاره في مملكة غرناطة. وحاولنا، انطلاقا من المادة التي وفرتها لنا تلك النصوص، رصد الخسائر البشرية التي ترتبت عنه. وارتأينا في ضوء قلة المعطيات الرقمية التي تتضمنها، توسيع دائرة مجال الحديث عن جغرافية انتشاره. فاستعرضنا مسيرته في بعض حواضر المجال المسيحي من شبه جزيرة ايبيريا وما ترتب عنها من خسائر قصد مقارنتها بخسائره في المجال الإسلامي من شبه جزيرة ايبيريا.

ونستطيع في أعقاب هذا العرض إبداء الملاحظات التالية:

- أولا: لازال هذا الوباء من المواضيع التي لم تحظ بعد بالاهتمام في الوطن العربي بدليل أن البحث فيه، في المجال الإسلامي عامة وفي الأندلس بشكل خاص، لا زال لم يتجاوز بعد عتبة تحقيق بعض النصوص التي تهمه. خلافا لما هو عليه الأمر في أقطار غرب أوربا، وخاصة في فرنسا التي حقق فيها البحث في موضوعه تراكما ملفتا للنظر. ورغم ذلك، ما زالت بعض قضاياه موضوع نقاش حتى اليوم.

ويفوق التراكم في فرنسا ما تحقق في اسبانيا التي شرع الباحثون فيها في تناوله بعد الفرنسيين. ولكن انطلاقا من نصوص غير حافلة بالأرقام على غرار النصوص الفرنسية.

- ثانيا: كانت حصيلة الوباء كبيرة، في الأندلس عامة، وفي ألمرية ومالقة بصفة خاصة، حسب الانطباعات والمعطيات الرقمية القليلة التي تتضمنها النصوص الأندلسية. ولذلك ذهب بعض واضعي تلك النصوص الى نعته "بالوقيعة" و"المرض الهائل" و"الملحمة" و"الطاعون الكبير" و"الطاعون الأعظم". ولم يخطأوا فيما ذهبوا إليه، لأن الباحثين الغربيين أجمعوا منذ أمد طويل، بأنه حصد قرابة ثلث عدد سكان المناطق التي اجتاحها.

- ثالثا: كانت نسبة الوفيات في أوساط عامة الأندلس كبيرة. لأن الوباء وجدهم أكثر استعدادا من غيرهم لتقديم أرواحهم كقرابين. فقد كانوا يترنحون منذ مطلع القرن الثامن الهجري تحت وطأة الحرب والحصار تارة. وتحت وطأة المجاعة تارة أخرى.

- رابعا: جرت العادة أن يصطفي الوباء المستضعفين في المقام الأول. رغم أنه كان يفتك أحيانا بعدد من أفراد الخاصة كما وضحنا ذلك في مبحث حول الوفيات في أوساط العلماء. ولكن وباء منتصف القرن الثامن الهجري "حاول" أن يكون أقل تمييزا سواء من وجهة نظر جغرافية أو من وجهة نظر اجتماعية. فقد اجتاح مختلف مناطق المعمور، باستثناء مواقع جد محدودة. كما فتك بعدد كبير من الفقراء. ولم يستثن الأغنياء. ففي مملكة غرناطة راح ضحيته الفقراء. كما راح ضحيته بعض الأعيان ومن ضمنهم عدد من القضاة والعلماء. وفتك بألفونسو الحادي عشر ملك قشتالة وهو على مشارف جبل طارق.

- خامسا: أجمع الباحثون الذين تناولوا هذا الوباء في المجال المسيحي من شبه جزيرة ايبيريا، أنه أودى بعامة الناس وخاصتهم، من فلاحين وتجار وحرفيين ورجال إدارة وساسة ورجال دين. ولم يعودوا منذ ثمانينيات القرن الماضي، يتفقون مع رايمون كازيل

(Raymond Cazelles) الذي تبنى في بحث نشره سنة 1962 فكرة مفادها أن "طاعون 1348 كان بروليتاريا"[154].

ومما لا شك فيه أن ضحاياه في الأندلس كانوا من نفس الفئات السابق ذكرها. فقد ورد في مقالة ابن خاتمة حديث عن وفيات في صفوف باعة الملابس. وإذا كانت النصوص التي اعتمدناها لم تتحدث عن وفيات في أوساط الحرفيين، فإن صمتها في هذا الشأن، لا يعني أن ركاب الجنائز التي كانت تتجه كل يوم الى مقابر ألمرية أو مالقة لم تكن تضم جثامين بعض الحرقيين الى جانب جثامين غيرهم من الضحايا.

- سادسا: يبدو أن أغلب الوفيات كانت تتألف من الذكور البالغين. وخاصة منهم أولائك الذين كانوا أكثر استعدادا للإصابة. كما كانت كثيرة أيضا في أوساط النساء والأطفال. وقد تنبه ابن الخطيب في مقالته الى هذه الحقيقة. فذكر أن الوباء فتك بعدد كبير من الأطفال[155]. وأكد الفقيه عمر المالقي بدوره بأن الوباء كان "يصطفي" الأطفال الذين تتراوح أعمارهم بين السابعة والعاشرة[156]. ويكتسي هذا المعطى دلالة بالغة من وجهة نظر ديموغرافية. ولكن الباحثين الأوربيين لم يتوقفوا عنده بما فيه الكفاية. رغم أن رايمون كازيل السالف الذكر أثار المسألة حين ذكر في بحثه أن "طاعون 1348 كان "بروليتاريا" وأن الوفيات المترتبة عنه كانت "كثيرة في أوساط الأطفال"[157].

---

[154] - Raymond Cazelles, "La Peste de 1348-49 en Langue d'oil; épidémie prolétarienne et enfantine". Bulletin, philologique et historique, 1962, pp, 293–305.

[155]- أنظر مقالته، "مقنعة السائل..."، ص. 9.

[156] - أنظر "مقالة الوباء" ضمن كتاب أزهار الرياض، ص. 131.

[157] - Raymond Cazelles, art. cité.

وقد أثار كرستيان ݣييوري (Christian Guilleré) المسألة في مقال نشره سنة 1984 حول "الطاعون في مدينة خيرونا"[158]. ولكنه اكتفى بالقول بأن الوفيات في أوساط هذه الفئة العمرية كانت قليلة نسبيا في مدينة خيرونا (Girona) خلال الموجة الأولى من "الطاعون". ولكنها كانت مرتفعة نسبيا خلال موجة سنة 1362 ميلادية[159].

وبدل التوقف عند الوفيات الناتجة عن "الطاعون" من حيث الجنس أو العمر، ارتأى هذا الباحث تخصيص حيز للحديث عن هذه الوفيات في الأوساط المهنية. فوضح أن أعلى نسبة وفيات كانت في صفوف التجار والعاملين في مجال النقل بالمدينة المذكورة. وقد بلغت 26,5 بالمائة. بينما بلغت في أوساط العاملين في الجلد 16,1 بالمائة. وبلغت بين العاملين بقطاع النسيج 13,5 بالمائة. وأقل نسبة كانت في أوساط العاملين في الإدارة ب 4,5 بالمائة[160].

وعاد روبير-هنري بوتيي (Robert-Henri Bautier) لإثارة المسألة سنة 1988[161] في مقال مطول حول "طاعون" 1348 في بلدة ڤيتش (Vich ou Vic) القطلونية. فخلص بعد استقراء مجموعة وثائق تهم الفترة، أن "الطاعون لم يكن بروليتاريا". كما "لم يصطف الأطفال". ووضح بأن الداء تفشى بالبلدة بين شهر مايو 1348 ومطلع سنة 1352. وقد تم تسجيل 795 حالة وفاة بين شهري غشت 1348 وأبريل 1352. من بينها

---

[158] - Christian Guilleré, "La peste noire à Gérone (1348), Annals de l'Institut d'Estudis Gironins, no 27, 1984, p.p. 87-161.

[159] - Ibid. p. 120.

[160] - نفسه، ص. 121.

[161] - كانت هذه العودة في مقال له تحت عنوان:

"Un ensemble documentaire pour l'histoire des pestes du XIVe siècle. l'exemple de la ville de Vich en Catalogne" , Comptes rendus des séances de l'Académie des Inscriptions et Belles Lettres, avril-juin 1988, p.p. 432-455.

قرابة 100 حالة وفاة عادية. وعليه، يكون "الطاعون" قد فتك بسبعمائة فرد خلال المدة المذكورة. من بينهم 90 طفلا. موزعين بين 50 ذكرا و40 أنثى[162]. وإن أكبر عدد من الوفيات كان في صفوف الرجال من خاصة المجتمع وعامته. من بينهم تجار وحرفيون ورجال دين.

[162] - Ibid. p. 442.

E-KUTUB
Publisher of publishers
No 1 in the Arab world
Registered with Companies House in England
under Number: 07513024
Email: ekutub.info@gmail.com
Website: www.e-kutub.com
Germany Office
/Linden Strasse 22, Bruchweiler 55758
Rhineland-Palatinate
UK Registered Office:
28 Lings Coppice,
London, SE21 8SY
Tel: (0044)(0)2081334132